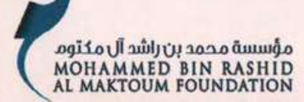
الطبعة الثانية

الطريق

(رواية)

كورماك مكارثي

نقله إلى العربية
هيثم نشواتي
معين الإمام



العبيكان
obeikan

رسالة مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم

عزيزي القارئ،

في عصر يتسم بالمعرفة والمعلوماتية والانفتاح على الآخر، تنظر مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم إلى الترجمة على أنها الوسيلة المثلى لاستيعاب المعارف العالمية، فهي من أهم أدوات النهضة المنشودة، وتؤمن المؤسسة بأن إحياء حركة الترجمة، وجعلها محركاً فاعلاً من محركات التنمية واقتصاد المعرفة في الوطن العربي، مشروع بالغ الأهمية، ولا ينبغي الإمعان في تأخيره.

فمتوسط ما تترجمه المؤسسات الثقافية ودور النشر العربية مجتمعة، في العام الواحد، لا يتعدى كتاباً واحداً لكل مليون شخص، بينما تترجم دول منفردة في العالم أضعاف ما تترجمه الدول العربية جميعها.

أطلقت المؤسسة برنامج (ترجم)، بهدف إثراء المكتبة العربية بأفضل ما قدّمه الفكر العالمي من معارف وعلوم، عبر نقلها إلى العربية، والعمل على إظهار الوجه الحضاري للأمة عن طريق ترجمة الإبداعات العربية إلى لغات العالم.

ومن التباشير الأولى لهذا البرنامج إطلاق خطة لترجمة ألف كتاب من اللغات العالمية إلى اللغة العربية خلال ثلاث سنوات، أي بمعدل كتاب في اليوم الواحد.

وتأمل مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم في أن يكون هذا البرنامج الإستراتيجي تجسيداً عملياً لرسالة المؤسسة المتمثلة في تمكين الأجيال القادمة من ابتكار وتطوير حلول مستدامة لمواجهة التحديات، عن طريق نشر المعرفة، ورعاية الأفكار الخلاقة، التي تقود إلى إبداعات حقيقية، إضافة إلى بناء جسور الحوار بين الشعوب والحضارات.

للمزيد من المعلومات عن برنامج (ترجم) والبرامج الأخرى المنضوية تحت قطاع الثقافة، يمكن زيارة موقع المؤسسة:

www.mbrfoundation.ae

عن المؤسسة:

انطلقت مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم بمبادرة كريمة من صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم نائب رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة رئيس مجلس الوزراء حاكم دبي، وقد أعلن صاحب السمو عن تأسيسها، لأول مرة، في كلمته أمام المنتدى الاقتصادي العالمي في البحر الميت - الأردن في أيار/مايو 2007. وتحظى هذه المؤسسة باهتمام ودعم كبيرين من سموه، وقد قام بتخصيص وقفٍ لها قدره 37 مليار درهم (10 مليارات دولار).

وتسعى مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم - كما أراد لها مؤسسها - إلى تمكين الأجيال الشابة في الوطن العربي، من امتلاك المعرفة وتوظيفها بأفضل وجه ممكن لمواجهة تحديات التنمية، وابتكار حلول مستدامة مستمدة من الواقع، للتعامل مع التحديات التي تواجه مجتمعاتهم.



تنويه برواية (الطريق)

«أول تحفة روائية عن جيل الاحتباس الحراري. (الطريق) رواية أمريكية كلاسيكية جعلت مكارثي على الفور مرشحا لنيل جائزة نوبل للأدب».

أندرو أوهاجان

راديو بي بي سي

«يستحضر مكارثي من هذا الهروب الصعب معجزة الإنسانية التي لا تلين ولا تستكين. الرواية مؤثرة ومثيرة إلى حد لا يصدق».

كريس كليف

صندي تايمز

«إحدى أكثر الروايات التي قرأتها إثارة لمشاعر الصدمة والرعب، دون أن تتخلى عن مهمتها الإنقاذية/الخلاصية. (الطريق) قصة حميمية مكثفة، إنذار يحذر من مغبة الآتي».

كريستي وارك

كتاب الأوبزرفر في العالم

«يصعب عليك تجاهل عمل بمثل هذا الجمال المروع. (الطريق) رواية تحبس الأنفاس فعلاً».

توم غاتي

التايمز

«سوف تتابع القراءة وأنت في حالة من الاقتناع الكامل، والانبهار الشامل، والإثارة المطلقة. كل ما تستطيع الرواية الحديثة فعله موجود هنا».

الن وارنر

الغارديان

«تحفة روائية تعدُّ من الكلاسيكيات الأدبية العظيمة».

هيرالد

«يثبت مكارثي أنه واحد من أعظم الأدباء الأمريكيين الأحياء».

الملحق الأدبي للتايمز

«رواية تتسم بالدقة البالغة المتناهية ... بسيطة، يكتنفها الغموض، شفافة كالبلور، ومبهمة كاللغز في آنٍ معاً. رواية لا تمنح طوقاً للنجاة، ولا تمد يد العون، بيد أنها تنطوي على حكمة شجاعة أكثر رسوخاً وأبقى أثراً».

نيويورك تايمز

«لا يوجد كاتب أمريكي آخر منذ عهد فوكنر خاض بمحض إرادته في الأعمال الأدبية التي تنطوي على وحشية تنزع إلى الشر... مكارثي عزف معزوفة الفالس الأخيرة، ورقص على موسيقاها بما يكفي من الأناقة والروعة؛ كي يجذب الانتباه إلى المهم والجوهري».

بوسطن غلوب

«الإلحاح المتجدد في كل صفحة، والجاذبية العاطفية الخالصة، يجعلان (الطريق) واحدا من أكثر الكتب فاجعية. يكاد يكون مستحيلاً عليك أن تغلق الكتاب متى فتحته؛ كما لو أن عليك الاستمرار في القراءة كي تبقى شخصيات الرواية حية ترزق ... الطريق عمل أدبي من وحي الخيال العميق، عمل فاجعي مهما كانت آراؤك الفكرية وميولك السياسية».

بوك فورم

«نكتشف هذا العالم العنيف المغاير لكل ما هو طبيعي عبر إيقاعات سوداوية رائعة، هي -أيضاً- موصولة بالكتاب المقدس. قليل من الكتب يمكن أن يقدم أكثر، وقليلة تلك التي أنتجت أثرا أدبيا أفضل. لا بد من قراءة هذا الكتاب».

روكي ماونتن نيوز

«كتاب مظلم لكنه متوهج بفضل موهبة مكارثي اللغوية الفائقة. لماذا نقرأ هذا الكتاب؟ ... لأنه سبر الأغوار السحيقة لليأس وطوّعها كي تناسب اللغة، تماماً كما يفعل الصائغ الماهر بجواهره وأحجاره الكريمة. الكتاب يعلن انتصار اللغة على العدم».

شيكاغو تريبيون

«حالـة الحب القائمة بـين الأب والابن هي واحدة مـن أقوى العلاقات التي كتب عنها مكارثي».

كريستيان ساينس مونيتور

«كتاب مؤثر ومقلق واقتحامي، يكشف أعماق الحقيقة السوداء الكامنة وراء الحـزن والرعب كليهما. لا يمكن لرواية أخرى أن تتفوق على الطريق في استشعار الكارثة حقاً وفعلاً على المستويين المادي والروحي».

التايم

«الذروة المنطقية لكل ما كتب مكارثي».

نيوزويك

«من الصعب تصور قصـة رؤيوية انتظم عقدها بمثل هذه الدقة وبمثل هذا الجمـال. يملك مكارثي ذخيرة هائلة من المفردات المستقاة من الكتاب المقدس، أطلق العنان لها بأسلوب خلّف أثراً فنياً. الطريق تأخذه إلى مستوى جديد كلياً. فهي تستحوذ حتى على القلب الإنساني الأكثر برودة».

ستار – لدجر (نيوُرك)

«مكارثي قصاص متمكن لكنه عاصف كالإعصار... كتاباته رائعة كلها وعظيمة إلى حد استثنائي».

شيكاغو صَن – تايمز

«مُدمـرة.. سـاحقة.. لم يبـدُ مكارثي في حياته أوسـع اطلاعـاً وأكثر فصـاحة وأشد بلاغة، ويتصـرف بحرية كما لو كان في بيته، مما هو عليه

في الطريق؛ ذاك العمل الأدبي الذي ينتمي إلى فضاء (ما بعد الرؤية) الذي تدور أحداثه فوق أرض ذابلة ذاوية خاوية مضرجة بالدماء... أثر فني من الطراز الرفيع... رائعة أدبية استثنائية محببة إلى النفس ومحزنة للقلب».

إنترتينمنت ويكلي

«.. الرواية الآسرة، الأسهل منالاً والأشد إثارة للمشاعر منذ أن كتب (كل الجياد الجميلة) ... لقد أمسك مكارثي السكين التي يتعذر الإمساك بها من نصلها الحاد في خضم عالم عدائي، وسط هذا الانكشاف الكئيب الذي يشبه (في انتظار غودو). اشترك مكارثي وأسهم في أمر حيوي راسخ يتعلق بروح الولد وحب الوالد وبطبيعة الشجاعة ذاتها».

يو إس إيه توداي.

الطريق

(رواية)

كورماك مكارثي

نقله إلى العربية

هيثم جودت نشواتي

و

معين الإمام









عندما استيقظ في الغابة كان البرد وعتمة الليل يلفانه. مد يده ليتحسس الطفل النائم بجانبه. الليالي غارقة في ظلام دامس، والأيام كل منها أكثر رمادية وضبابية من اليوم الذي سبقه، وكأنك تراه بعينين مصابتين بالزرق؛ فيبدو لك العالم معتماً مكفهراً. كانت يده تعلو ثم تسبل برفق متساوقة مع حركة النفس. أزاح الغطاء البلاستيكي ثم نهض مدثراً بثيابه النتنة وبالبطانيات، يمم وجهه شطر الشرق؛ بحثاً عن بصيص من نور، ولكن عبثاً كان يفعل. رأى في الحلم الذي أفاق منه لتوه أنه كان يهيم في كهف، يتقدمه الطفل ممسكاً بيده وضوء المصباح يداعب الجدران الحجرية الرطبة، كما الحجاج في الأسطورة تبتلعهم وتضيعهم المكونات الداخلية لحيوان غرانيتي. مسارب حجرية عميقة، حيث الماء يتسرب مترقرقاً. من خلال الصمت يسمع نبض الأرض؛ دقات الدقائق والساعات والأيام والسنين. إيقاع لا نهاية له. إلى أن توقفا بغرفة حجرية ضخمة، حيث تقبع بحيرة أزلية سوداء اللون، على ضفتها البعيدة ثمة مخلوق فمه منغمس في بركة ماء والماء يقطر منه. ثم حدق في الضوء بعيون بيضاء عمياء كأنها بيض العناكب. هز رأسه قريباً من صفحة الماء؛ عساه يدرك بالشم ما لم يستطع أن يراه. جثا المخلوق حيث هو شاحباً، عارياً ونصف شفاف، ارتسمت ظلال عظامه المرمرية على الصخور من خلفه، وكذا ظل أحشائه وقلبه النابض ودماغه. هز رأسه ذات اليمين وذات الشمال وأنَّ أنيناً خافتاً، ثم استدار فترنح ووثب وابتلعته العتمة بصمت.

نهض مع خيوط الفجر الأولى الرمادية اللون، تاركاً الصبي نائماً. ثم مضى متجهاً إلى الطريق، فجلس القرفصاء وأخذ يتفحص الريف الممتد جهة الجنوب. وجده قاحلاً، خامداً، صامتاً وكأنه من عالم مهجور. ظن

أن هذا الشهر هو شهر أكتوبر، لكنه لم يكن متأكداً؛ فهو لم يحتفظ بتقويم منذ سنوات. الحياة في هذا المكان لن تكون ممكنة في الشتاء القادم.

عندما أصبح الضوء كافياً بدأ ينظر إلى الوادي أسفل منه من خلال المنظار، فبدت له الأشياء شاحبة، باهتة، تسبح في الظلام. أما على إسفلت الطريق فثمة دوامات من الرماد الناعم. تفحص ما أمكنته الرؤية أن يفعل؛ ومر بناظريه على أجزاء من الطريق تبدت له من خلال الأشجار الميتة. كان يبحث عن أي شيء له لون، عن حركة ما، عن أي أثر لدخان تنفثه نار مضرمة. أخفض المنظار، أماط اللثام القطني عن وجهه، فرك أنفه بطرف معصمه ثم أخذ ينظر إلى الريف من جديد. جلس في مكانه وأمسك المنظار ثانية مجيلاً النظر بضوء النهار المثقل بالرماد وقد تحجر فوق الأرض.إنه الآن لا يعرف إلا شيئاً واحداً وهو أن الصبي هو ما لديه من الضمان. قال:

عندما قفل عائداً كان الصبي ما يزال نائماً، سحب عنه الغطاء البلاستيكي الأزرق، طواه وحمله إلى عربة المتاع، ثم عاد ومعه صحون وكيس من البلاستيك يحتوي على بعض رقائق الذرة وعبوة بلاستيكية فيها حساء. مد على الأرض قطعة صغيرة من المشمَّع تستعمل بديلاً عن الطاولة، ثم جعل عليها كل الأشياء التي أحضرها، وجلس ينظر إلى الصبي وهو نائم. كان الصبي قد نزع عن وجهه القناع ليلاً، وهو مطمور الآن في مكان ما بين البطانيات. نظر إلى الصبي ثم مد نظره بين الأشجار وصولاً إلى الطريق. هذا المكان ليس آمناً؛ يمكن رؤيتهما من الطريق، فالوقت الآن أضحى نهاراً. تقلب الصبي تحت البطانيات ثم فتح عينيه وقال: مرحباً يا أبي.

رد الأب: أنا هنا.

قال الصبي: أعرف ذلك.

بعد ساعة من الزمن كانا على الطريق، الأب يدفع العربة وكلاهما يحمل على ظهره حقيبة تحتوي على الأشياء الضرورية، فربما يضطران إلى التخلي عن العربة لسبب يدعو إلى الهرب. ثبتت على مقبض العربة مرآة دراجة نارية من الكروم؛ كي ينظر من خلالها إلى الطريق خلفهما. حرك ظهره دافعاً الحقيبة إلى الأعلى نحو كتفيه وأجال الطَّرف في الريف الخرب. كان الطريق مقفراً، وهناك نحو الأسفل في قاع الوادي الصغير يلتف مجرى نهر مكسو باللون الرمادي، ساكن لا حراك فيه، وعلى طول ضفته تنتشر أدغال من القصب الميت.

قال: هل أنت بخير؟ فأومأ الصبي بحركة من رأسه إيجاباً. ثم شرعا يسيران فوق الطريق المزفت، يجران أقدامهما عبر الرماد. كل واحد منهما هو العالم كله للآخر.

اجتازا النهر عبر جسر إسمنتي قديم، وبعد أن قطعا أميالاً وصلا إلى محطة بنزين على جانب الطريق، وقفا على الطريق يتفحصانه. قال الرجل للصبي: علينا أن نتفحص المكان، ألقِ نظرة. غاصت ثيابهما بالغبار، جازا الزفت المتكسر، فوجدا خزان الوقود الذي يغذي مضخات البنزين: كان الخزان منزوع الغطاء، انحنى الرجل متكئاً على مرفقيه؛ ليشم الخرطوم لكن رائحة البنزين كانت مجرد إشاعة باهتة وثقيلة الظل. استقام الرجل ونظر إلى مبنى المحطة، فوجد مضخات البنزين منتصبة في أمكنتها، والنوافذ لم تصب بأضرار، وكان باب قسم الخدمة مفتوحاً فدخل إليه،

ووجد صندوق عدة معدنية معلقاً على الجدار. فتش الأدراج لكنه لم يحظَ بشيء ذي نفع؛ كل ما وجده مفاتيح براغي نصف إنش صالحة للاستعمال، إضافة إلى ترس مغلاق. انتصب واقفاً وألقى نظرة على مرآب السيارات. هنالك برميل معدني مليء بالنفايات. دلف إلى المكتب فوجده يعج بالغبار والرماد ـ بقي الصبي واقفاً عند الباب ـ مكتب معدني وماكينة لتسجيل المدفوعات النقدية، إضافة إلى عدة قديمة لخدمة السيارات لكنها مشبعة بالماء والرطوبة. فراش الأرض كان ملطخاً، ملوثاً ومتجعداً، وذلك بفعل رشح المياه من السقف. مشى نحو المكتب المعدني حيث توقف وأمسك سماعة الهاتف وطلب رقم هاتف منزل والده القديم العهد. نظر الصبي إليه وقال: ماذا تفعل؟

بعد أن قطعا مسافة ربع الميل مشيا على الطريق، توقف ثم التفت إلى الوراء وقال: إننا لم نحسن التدبير ويجب علينا أن نعود. نحى العربة جانب الطريق وغطاها بغية إخفائها. تركا حقيبتيهما وقفلا عائدين إلى المحطة. دخل قسم الخدمة، سحب برميل النفايات المعدني ببطء، أماله ونبش ما بداخله، مخرجاً كل عبوات الزيت البلاستيكية. جلسا على الأرض وشرعا يفرغان عبوات الزيت من البقية الباقية فيها الواحدة تلو الأخرى وذلك بجعلها مقلوبة رأساً على عقب، بحيث يصب الزيت في وعاء معدني. إلى أن جمعا، أخيراً، ما مقداره نصف غالون من زيت السيارات. أحكم إغلاق الوعاء بغطاء بلاستيكي ثم مسحه بخرقة وحمله بيده. إنه الزيت اللازم لفانوسهما الصغير؛ كي يبددا به حلكة الليالي الطويلة، وأوقات الفجر الرمادية الظل التي تمر عليهما بطيئة وثقيلة الظل. قال الولد مخاطباً أباه: يمكنك أن تقرأ لي قصة. أليس كذلك؟

رد أبوه قائلا: نعم يمكنني ذلك.

على الضفة الأخرى للنهر الذي يسلك الوادي ثمة آثار لحريق هائل خلَّف لوناً أسود دلالة على شدة الاحتراق. وعلى كلتا ضفتي النهر تنتشر جذوع متفحمة لأشجار مقطوعة الأغصان، ممزقة الأوصال وتمتد بعيداً. على الطريق يتحرك الرماد وتتدلى من سواري الأضواء السوداء اللون حزم من أسلاك الكهرباء المتقطعة تعصف بها الريح فتصدر طنيناً خافتاً. ثمة بيت محترق وسط أرض جرداء مقطوعة الشجر تمتد خلفه مروج مقفرة رمادية اللون وضفة موحلة جرداء حمراء اللون كانت ميداناً لأعمال طرق، وهي مهجورة الآن والعمل متوقف فيها. تنتصب وراءها لوحات طرقية تعلن عن وجود موتيلات؛ جميعها باهتة خابتة بفعل العوامل الجوية. وسط الرياح الباردة وعلى قمة الهضبة توقفا يلتقطان أنفاسهما. نظر الرجل إلى الصبي. قال له: أنا على ما يرام، ثم وضع الرجل يده على كتف الصبي وأشار إلى الريف المنحدر أمامهما. التقط الرجل المنظار من العربة وتوقف في الشارع وأخذ ينظر إلى السهول الممتدة أمامه فتراءت له ظلال مدينة متشحة باللون الرمادي وكأنها لوحة لأرض مقفرة خربة ومرسومة بالفحم. ليس ثمة ما يرى، لا يوجد دخان.

قال الصبي: هل أستطيع أن أنظر؟ أجابه الرجل: نعم بالطبع لك ذلك. اتكأ الصبي على العربة وعدل العدسة وضبطها. قال له الرجل: ماذا ترى؟ رد الصبي: لا شيء. أخفض المنظار وقال: إنها تمطر. قال الرجل: نعم، أعرف ذلك.

تركا العربة في أخدود، غطياها بغطاء من المشمع وشقا طريقهما عبر منحدر تحيط بهما جذوع أشجار دكناء، حيث وقعت عيناه على مجموعة

من الصـــخور متصل بعضها ببعض. جلسا تحت صخرة ناتئة ينظران إلى زخـــات المطر الرمادية وهـــي تهب على الوادي. كان الجو شـــديد البرودة. جلســـا متجاورين متلاصقين وقد لبس كل منهما سترته والتحف ببطانية. بعد زمن قصـــير توقف انهمار المطر ولم يبقَ ســـوى صـــوت القطرات وهي تسيل على جذوع الأشجار.

عندما صـــفت الســـماء وخلت من الغيوم ذهبا إلى العربة وأزاحا عنها غطاء المشـــمع ثم أخذا البطانيات وما يحتاجانه من أشياء في أثناء الليل. بعـــد ذلك عادا ثانية إلى الهضـــبة وضـــربا مخيمهما فـــوق الأقذار الجافة تحـــت الصـــخور. جلس الرجل ولف ذراعيه حول الصـــبي؛ علـــه يبعث فيه الدفء. مكثا ملتحفين بالبطانيات يلفهما ظلام الليل الرهيب الذي تعجز الكلمات عن وصـــفه. مع حلول الليل تلاشت ظلال المدينة الرمادية وكأنها شبح غاص في الظلام. أشـــعل الرجل الفانوس الصغير ووضعه في الخلف بعيـــداً عن الرياح. بعد ذلك خرج الرجل متوجهاً إلى الطريق ممســـكاً بيد الصبي، ثم اعتليا قمة الهضبة، حيث بلغ الطريق ذروة ارتفاعه ومن حيث يستطيعان رؤية الريف المظلم جهة الجنوب. انتصبا هناك واقفين في مهب الريـــح، وقد ادثـــرا بالبطانيات يجيلان النظر؛ بحثا عن أي علامة تشـــير إلى نار أو إلى مصـــباح؛ ولكن عبثاً كانا يحاولان. كان ضـــوء الفانوس الذي تركاه بين الصـــخور ضعيفاً لدرجة لا يكاد يرى معها. بعد برهة من الزمن مشـــيا عائدين من حيث أتيا. كل شـــيء كان رطباً لدرجة لا يمكن معها أن تضـــرم فيه نار. أكلا وجبتيهما الفقيرتين باردتين واطرحا على فراشيهما يتوســـطهما الفانوس. أحضـــر معه كتاب الصـــبي، لكن الأخير كان شديد التعـــب لدرجة لا يســـتطيع معها القراءة. ســـأله الصـــبي: هل لنـــا أن نبقي الفانوس مضاء إلى أن ننام؟ أجابه: طبعاً، يمكننا ذلك.

كان قد مضى على نومه وقت طويل، استدار بعد برهة ونظر إلى الرجل. بدا وجهه في ظل ضوء الفانوس الخافت ملطخاً باللون الأسود المتأتي من المطر وكأنه ممثل مسرحي آتٍ من الأزمنة الغابرة. قال له الصبي: هل لي أن أسألك عن شيء؟

ـ نعم طبعاً.

ـ هل سنموت؟

ـ يوماً ما، ليس الآن.

ـ أمازلنا متجهين جنوباً؟

ـ نعم.

ـ إذاً سوف ننعم بالدفء.

ـ نعم.

ـ حسناً.

ـ حسن، ماذا؟

ـ لا شيء. حسناً وكفى.

ـ اخلد إلى النوم.

ـ حسناً.

ـ سأطفئ الفانوس. ما رأيك؟

ـ لا بأس في ذلك. ولكن هل لي أن أسألك عن أمر في خضم الظلام؟

ـ نعم. تستطيع أن تسأل بكل تأكيد.

ـ ماذا ستفعل إذا مت؟

ـ إن أنت مت فسأتمنى أن أموت أنا أيضاً.

ـ وبذلك يكون بإمكانك أن تكون معي؟

ـ نعم، وبذلك يمكنني أن أكون معك.

ـ حسناً.

تمدد على الأرض يصغي إلى صوت الماء وهو يسيل على جذوع الأشجار. إن أعماق الحقيقة تتجلى بالبرد والصمت وبرماد العالم الحديث؛ رماد يحمله البرد الشديد والرياح العاتية جيئة وذهاباً في دورة عبثية. رماد تجمعه الرياح، تبعثره ثم تجمعه من جديد. في كنف الهواء المثقل بالرماد كل شيء مقتلع من جذوره دونما داعم أو سند. كل الأشياء تافهة وزائلة. أتمنى لو كان قلبي حجراً.

استيقظ قبل بزوغ الفجر ليشهد صباح يوم يتشكل ببطء ويتنازعه الضوء والعتمة. أفاق من نومه في حين ظل الصبي نائماً. انتعل حذاءه ولف حوله بطانية ثم مشى بين جذوع الأشجار. نزل إلى صدع بين الأحجار، جثا على ركبتيه، دافعاً رأسه إلى الأمام وإلى الأسفل. بدأ يسعل وتملكته نوبة السعال زمناً طويلاً، فأركعته على الرماد. ولى وجهه قبل الفجر الشاحب وهمس: هل أنت هناك؟ هل أستطيع أن أراك أخيراً؟ هل لك رقبة كي أخنقك؟ هل لك قلب؟ لتحل عليك اللعنة الأبدية. هل لك روح؟ ثم همس: آه أيها الليل آه أيها الليل.

مرا بالمدينة ظهيرة اليوم اللاحق، وضع المسدس بين طيات غطاء المشمع، وجعل الغطاء على سطح العربة؛ كي يبقى المسدس بمتناول اليد. أما الصبي فأبقاه بجانبه وملاصقاً له. كان معظم المدينة محترقاً وليس

ثمة ما يشير إلى وجود حياة. السيارات في الشارع مغطاة بالرماد الذي جف وتيبس عليها، كل شيء مغطى بالرماد والغبار. ثمة جثة أضحت جيفة جافة ملقاة في مدخل، وآثار أقدام محفورة في الوحل الجاف. أدنى الصبي منه أكثر من ذي قبل وقال: تذكر فقط أن الأشياء التي تضعها في رأسك ستبقى فيه إلى الأبد. ربما تكون راغباً في التفكير بهذا الأمر، إنك تنسى بعض الأمور. أليس كذلك؟ أجل، إنك تنسى ما تريد أن تتذكره وتتذكر ما تريد نسيانه.

كان ثمة بحيرة تبعد مسافة الميل عن مزرعة عمه، وقد اعتاد الذهاب معه إليها في فصل الخريف؛ ليحتطبا حطباً من أجل التدفئة. كان يجلس في القسم الخلفي من مركب التجديف ممرراً يده على المياه الباردة عبر المجرى الذي يخلفه المركب وراءه وهو يبحر إلى الأمام، في حين كان عمه يتولى أمر المجدافين. قدما الرجل العجوز المنتعلتان حذاء أسود مشدودتان بشكل عمودي؛ قبعته المصنوعة من القش، غليونه بين أسنانه، وخيط رفيع من اللعاب يقطر من تجويف الغليون. استدار ليلقي نظرة على الشاطئ البعيد، أرخى المجدافين، أمسك الغليون بيده، أبعده عن فمه، ثم حك ذقنه بكفه. كان الشاطئ مزروعاً بشجر البتولا الذي انتصب واقفاً شاحباً ومن خلفه الحقول الخضراء توشحها عتمة الغروب. حافة البحيرة مرصوفة بجذول مفتولة من بقايا الشجر رمادية اللون، وقد فعلت بها عوامل الجو ما فعلت. بقايا الأشجار التي اقتلعتها الأعاصير في الأعوام الماضية. الأشجار نفسها قد تعرضت للنشر ونقلت أخشابها، كي تستعمل وقوداً للتدفئة. أدار عمه المركب ووضع المجدافين داخله وأخذت المياه الصافية تدفعهما باتجاه الشاطئ الرملي الضحل إلى أن وصل المركب إلى الرمال. يوجد في المياه الصافية فرخ سمك ميت منتفخ البطن وأوراق نباتات مصفرة اللون. تركا

حذاءيهما على سطح المركب المطلي والدافئ وسحباه إلى الشاطئ. أخرجا المرساة المربوطة إلى نهاية حبل من المركب، والمرساة هي مكعب إسمنتي في مركزه مسمار له عروة. سارا على طول الشاطئ، بينما أخذ العم يتفحص بقايا أخشاب الشجر وهو يعب الدخان من غليونه وينفثه بالهواء؛ وقد لف حول كتفه حبلاً مانيلياً متيناً. التقط إحدى قطع الأشجار وقلباها مستخدمين الجذور رافعة إلى أن تمكنا من إيصالها إلى الماء وجملاها نصف طافية على سطحه. كان كل منهما قد كف بنطاله حتى ركبتيه، لكن ذلك لم يمنع عنهما البلل. ربطا الحبل بممسك مثبت بمؤخرة السفينة ثم جدفا عائدين عبر البحيرة، وقطعة الشجر التي احتطباها ترتج ببطء خلفهما. عندها كان قد هبط المساء. لا توجد إلا صفحة الماء المظلمة، وأضواء النوافذ تظهر على طول الشاطئ وصوت مذياع يسعى إليهما من مكان ما. لم ينبس أحدهما ببنت شفة. ذلك كان اليوم المثالي في طفولته؛ إنه اليوم النموذجي الذي يجب أن تتشكل الأيام على شاكلته.

ظلا يشقان طريقهما جنوبا على مدى الأيام والأسابيع اللاحقة. متلازمين وحدهما يرتحلان عبر هضاب وتلال في ريف قاسٍ. بيوت من الألمنيوم. كانا يتمكنان أحياناً من رؤية امتدادات طرق سريعة تربط بين المدن. الجو بارد ويزداد برودة. ثمة فجوة كبيرة بين الجبال، وقفا خلفها مباشرة ينظران - جنوباً - إلى الخليج الكبير وقد بدا الريف لهما على مد النظر محترقاً. الصخور الموجودة في المياه الضحلة قرب شاطئ الخليج بعيدة عن الأمواج بدت هياكلها متفحمة يكسوها الرماد الذي يهب أيضاً عبر الأراضي المقفرة ليملأ الريف. أما الشمس فقد حجبتها الظلمات ولا تكاد ترى ظلالها الكئيبة وهي تتحرك.

بقيا أياماً يخوضان غمار هذه الأرض المحمومة. وجد الصبي بعض أقلام الرسم فرسم لثام وجهه وجعل عليه أنياباً، وثابر على المشي مجهداً ولكن دونما شكوى. إحدى عجلتي العربة الأماميتين أصابها عطل فتقلقلت. ما العمل بشأنها؟ لا شيء. حيث إن كل الأشياء احترقت قبل وصولهما متحولة إلى رماد، لم يكن ممكناً إضرام نار. وهكذا مرت عليهما الليالي ثقيلة بطيئة ومظلمة، وقد خبرا فيها برداً يفوق الخيال والقدرة على الاحتمال. البرد الذي يفلع الحجر هو أقدر على قتل الإنسان. كان الصبي يرتعش برداً فضمه إلى صدره وأخذ يعد أنفاسه الضعيفة تحت جنح الظلام.

استيقظ على وقع صوت صاعقة قادم من مكان بعيد فاستوى قاعداً. ترافق صوت الصاعقة مع انتشار ضوء باهت متكسر لا يمكن تحديد مصدره، فقد امتص المطر الأسود المحمل بالرماد ضوء الصاعقة. سحب الغطاء عليهما وتمدد على الفراش وظل يقظاً، مصغياً ومتربصاً، زمناً طويلا. إن هما تعرضا للبلل فلن يكون بمقدورهما إضرام نار يتجففان بدفئها، وربما أدى ذلك بهما إلى الموت.

كان يصحو في تلك الليالي وقد اشتد ظلامها؛ ظلام لا سبيل لاختراقه، ظلمة تحمل المرء على الإصغاء، إصغاء يجرح الأذنين. كان عليه أن يصحو مراراً، لا صوت إلا هزيز الريح يعصف بين الأشجار المتفحمة والعارية. استيقظ ، نهض ووقف فترنح وسط ظلام دامس وبرد قارس يبعثان على التوحد والاسترسال في التخيل هرباً من الواقع. لف ذراعيه بطريقة تعينه على التوازن، بينما بدأت ترهات عقله تخرج مكنوناتها؛ إنها رحلة استرجاع للأحداث الماضية؛ بحثاً عن الاستقامة. لا سقوط إلا ويسبقه

انحدار. لقد خطا خطوات عظيمة في طريق العدم، وراح يحصي الخطى ضد الرجوع. عينان مغلقتان وذراعان تجذفان. استقامة بالنسبة، لماذا؟ إنها أمر لا معنى له في الليل؛ مجاز مائي أو قالب، يُعدّ هو مع النجمات قمرهما الاعتيادي. كما البندول العظيم تحت قبته يدون تحركات اليوم الطويل للكون الذي يمكنك أن تقول: إنه لا يدرك شيئاً، مع ذلك فإنك تعرف أن عليه أن يدرك.

استغرق عبور أراضي الرماد المقفرة مسير يومين. الطريق خلفهما يمر عبر قمم سلسلة جبال، والغابة القاحلة المقفرة كانت تتلاشى شيئا فشيئا على جانبي الطريق كلما تقدما بالمسير. قال الصبي: الثلج ينهمر. نظر إلى السماء واعترض بكفه رقاقة ثلج رمادية، نظر إليها وهي تخمد في كفه كأنها آخر مضيف للعالم المسيحي.

تابعا السير معاً وقد وضعا غطاء على رأسهما. رقاقات الثلج الرمادية الرطبة تتمايل وتسقط على الأرض، وعلى جانب الطريق تجمع وحل رقيق القوام. مياه سوداء اللون تجري من تحت كتل الرماد المتراكمة. لم تبق نيران موقدة على قمم الجبال البعيدة ابتهاجاً. دار في خلده أنه لم يعد لطوائف عشاق الدماء وجود ولا بد أن يكونوا قد التهم بعضهم بعضاً. لم يسلك أحد هذه الطريق؛ لا يوجد هنا قاطعو طريق ولا عصابات سلب ونهب. بعد مدة وجيزة وصلا إلى مرآب للسيارات ودخلا عبر باب مفتوح، حيث توقفا ومن هناك اخذا ينظران إلى الثلج المختلط بالرماد وهو يسيل نصف متجمد من أعالي الريف.

جمعا بعض العلب القديمة وأوقدا ناراً على الأرض، ثم وجد بعض العدد، فأفرغ العربة وجلس يصلح عجلتها. سحب المسمار الملولب وثقب

الطوق المعدني بمثقاب يدوي وأعاد تجليبه بشـريحة من ماسـورة معدنية قصـها وفق الطول المطلوب، مستخدماً منشاراً يدوياً. ثم أعاد العجلة إلى مكانها وثبتها بمسمار ملولب، بعد ذلك سوّى العربة على عجلاتها ودفعها على الأرض فدارت كما ينبغي. كان الصبي جالسا يشاهد كل شيء.

اسـتأنفا مسيرهما في الصـباح. ريف مهجور، مخبأ خنازير قرب باب مسـتودع للحبوب؛ النظر إليه يثير الاشمئزاز. قطعة رفيعة من ذيل. داخل المستودع توجد ثلاث جثث معلقة على عوارض خشبية، وقد بدت الجثث من خلال خيوط الضوء الباهتة والشاحبة جافة و مغطاة بالغبار. قال الصبي: قد نجد شيئاً هنا؛ قد نجد ذرة أو شيئاً ما. قال الرجل: دعنا نذهب.

أكثر ما كان يثير قلقه أحذيتهم إضـافة إلى الطعـام؛ دائماً الطعام. في معمـل قديم لتدخـين اللحوم والأسـماك وجدا فخذاً من اللحـم معلقاً على قضـيب في ركن مرتفع، يوحي منظره بأنه مسـتخرج من قبر. الفخذ جاف إلى درجـة كبـيرة وهو متجعد. أدخل سـكينه فيه فإذا لونـه أحمر قاتم من الداخل ومذاقه مالح، لكنه دسم وصالح للأكل. في ذلك المساء قطعاه شرائح سـميكة، وبعد القلي أضافا الشرائح إلى حبات من الفاصوليا؛ بغية طبخها معاً. في وقت لاحق من تلك الليلة أفاق من نومه وظن أنه كان قد سمع قرعاً على طبول ضـخمة تتناهى إلى مسـامعه من مكان ما من الهضاب المحيطة المظلمة والمنخفضة. أخيراً هدأت الريح وأمسى الصمت سيد الموقف.

كان يـرى في الأحلام عروسـه الشـاحبة وقد أتت إليه من ظلة خضـراء مورقة. صـدرها مبيض ونظيف وهي متشـحة باللون الأبيض وقد لبست ثوباً رقيقاً شـفافاً و زين شعرها بأمشاط من العاج وأخرى مصدفة. كان يرى في

المنام ابتسامتها وعينيها الهدلاوين. في الصباح عاد الثلج ليسقط من جديد. كريات صغيرة من الجليد الرمادي تشكلت على أسلاك الإنارة العالية.

لم يكن يثق بكل ذلك. قال: إن الأحلام الحقيقية لرجل معرض للخطر هي تلك التي تنذر بالخطر وكل ما عداها لا يعدو كونه دعوة للضنى والموت. نام وقتا قصيرا ولم يكن مرتاحا في نومه. حلم أنه والصبي يمشيان في غابة مزهرة و الطيور ترفرف أمامهما تحت سماء زرقاء. إلا أنه تعلم كيف يوقظ نفسه من أحلام عالم الأساطير التي تقود صاحبها إلى الهلاك. مستلقيا حيث هو في الظلام يتذوق حبة دراق سعت إليه من بستان فاكهة؛ فكر لو امتد به العمر زمناً كافياً فلسوف يشهد العالم و قد أمسى ضائعا و مضيعا في النهاية. كما العالم الذي يحتضر كذلك الإنسان الذي فقد بصره حديثا، كلاهما يخبو من الذاكرة ويضمحل رويدا رويدا.

بات يمشي متثاقلا تحت وطأة أحلام اليقظة التي لا سبيل للاستيقاظ منها. كان باستطاعته أن يتذكر كل شيء منها باستثناء رائحتها. لقد تذكر كيف كان جالساً معها في المسرح وهي إلى جانبه منحنية قليلاً إلى الأمام تصغي إلى الموسيقى.

زخرفة لولبية مذهبة، مصابيح معلقة على الجدران وستائر عمودية طويلة ومثنية على جانبي خشبة المسرح. أمسكت يده، وضعتها على ثوبها الصيفي الرقيق، فاستطاع أن يتحسس نهايتي جوربيها من الأعلى. جمد هذا الإطار الآن وارجع إلى البرد والظلام ولتحل عليك اللعنة.

كان قد وجد مكنستين فشكل منهما مقشات وربطها بالعربة، وذلك كي يمهد الطريق أمام العجلتين الأماميتين. وضع الصبي في السلة ووقف

على العارضـة الخلفية محاكياً وضع المزلجة التي تجرها الكلاب. وشرعا يتزلجان باتجاه المنحدرات. عند المنعطفات كانا يوجهان العربة بجسديهما كما يفعل المتزلجون. إنها المرة الأولى التي يرى فيها الصبي مشاهد كهذه، مما دعاه إلى الابتسام مدة طويلة.

على قمة الهضبة وجدا منعطفاً ومخرجاً يفضي إلى ممر في طريق وعرة بين الأشجار. تركا العربة وسارا على الطريق إلى أن وجدا مقعداً فجلسا عليه ينظران إلى الوادي. لم يستطيعا رؤية الأرض بسبب كثافة الضباب المغبر. ثمة بحيرة في الأسفل. الجو بارد ومثقل ورمادي اللون في هذا الوادي.

ـ ما هذا يا أبي؟

ـ إنه سد.

ـ وما الفائدة منه؟

ـ إنه سبب تشكل البحيرة، فقبل بنائه كان مكانه نهر يجري ليس إلا يستخدم السد المياه التي تتجمع فيه لتدور مراوح ضخمة تسمى التربينات أو العنفات وهي بدورها تولد الكهرباء.

ـ وذلك من أجل إنارة المصابيح.

ـ نعم من أجل إنارة المصابيح.

ـ هل نستطيع أن نذهب إلى هناك؛ كي نراها؟

ـ أعتقد أن الطريق بعيدة جدا.

ـ هل سيبقى السد في مكانه زمناً طويلاً؟

ــ أعتقد ذلك. إنه مصنوع من الخرسانة. من المحتمل أن يبقى مئات السنين، وربما آلاف السنين.

ـ هل تعتقد أنه يوجد أسماك في البحيرة؟

ـ لا. لا يوجد شيء في البحيرة.

منذ زمن بعيد ومن مكان ما قريب جدا من هذا المكان، كان قد شاهد صقراً يهبط من أعلى الجبل وسط مجموعة من الطيور المائية من فصيلة الكركيات، ثم يجهز على إحداها ويسحبها نحو النهر، ويجرجرها، حتى تطاير ريشها في هواء الخريف.

إن مذاق الهواء المغبر لا يمكن أن يغادر فمك. وقفا تحت المطر كأنهما من حيوانات المزارع، ثم تابعا المسير وقد جعلا الغطاء فوقهما، فالسماء تمطر رذاذاً. تبللت أقدامهما فشعر بالبرد وتخربت أحذيتهما.

على أطراف التلال انتشرت بقايا حيوانات ميتة، وعلى مداها ثمة أشجار عارية صبغتها الأمطار بلون أسود. أما الأحلام فهي غنية جداً بالألوان.

هل توجد طريقة أخرى يمكن للموت أن يستدعيك من خلالها؟

عندما استيقظ في الفجر البارد وجد كل شيء قد تحول فوراً إلى رماد. تماما كماً لو أنك نبشت قبراً وأخرجت منه لوحات جدارية مصنوعة من الجص ومغرقة في القدم ثم عرضتها مباشرة إلى ضوء النهار.

تغير الجو فتوقف الهطول وتراجع البرد. وأخيراً بلغا الوادي الذي يمر فيه نهر في الأراضي المنخفضة. كل شيء كان ميتا من جذوره في

هذا الوادي القاحل. كانا يدفعان العربة أمامهما وهما يسيران على زفت الطريق بين بيوت خشبية عالية الجدران ومغطاة بسقوف معدنية ملفوفة آلياً. في حقل على جانب الطريق يوجد مستودع لجذوع الأشجار المعدة للنشر، وضعت على سقفه المائل لوحة إعلانية مساحتها عشرة أقدام كتب عليها: شاهدوا مدينة الصخر.

حزام الأشجار الأخضر على طول الطريق أضحى صفوفا من نبات العليق الشائك المتفحم. لا يوجد ما يشير إلى وجود حياة هنا. طلب من الولد أن يمسك بالمسدس وأبقاه على الطريق، بينما اعتلى هو درجات سلم قديم مصنوع من حجر كلسي. نزل ودلف عبر رواق إلى بيت مبني في مزرعة مظللا عينيه ومحدقا بالنوافذ. دخل إلى المطبخ؛ الأرض مغطاة بالقمامة تتوسطها مطبوعة إخبارية قديمة، وعلى الجدار أكواب شراب معلقة من مقابضها. دخل عبر الرواق ووقف عند باب غرفة الاستقبال. يوجد عند إحدى الزوايا أرغن عتيق وجهاز تلفاز. أما الأثاث فهو من النوع الرخيص ومعه غطاء من الحرير يدوي الصنع بلون الكرز. رقى الدرج ودلف إلى غرفة النوم. كل شيء مغطى بالرماد، وعلى عتبة النافذة يوجد كلب محنط ينظر إلى الحديقة. فتش الخزائن، تفحص الأسرة فوجد بطانيتين صوفيتين صالحتين للاستعمال ثم عاد أدراجه من حيث أتى. دخل حجرة المؤن فوجد فيها مرطبانات معبأة منزلياً، تحتوي على حبات طماطم. أزاح الغبار عن أغطيتها وتفحصها، يبدو أن شخصاً ما قد مر بها وقرر أن لا رجاء منها. في نهاية الأمر قرر هو أيضاً أن يحذو حذوه. خرج من المنزل واضعاً على كتفيه البطانيتين واستأنفا مسيرهما على الطريق من جديد.

مرا بالقرب من متجر في ضواحي المدينة. يوجد عدد قليل من السيارات القديمة في موقف أضحى مستودعاً للقمامة المبعثرة. تركا العربة خارجا ودخلا إلى متجر عبر جزر من الركام المبعثر والفضلات. وجدا في المستودع بعض حبات الفاصوليا وبعض حبات يوحي منظرها أنها كانت في يوم من الأيام مشمشاً وهي جافة إلى حد بعيد. تبعه الصبي، خرجا من الباب الخلفي وجازا مجازاً ضيقاً فوجدا بعض عربات التسوق؛ عربات صدئة أكل الدهر عليها وشرب. عادا إلى المستودع من جديد؛ بحثاً عن عربة أفضل دون جدوى. يوجد عند الباب ماكينتان للمشروبات الخفيفة، كانتا مقلوبتين على الأرض وأبوابهما مخلوعة بقضيب معدني. قطع من العملة المعدنية مبعثرة في كل مكان يغطيها الرماد. جلس على الأرض وبدأ يبحث مستخدماً يديه في كل مكان داخل الماكينتين. في الماكينة الثانية قبضت يده على أسطوانة معدنية باردة، أخرج يده ببطء فإذا هي علبة كوكا كولا.

ـ ما هذه يا أبي؟

ـ شراب لك، تفضل.

ـ ما هي؟

ـ اجلس. خذ.

حرر الحقيبة من ظهر الصبي، وضعها على الأرض خلفه، جعل ظفر إبهامه تحت السدادة وفتح العلبة. أدنى أنفه من الفقاعات الخفيفة التي تفور في العلبة ثم ناولها للصبي. تناولها الصبي وقال: فقاعات! إنها تفور.

قال الرجل: هي لك.

نظر إلى أبيه ثم أمال العلبة وشرب. جلس يتأمل وقال: إنها حقاً طيبة المذاق.

ـ نعم. إن مذاقها طيب.

ـ أريدك أن تشربها.

ـ هل بقي بها شيء؟

أخذ العلبة، رشف رشفة وأعادها للصبي، وقال: اشربها ودعنا نجلس هنا.

قال الصبي: أشربها؛ لأني لن أتمكن من شرب علبة ثانية أبداً.

رد الأب: ليس أبداً ولكن لوقت طويل ربما.

قال الصبي: حسناً.

كانا في المدينة عند غروب اليوم اللاحق. قطع الإسفلت الكبيرة المقتلعة من تقاطعات الطرق السريعة حولت الأمكنة إلى خرائب يلفها الظلام. حمل المسدس، وضعه في حزامه، لبس سترة ذات قلنسوة. الموتى في كل مكان، لحومها متشققة على طول العظام، أربطتها جافة ومشدودة كأنها أسلاك، ذاوية ومتغضنة. وجوه الجثث محروقة، أفواهها مفتوحة وأسنانها صفراء شاحبة. أصحاب الجثث كانوا جميعاً حفاة، حيث إن كل أحذيتهم كانت قد سرقت منذ أمد بعيد.

تابعا مسيرهما وهو يراقب الطريق خلفهما بشكل مستمر من خلال المرآة. الشيء الوحيد الذي كان يتحرك في الشوارع هو الرماد العاصف. اجتازا الجسر الإسمنتي العالي فوق النهر. يوجد تحتهما قارب صغير نصفه غارق بالمياه الرمادية. عند النهر ثمة أكداس من الركام مغطاة بالرماد وقاتمة اللون.

في اليوم اللاحق، وعلى بضعة أميال جهة جنوب المدينة وصلا إلى منعطف في الطريق ضاعت معالمه من كثرة مخلفات الأشجار الميتة. وصلا عند نهاية المنعطف إلى بيت ضمن مزرعة؛ جداره من الحجر وسقفه جملوني الشكل وتخرج منه مداخن. توقف الرجل ودفع العربة باتجاه الطريق الواصل بين الشارع والبيت.

ـ ما هذا المكان يا أبي؟

ـ إنه البيت الذي ترعرعت فيه.

وقف الصبي ينظر إلى البيت، فرأى أن الألواح الخشبية التي تغطي المنزل من الخارج لجهة جدرانه السفلى قد اقتلعت لتكون حطباً للتدفئة. وقد ظهرت من خلفها العوارض الخشبية ومواد العزل. السقط العفن والمتفسخ المتساقط من الرواق الخلفي تكدس على المصطبة الإسمنتية.

ـ هل سندخل؟

ـ لم لا؟

ـ أنا خائف.

ـ ألا تحب أن ترى المكان الذي نشأت فيه؟

ـ لا.

ـ حسناً.

ـ هل يحتمل وجود أحد هنا؟

ـ لا أظن.

ـ لنفترض أن ثمة أحدا هنا.

وقف ينظر من خلال الجملون إلى غرفته القديمة. نظر إلى الصبي، وقال:

ـ هل تريد أن تنتظرني هنا؟

ـ كلا. أنت دائماً تقول ذلك.

ـ أنا آسف.

ـ أعرف. لكنك تفعل.

خلعا عن ظهريهما حقيبتهما، وضعاهما على المصطبة وشقا عبر النفايات مروراً بالرواق ثم دخلا إلى المطبخ. ظل الصبي ممسكاً بيد أبيه. وجد كل شيء في الواقع قريباً جداً مما هو بذاكرته. فالغرف فارغة. في غرفة صغيرة متصلة بغرفة الطعام يوجد سرير طفل معدني قابل للطي ولا فراش عليه. ها هو موقد الفحم الصغير المصنوع من الحديد المسبوك. ألواح خشب الصنوبر التي كانت تغطي الجدران لم تعد موجودة، وقد خلفت وراءها طبقة من الطلاء المتقشر. وقف هناك وتلمس بإبهامه الخشب المطلي على الجدار والثقوب الصغيرة التي خلفتها المسامير التي كانت تسمر الخشب والتي مضى على تثبيتها أربعون عاما. عندما كنت صبيا اعتدنا على الاحتفال بأعياد الميلاد في هذا المكان. استدار ونظر إلى فناء المنزل المليء بالنفايات فوقعت عيناه على زهرة ليلك ميتة، وعلى سياج المزرعة المشجر الذي أمسى أثراً بعد عين. قال: في ليالي الشتاء الباردة وعندما كان ينقطع التيار الكهربائي بسبب العواصف كنا نتحلق أنا وأخواتي حول الموقد نكتب وظائفنا المدرسية. نظر الصبي إلى الرجل وقال له: يجب أن نذهب يا أبي. قال الرجل: نعم لكنه لم يتحرك.

دخـلا إلى غرفـة الطعـام فوجدا الآجـر الحراري محافظـاً على لونه الأصـفر الـذي كان عليه يوم ركب في الموقـد؛ لأن أمه لم تكن تتحمل رؤيته مسـوداً. أما الأرض فقد تغضنت وتجعدت بسبب مياه الأمطار. وفي غرفة المعيشـة وجدا عظام حيوان صـغير منفصلة عن بعضـها، وقد تجمعت في كومـة. ربما كانت عظاما لقطـة. وعند الباب يوجد بهلوان زجاجي. أحكم الصبي قبضة يده.

اعتليـا السـلم، ثم انعطفا ونـزلا إلى الرواق فشـاهدا أكوازا صـغيرة مصـنوعة من الجصـ وموضـوعة على الأرض، والشـرائح الخشـبية في السـقف مكشوفة. وقف عند مدخل غرفته ورأى فجوة صغيرة تحت النتوء الـذي يعتلي بـاب الغرفة. هنا كنت أنام، وكان سـريري المعدني الصـغير موضـوعا قبالة الجدار. في الليالي يحلم الأطفال آلاف الأحلام ينسجونها من الخيال، تكون العوالم فيها غنية أو مخيفة. هكذا تتبدى للحالمين. لكنها ليست أبدا تلك التي تتحقق في الواقع. اندفع جهة الخزانة، فتح بابها ولكنه لم يكن أكيدا من أنه سيجد الأشياء التي كانت له أيام طفولته. انسل ضوء النهار إلى الغرفة عبر السـقف باردا وضـعيفا. وكان الضوء رماديا كئيبا، تماما كما هو قلبه.

ـ علينا أن نرحل يا أبي، ألا نستطيع الذهاب؟

ـ بلى، هذا ممكن.

ـ إني خائف.

ـ أعرف ذلك. أنا آسف.

ـ أنا خائف حقا.

ـ حسنا، ما كان ينبغي لنا أن نأتي.

بعد مضـي ثلاث ليال كانا فوق أحد التلال الواقعة على سـفوح الجبال الشرقية. أفاق وسط الظلام ليسمع شيئاً قادماً.

تربصـ مكانه ويداه على جانبيـه. كانت الأرض تهتز وترتعد. شـيء قادم نحوهما.

ـ قال الصبي: أبي! أبي!

ـ اسكت. ستكون الأمور على ما يرام.

ـ ما هذا يا أبي؟

اقترب الصـوت منهما أكثر وأصبح مدوياً، كل شيء يرتجف، ثم مضى دونهما وكأنه صـوت قطار يسير تحت الأرض فغاص في ظلمة الليل ورحل. التصق الصبي بالرجل وهو مجهش بالبكاء ووضع وجهه على صدره.

ـ حسناً. اهدأ.

ـ أنا خائف جداً.

ـ أعرف ذلك. ولكن انتهى الأمر.

ـ يا أبي، ما الذي حدث؟

ـ إنه كان زلزالاً. وانتهى الأمر الآن ونحن بخير. اصمت.

في تلك السنوات الأولى كانت الطرقات مأهولة بلاجئين ملتفين بأثوابهم يرتـدون أقنعة ويضـعون على عيونهم نظارات تقيهم من أشـعة الشـمس والغبار. يتجمعون على جانب الطريق، يفترشـون الأرض على أسمال بالية مثلهم في ذلك مثل الملاحين المفلسـين. عرباتهم ملأى بأكداس من الركام والألبسـة البالية؛ كأنها نفايات فوق قبر قديم. كانوا يجرون عربات كبيرة

وأخرى صغيرة. عيونهم تلمع في جماجمهم. رجال متقوقعون لا عقيدة لهم، كانوا يمرون في ممرات مرتفعة وطرق معبدة يتمايلون مترنحين كأنهم مهاجرون في بلاد محمومة. لقد انكشفت الأمور جميعها أخيراً، فالقضايا والمسائل المقلقة والقديمة تم حلها، فتبددت وآلت إلى الظلام والعدم. آخر مثال لشيء يأخذ الطبقة معه، يطفئ النور ويرحل. «أبداً» تعني وقتاً طويلاً. لكن الصبي يتوقف إدراكه عند حدود معرفته فـ «الأبد» بالنسبة له يعني لا يوجد وقت على الإطلاق.

جلس إلى نافذة رمادية في ظل كئيب في بيت مهجور يقرأ صحفا قديمة، بينما كان الولد نائما وقت الأصيل. الأخبار المثيرة اللافتة؛ الشؤون الطريفة لغرابتها عند الساعة الثامنة تنغلق زهرة الربيع. راقب الصبي وهو نائم. هل تستطيع أن تفعلها عندما يحين الوقت؟ هل تستطيع؟

جلسا القرفصاء على ناصية الطريق وأكلا أرزا وفاصوليا باردين كانا قد طهياهما منذ عدة أيام. في ذلك الوقت كان الغضب قد بدأ يتملكهما؛ فليس ثمة مكان خفي يضرمان به نارا، بحيث تتعذر رؤيتها. ناما متلاصقين ملتفين بأغطية نتنة وسط برد قارس وظلام دامس. ضم الصبي إليه ـ إنه نحيل جداً ـ وقال: قلبي. قلبي... لكنه كان يدرك أنه لو كان أبا صالحا لكان الحال كما قالت: أي أن الصبي هو الحاجز الوحيد الذي يقف حائلا بينه وبين الموت. عندما شارفت السنة على نهايتها أمسى صعبا عليه تحديد الشهر الذي هو فيه. كان يعتقد أن لديهما من الزاد ما يكفيهما مدة عبورهما الجبال، ولكن لا سبيل لتأكيد ذلك. يبلغ طول الممر عند مستجمع مياه الأمطار خمسة آلاف قدم والمنطقة شديدة البرودة. قال: إن كل شيء يعتمد على الوصول إلى الشاطئ. مع ذلك، عندما أفاق

مـن نومه ليلاً بات يدرك أن كل ذلك كان هراء فارغاً عديم الجدوى. لقد توافرت لهما فرصـة جيدة لكي يموتا في الجبال. وليس ثمة ما يمكن فعله أفضل من ذلك.

عبرا إحدى البلدات التي تحولت إلى خرائب وسلكا طريقا يتجه جنوبا. غابات محترقة على طول المنحدرات تمتد أميالا وبدأ انهمار الثلوج أسـرع ممـا كان يتوقـع. لا توجد آثار أقـدام على الطرقات. لا أثـر لوجود أحياء في أي مكان. الصـخور الجلاميد الضخمة المتفحمة المنتشرة على السفوح الجرداء تشبه أشكال الدببة. وقف على جسر حجري، حيث كانت تتساقط المياه الموحلة في بركة ماء وتتحول شيئا فشيئا إلى رغوة رمادية اللون. حيث كان يراقب مرة أسماك السلمون المرقطة تتمايل في مجرى مائي وهي تتبع ظلالها الجميلة على الأحجار من تحتها.

تابعا المسير، كان الصبي يمشي مجهدا ومتكئا على العربة، يدفعها إلى الأمـام ببطء ويوجهها وجهة الطرق الجبلية كيفما تعرجت. كانت ما تزال ترى نيران مشتعلة في أعالي الجبال، وكانا يستطيعان رؤية الضياء المنبعثة منها ليلا بلون برتقالي قاتم داكن يخالطه سـواد. كان البرد يزداد شـدة، إلا أنهما أضـرما نارا، حيث ضـربا مخيمهما وظلت متقدة طوال الليل قد خلفاها كذلك بعد أن استأنفا الترحال في الصباح. لف على أقدامهما قطعا من الخيش وربطها بحبال. كانت سماكة الثلج لا تتعدى بضعة إنشات، وهو يعرف أنه لو زادت سـماكة الثلج لتعين عليهما ترك العربة. أخيرا أضـحى الاسـتمرار صـعباً فتوقف طلبـاً للراحة. شـق طريقه وسـط الثلج الموحل بصـعوبة، وقد أدار ظهره للصـبي حيث وقف منحنيا ويـداه على ركبتيه. انتابتـه نوبة سـعال ثم نهض فإذا عينـاه دامعتان وإذا الثلـج الرمادي قد

غشته بقعة دم. ضربا مخيمهما عند صخرة كبيرة مستديرة وجعل فوقهما غطاء ثبته على أعمدة. أوقد نارا، تحلقا حولها وهما يسحبان كومة كبيرة من الحطب لإبقاء النار مشتعلة طوال الليل.

جمعا بعضا من النباتات الميتة، جعلا منها حصيرا، مداها فوق الثلج، التفا بدثاريهما وهما ينظران إلى النار ويشربان ما تبقى من علبة الكوكا التي كانا قد فتحاها لأسابيع خلت. عاود الثلج الهطول، رقاقات ناعمة تتهادى على الأرض؛ على أرض لفها اللون الأسود. غالبه النعاس في جو من الدفء الرائع. كان ظل الصبي يتخطاه وهو يحمل ملء ذراعيه حطبا. شاهد الصبي وهو يحتجز رقاقات الثلج ويجمعها. إنها نار التنين المقدسة. يتطاير الشرر من النار ثم يموت في الظلام الذي تخلت عنه النجوم. ليس كل الكلام الذي يموت كلاما محقا، وإن انحراف هذه الرحمة عن محورها لا يجعلها أقل واقعية.

استيقظ أول الصباح، وقد غدا فحما ثم مشى نحو الطريق. كل شيء كان مشتعلا كما لو أن الشمس المفقودة قد عاودت أخيرا. الثلج يتمايل وهو برتقالي اللون. شق الحريق طريقه عبر سلسلة التلال والجبال التي تحيط بهما سريعاً كأنه هشيم النار. ألسنة اللهب تتماوج وتتوهج وتخترق العتمة في لوحة تشبه الأضواء الشمالية. مشى إلى الطريق وحين صار إليه توقف عليه زمناً طويلاً في جو حافظ على برودته. إن اللون في تلك المدة قد أوقظ في ذهنه ذاكرة كان قد طواها النسيان منذ زمن: املأ كتابك، اتل نشيدك وتذكر.

أصبح البرد أكثر حدة. لم يتحرك شيء في ذاك العالم المرتفع. رائحة حريق الأشجار النفاذة تشبثت فوق الطريق. كان يدفع العربة عبر الثلوج

قاطعا أميالا قليلة كل يوم؛ وليس لديه فكرة تقديرية عن المسافة التي تفصل بينه، حيث هو وبين القمة. حيث إنهما لم يكونا يأكلان ما يسد الرمق بما فيه الكفاية، فقد لازمهما الجوع طوال الوقت.

وقف يستطلع الريف أمامه، دونهما نهر سحيق. ترى إلى أي مدى وصلا؟ رأى في حلمه أنها كانت مريضة وأنه قد اعتنى بها. الحلم مذهب التضحية، لكن تفكيره نحا منحى آخر: هو لم يعتنِ بها فماتت في مكان ما وحيدة وسط الظلام، وما من حلم آخر، وليس ثمة عالم يقظة مختلف وليس ثم حكاية أخرى.

لا يوجد أناس على هذه الطريق يحملون كلمة الله. لقد رحلوا وأخذوا العالم معهم وهجروني. سؤال: كيف تختلف كلمة «أبداً» الآن عما كانت عليه هذه الكلمة فيما مضى؟

تكاد الليالي الآن تكون أقل اسوداداً والقمر أخفاه الظلام. أما خلال ساعات النهار فترى الشمس الطريدة تطوف على الأرض كأنها حزينة تحمل مصباحاً.

أناس مرميون على قارعة الطريق فجراً، بين الموت والحياة والدخان يتصاعد من ثيابهم. مثلهم في ذلك مثل متعصب فاشل ينتحر. وآخرون يهرعون لنجدتهم. خلال عام شبت حرائق على قمم الجبال والتلال وعلت أصوات ترانيم مشوشة ومجنونة وتعالت صرخات الضحايا الهستيرية. هذا كان فجراً، أما في أثناء النهار فقد نصبت جثث القتلى على طول الطريق. ترى ماذا جنت أيديهم. فكر أن العقاب في تاريخ البشرية كان أشد وطأة من الجريمة، وقد منحه هذا التفكير شيئاً من الراحة.

أصبح الهواء أكثر رقة، فقدر أن القمة لم تعد بعيدة، ربما كان الوصول غداً؛ جاء الغد وانقضى. لم يعاود الثلج انهماره، لكن الثلج المتكدس على الطريق بلغت سماكته ستة إنشات مما جعل من دفع العربة عملاً منهكاً مضنيا. فكر أنه ربما كان عليهما التخلي عن العربة، ولكن كم من الأشياء يمكنهما أن يحملاه حملا. توقف ونظر إلى المنحدرات القاحلة الجرداء، لقد طغى الرماد على الثلج حتى لم يعد يرى من اللون إلا أسوده.

عند كل منعطف كان يبدو أن المجاز بات قريبا جدا. إلى أن توقف ذات مساء ونظر حوله فتعرف المكان له. فك إبزيم سترته عند الرقبة، أسدل قلنسوته ووقف منصتا فإذا الريح تعصف بين الأغصان السوداء فيشتد هزيزها. ذاك هو موقف السيارات وهو شاغر. كان الصبي واقفا إلى جانبه. حيث كان هو واقفا مع أبيه منذ زمن بعيد. قال الولد:

ـ ما هذا يا أبي؟

ـ إنه الممر الجبلي. هذا هو.

في الصباح كان أحدهما شديد القرب من الآخر، إن الجو كان باردا جدا. لقد بدأ الثلج يتساقط من جديد عند الظهيرة، فضربا مخيما في وقت مبكر وجلسا تحت الغطاء ينظران إلى الثلج وهو يسقط في النار. عند الصباح كانت قد تراكمت على الأرض طبقة جديدة من الثلج سماكتها عدة إنشات. ثم توقف الهطل فساد صمت رهيب لدرجة أنهما صارا يسمعان دقات قلبيهما. كوّم حطبا فوق الفحم ثم نفخ في النار كي تدب بها الحياة من جديد. خرج إلى العربة، فرز الأطعمة المعلبة التي كانت فيها، عاد وجلس قرب النار ثم أكلا آخر ما تبقى معهما من بسكويت، بالإضافة

إلى محتوى علبة سجق. لقد وجد في أحد جيوب حقيبته نصف عبوة من الكاكاو. حضّر كوبا من الكاكاو للصبي وآخر له وذلك بصب المياه الحارة في الكوبين. وجلس ينفخ في الإطار.

ـ قال الصبي: لقد وعدت ألا تفعل ذلك يا أبي.

ـ ماذا.

ـ أنت تعلم ماذا يا أبي.

ـ صب الماء الحار في الوعاء الذي سخنه فيه، وأخذ كوب الصبي وصب منه شيئاً من الكاكاو، ثم أعاده له.

ـ قال الصبي: علي أن أراقبك طيلة الوقت

ـ أعرف ذلك.

ـ إذا حنثت بالوعود الصغيرة فإنك ستحنث بالكبيرة. أنت من قال لي ذلك.

ـ أعرف، لكنني لن أحنث بالوعود.

على مدى يوم شقا طريقهما بصعوبة نزولاً على المنحدر المقابل لمستجمع المياه والأمطار جهة الجنوب. وقت اشتداد هبوب الرياح لا تستطيع العربة أن تتقدم أبداً فيصبح لزاماً عليه أن يجرها بيده جراً من خلفه، وهو يجرجر نفسه بصعوبة بالغة حتى ليكاد يلامس الأرض. لو كانا في أي مكان آخر غير الجبال لعثرا على شيء يمكن استعماله بديلاً عن المزلجة. فلوحة معدنية قديمة كانت تنفع أو لوح تسقيف كان يفي بالغرض. نفذت المياه عبر اللفائف التي لفاها على أقدامهما فتبللت وبردت وقد عانيا من البلل والبرد طيلة اليوم. اتكأ على العربة؛ كي يلتقط أنفاسه، بينما كان الصبي ينتظر. صدر صوت حاد من مكان ما من الجبل لشيء يتصدع أو

ينقلع، تبعه صوت آخر. قال: إنها شجرة تسقط. هذا كل ما في الأمر ولا ضير من ذلك. كان الصبي ينظر إلى الأشجار الميتة المنتشرة على جانب الطريق. قال الأب: حسناً، كل أشجار العالم سوف تسقط عاجلاً أم آجلاً لكنها لن تتساقط علينا.

ـ أنى لك أن تعلم؟

ـ أعرف وكفى.

ما انفكا يصلان إلى أماكن تعترض فيها الأشجار الطريق. الأمر الذي يفرض عليهما تفريغ العربة وحمل كل الأشياء من فوق جذوع الأشجار وإعادة تحميلها من جديد من الجهة البعيدة. في أثناء تفريغ العربة وجد الصبي ألعاباً كان قد نسي أنها بحوزته؛ احتفظ منها بسيارة صفراء اللون ووضعها على العربة ثم استأنفا المسير.

نصبا خيمتهما فوق قطعة أرض على الطرف الآخر من نهر صغير متجمد. كانت الرياح تهب على الرماد الذي يغطي الجليد. وكان الجليد متشحا باللون الأسود، فبدا النهر كأنه مجاز بازلتي يشق طريقه بين الأشجار متلويا. احتطب حطباً؛ كي يوقد نارا. جمعاه من الجهة الشمالية للمنحدر، حيث كان هناك أقل رطوبة. دفعا أشجارا كاملة وجرجراها إلى الخيمة. أضرما نارا، بسطا قربها الغطاء ونشرا ثيابهما المبللة على قوائم؛ كي تتبخر. ثم جلسا عاريين ملتفين بأغطية وقد جعل الرجل قدمي الصبي على معدته؛ كي يبعث فيهما الدفء.

استيقظ الصبي ليلا وهو يئن فضمه الرجل إليه قائلا له: اهدأ، أنت بخير.

ـ حلمت حلماً مزعجاً.

ـ أعرف.

ـ هل أقص عليك قصة الحلم؟

ـ إن شئت فافعل.

ـ حلمت بذاك البطريق الذي سببت له الخوف والفزع. رأيته يتمايل في مشيته ويصفق بجناحيه، وكنا في ذلك البيت الذي اعتدنا العيش فيه؛ فجاء البطريق وكان قريباً من الزاوية. لم يحاول أحد ترويعه، لكنه كان خائفاً حقاً.

ـ حسناً، ماذا بعد؟

ـ كان أشد فزعاً في الحلم.

ـ أعرف، فالأحلام يمكن أن تكون مخيفة حقاً.

ـ لماذا حلمت هذا الحلم المخيف؟

ـ لا أعلم، ولكن أنت بخير الآن. سوف أضع بعض الحطب في النار. ولتعد أنت إلى النوم.

لم يجب الصبي بشيء. ثم قال: اللفاف لم يكن يدور.

استغرق المسير بين الثلوج وفوق الجليد أربعة أيام أخرى. لكن مع ذلك ظلت تظهر بقع من الثلج تغطي تشققات الأرض. وظل الطريق باردا وأسود اللون، وذلك بفعل ماء الثلج الذائب والجاري فوق سطح الأرض. وصلا إلى تخوم ممر ضيق وعميق، فأطلا منه على نهر يغشاه الظلام، فوقفا منصتين.

جروف عالية وشديدة التحدر من الصخور على الجهة الأخرى من وادٍ ضيق متحدر الجنبات ويجري في أدناه نهر. وأشجار نحيلة متفحمة مصطفة قرب بعضها على الجروف. صوت النهر يخبو ثم يرتفع. الريح الباردة تهب على المكان قادمة من الريف. أمضيا اليوم كله على الطريق إلى النهر.

وضعا العربة في مكان مخصص للوقوف وسارا عبر الغابات. صوت هدير خفيف قادم من جهة النهر. إنها شلالات مياه تتساقط من بين مجموعة من الصخور ترتفع عن الأرض ثمانين قدماً. تتساقط المياه يلفها ضباب خفيف رمادي اللون، فتتجمع في حوض. استطاعا أن يشما رائحة المياه وأن يستشعرا البرد الذي تخلفه حتى قبل أن يصلا إليها.

مقعد مبلل قرب النهر، وقف ونظر إلى الصبي. صاح الصبي مبتهجاً: واو، ولم يستطع أن يتوقف عن النظر.

جلس وغرف غرفة من الأحجار، شمها وتركها تتساقط وهي تصلصل. أحجار ناعمة، مستديرة، صقيلة ولامعة كأنها رخام معرق ومقلم. وثمة أحجار من نوع الكوارتز الجميلة اللامعة. مشى الصبي ثم جلس وغسل المياه الدكناء.

كانت شلالات المياه تتساقط في مركز الحوض تقريباً محدثة دوائر رمادية اللون على سطحها فقاعات. وقفا جنباً إلى جنب ينادي أحدهما الآخر بصوت عالٍ وسط جلبة المياه.

ـ هل المياه باردة؟

ـ بل قل متجمدة.

ـ هل تريد أن تنزل إلى المياه؟

ـ لست أدري.

ـ بل ستنزل بالتأكيد.

ـ حسناً.

ـ هيا.

فك سحاب سترته وتركها تسقط على الحصى. وقف الصبي ثم تعريا واندفعا نحو الماء. الصبي نحيل جدا وشاحب كالأشباح وهو يرتجف. غاص في الماء مبتدئا بوضع رأسه أولاً، رفع رأسه كي يتنفس وهو يلهث. ثم استدار ووقف، وهو يضرب بكلتا يديه.

صاح الصبي: هل هي فوقي؟

ـ لا، تعال.

استدار وسبح متجهاً نحو مركز تساقط المياه، جاعلاً الماء يتساقط عليه. كان الصبي واقفا وسط الحوض والمياه تغمره حتى خصره، وقد لف يديه حول كتفيه وأخذ يعلو ويهبط في الماء. عاد الرجل، أمسك الصبي، ضمه وجعله يطفو فوق الماء. وكان الصبي يلهث ويضرب الماء بكلتا يديه. قال الرجل: نعم، هذا جيد. إنك تحسن التصرف.

لبسا ثيابهما وهما يرتجفان برداً، ثم سلكا طريقاً وعرة باتجاه النهر العالي. مشيا بمحاذاة الصخور إلى حيث استطاعا أن يريا عن بعد نهاية النهر. احتضن الرجل الصبي، إذ كان عليه أن يغامر بالوصول إلى آخر سلسلة الصخور. من هناك شاهدا كيف أن النهر يندفع إلى نهاية الصخور

ثم يسـقط عند الحافة متجهاً إلى الحوض في الأسـفل. النهر كله. تشبث الصبي بذراع الرجل.

ـ قال: إنه بعيد حقاً.

ـ إنه بعيد جداً.

ـ هل تموت إذا سقطت؟

ـ سوف تصاب بجروح. إنها مسافة بعيدة.

ـ إنها مخيفة حقاً.

سـارا عبر الغابة. بدأ الضوء يخفت فتتبعا مسطحات الأرض المحاذية للنهر العالي، وذلك من خلال الأشـجار الضـخمة الميتـة. الغابة الجنوبية الغنية التي كانت تحتضـن ثمار البودو فلون وأعشاب الببسوة والجنسينغ. الأغصـان الميتـة لنبتـة الرودودنـدرون الورديـة باتـت متشـابكة وملفتة ومتفحمة. لقد توقف. يوجد شـيء تحت المهاد والرمـاد، أزاح عنه الرماد كي يتبينه، فإذا هو مجموعة نباتات تنمو وتعيش معا. كانت منكمشة، جافة ومتجعدة. أخذ واحدة، رفعها، شمها عض قطعة من طرفها فمضغها.

ـ ما هذا يا أبي؟

ـ إنه فطر يمكن أكله.

ـ ما الفطر؟

ـ إنه نوع من المشروم.

ـ هل تستطيع أن تأكله؟

ـ نعم، خذ قطعة.

ـ هل هو طيب المذاق؟

ـ خذ قطعة.

شم الصبي المشروم وعض قطعة منه وأخذ يمضغها. نظر إلى أبيه وقال: إنه طيب جداً.

اقتلعا الفطور من الأرض؛ أشياء صغيرة غريبة الشكل وضعها في سترة الصبي. عادا بسرعة نحو الطريق وسارا على الطريق نزولاً إلى حيث كانا قد وضعا العربة. نصبا خيمتهما إلى جانب حوض النهر قريباً من مكان تساقط مياه الشلال. غسلا المشروم من التراب والرماد ونقعاه في وعاء فيه ماء. في تلك الأثناء أوقد النار وكان قد حل الظلام. قطع قدراً من المشروم إلى شرائح، مستخدماً جذع شجرة للتقطيع عليها. وضع المشروم في مقلاة وجعل عليه شيئاً من الشحم أحضره من علبة فاصوليا. ثم وضع المقلاة على الفحم؛ بغية طهي الطعام على نار هادئة. راقبه الصبي وقال: إنه مكان جيد يا أبي.

أكلا حبات المشروم القليلة ممزوجة بشيء من الفاصوليا، شربا شاياً وكانت حلواهما إجاصاً معباً. أضرم النار عند تجويف بالصخر وجعل الغطاء خلفهما؛ كي يعكس الدفء عليهما. جلسا في ملاذهما وشرع الرجل يقص على الصبي القصص. حكايات قديمة عن الشجاعة والعدالة وفق ما كانت مسجلة في ذاكرته؛ إلى أن غلب الصبي النعاس فنام ملتفاً بالأغطية. مد النار بالحطب واستلقى وهو ينعم بالدفء والشبع منصتاً إلى صوت تساقط المياه الخفيض الساعي إليه من الخلف وسط ظلام غابة خلعت ملابسها الرثة.

خرج في الصباح وسلك دربا متجهاً جهة مجرى النهر. لقد كان الصبي على حق، إنه مكان رائع. أراد أن يتحرى بحثاً عن أثر يدل على زائرين آخرين، لكنه لم يعثر على شيء. وقف يشاهد النهر كيف ينعطف ثم يتوانى لدى وصوله إلى البحيرة فيتابع جريانه متلولباً ومحدثاً دوامات في الماء. ألقى حجراً أبيض في المياه بيد أن الحجر اختفى فجأة كأنه ابتلع ابتلاعاً. كان قد وقف مرة عند نهر مماثل فيرى لمعان سمك السلمون المرقط بلون الشاي، ولا يمكن أن يرى السمك إلا عندما يتقلب على جانبيه ليأكل. أما الشمس المشرقة من الخلف فينعكس ضياؤها وسط الظلام وكأنها وميض السكاكين في كهف مظلم.

قال: لا نستطيع أن نبقى هنا، فالبرد يزداد حدة كل يوم وشلال المياه جذاب بالنسبة للآخرين كما هو بالنسبة لنا. ليس لنا أن نعلم من هم أولئك الآخرون، إننا لا نستطيع أن نسمعهم حينما يأتون. المكان هنا ليس آمناً.

ـ نستطيع البقاء يوماً آخر.

ـ المكان ليس آمناً.

ـ حسناً، ربما نتمكن من إيجاد مكان آخر قرب النهر.

ـ علينا أن نستمر بالتحرك؛ يجب أن نتابع المسير جهة الجنوب.

ـ أو ليست وجهة النهر جنوبية؟

ـ لا، إنها ليست كذلك.

ـ هل أستطيع أن أراها على الخريطة؟

ـ نعم، دعني أحضرها.

ــ خريطة طرق شــركة النفط الممزقــة والمبعثرة كانت فيما مضــى جيدة ينتظمها ســلك. أما الآن فقد أضحت أوراقاً متفرقة مرقمة في زواياها بغية جمعها. فتش بين الأوراق وأخرج منها تلك التي تحدد الموقع.

ســوف نجتاز جســراً هنا، يبدو أن المسافة تبلغ ثمانية أميال أو نحوها. هذا هو النهر؛ إنه يتجه شرقاً. سوف نسلك هذا الطريق من هنا على طول المنحدرات الشــرقية للجبال. تلك هي طرقاتنا التي خطت بلون أسود على الخريطة؛ إنها طرق الولايات.

ـ لماذا هي طرق الولايات؟

ـ لأن هذه الطرق تتبع الولايات؛ ما جرت العادة على تسميتها ولايات.

ـ لكن لم يبقَ أي من الولايات الآن؟

ـ لا، لم يبق.

ـ ماذا حل بها؟

ـ لا أدري على وجه الدقة. هذا سؤال جيد.

ـ لكن الطرق ما تزال حيث كانت.

ـ نعم، ولكن مدة من الزمن.

ـ كم تدوم المدة؟

ــ لا علــم لي، ربمــا مدة. لا يوجد شــيء يقتلعهــم؛ لذلك ربمــا تبقى هذه الطرقات بحالة جيدة مدة.

ـ لكن لن تسير عليها سيارات أو عربات نقل.

ـ لا.

ـ حسناً.

ـ هل أنت على استعداد.

ـ هز الصبي رأسه. حك أنفه بكمه، علق حقيبته الصغيرة على كتفيه. جمع الرجل أجزاء الخريطة الممزقة، طواها، ثم نهض فتبعه الصبي. غادرا المكان، سارا عبر الأشجار الرمادية الشاحبة، متجهين إلى الطريق.

عندما دخل الجسر مدى الرؤية شاهدا فوقه عربة مقطورة إلى تراكتور ومتوقفة على عرض الجسر وهي محشورة وعالقة ومحجوزة بالسياج. انهمر المطر من جديد فتوقفا حيث هما بينما بدأت الأمطار تربت برفق على الغطاء. كان ينظر إلى ما حوله من تحت الغطاء الأزرق المعتم.

ـ قال الصبي: هل نستطيع أن نبقى حوله؟

ـ لا أعتقد ذلك، ربما من الممكن أن نكون تحته. يحتمل أن نكون مضطرين لتفريغ العربة.

الجسر ممتد فوق منحدرات النهر، حيث تتدفق المياه غزيرة وتنحدر بسرعة. عندما وصلا إلى منعطف الطريق باتت أصوات خرير المياه مسموعة. هبت عليهما الريح عبر الممر الجبلي الضيق، فأخذا يدرأانها عنهما بشد الغطاء فوقهما من زواياه، وفي الوقت عينه كانا يدفعان العربة أمامهما فوق الجسر. صارت رؤية النهر ممكنة عبر الحديد المشغول. يوجد تحت المنحدرات جسر لسكك حديدية قائم على دعامات من الحجر الكلسي. أحجار الدعامات كانت ملطخة بالكامل وعلى امتداد الجسر، ابتداء من مساقط المياه العالية. أما مجرى النهر عند المنعطف فقد كان مسدوداً بكم هائل من الأغصان الميتة وجذوع الأشجار المتفحمة التي حملتها وركمتها الرياح.

يبدو أن الشاحنة موجودة على الجسر منذ سنين. عجلاتها مفرغة من الهواء ومتآكلة. مقدمة التراكتور مثبتة بإحكام على سياج الجسر ـ العربة المقطورة مفصولة من المقدمة ومثبتة على الجزء المغطى من القاطرة. أما مؤخرة العربة المقطورة فهي متحررة من محورها ومتجهة نحو الجانب الآخر من الجسر وقد برز جزء منها بطول عدة أقدام خارج الجسر وأصبح معلقاً في الهواء فوق مجرى النهر. دفع العربة كي يمررها من تحت المقطورة فعلق مقبضها أسفل السيارة. كان عليهما أن يزلقاها من الجوانب. تركها تحت المطر ووضع الغطاء عليها ومشيا مشية البطة تحت السيارة. ترك الصبي جاثياً تحتها في مكان جاف، بينما خرج هو واعتلى خزان البنزين. مسح زجاج الكبينة مزيلا عنه الماء وأنعم النظر من خلاله. نزل من مكانه، عاود الصعود، فتح الباب، دخل إلى الكبينة وأغلق الباب خلفه. جلس ينظر حوله. وجار كلب عتيق خلف المقاعد، أوراق مبعثرة على الأرض، علبة القفازات كانت مفتوحة وفارغة.

أخذ يبحث بين المقاعد وجد وسادة رطبة جداً فوق سرير مبيت وثلاجة صغيرة، بابها مفتوح إضافة إلى طاولة قابلة للطي، ومجلات قديمة على الأرض. فتح الأدراج الخشبية فوجدها فارغة. يوجد أدراج تحت السرير فتحها وفتش فيها فلم يعثر إلا على نفايات. عاد إلى مقدمة الكبينة من جديد وجلس على مقعد السائق وأخذ ينظر إلى النهر عبر الزجاج ومن خلال خيوط رفيعة من مياه الأمطار تسيل عليه. المطر يربت برفق على السطح المعدني لكبينة السيارة. والظلام يهبط بطيئا فيغطي ويحجب كل الأشياء. باتا ليلتهما تلك بالشاحنة، وفي الصباح توقف هطل الأمطار ففرغا العربة ونقلا ما كان فيها من تحت الشاحنة إلى الجهة الأخرى ثم وضعا

الأشياء على العربة. على عمق نحو مئة قدم تحت الجسر يوجد بقايا عجلات سيارات متفحمة. نظر إلى الشاحنة وقال: ماذا يمكن أن يكون في داخلها؟

ـ لا أعرف.

ـ لم نكن أول القادمين إلى هذا المكان، لذلك من المحتمل أنها لا تحتوي شيئاً.

ـ ألا توجد طريقة للدخول إليها؟

وضع أذنه على جانب الشاحنة المغلقة ثم ضرب اللوح المعدني بباطن كفه ضربة قوية أحدثت صوتاً يوحي بأنها فارغة. قال الصبي: بإمكانك أن تلج إليها من الأعلى، لابد أن أحدهم مر بها وفتح فيها فجوة.

ـ ماذا يمكن أن يكونوا قد استعملوا ليفتحوا الفجوة؟

ـ لا بد أنهم وجدوا شيئاً لهذا الغرض.

خلع عنه سترته، وضعها فوق العربة، ثم ارتقى رفرف الشاحنة ومنه صعد إلى الأعلى، تسلق بجهد ومشقة حتى بلغ ظهر الكبينة. وقف، استدار ثم نظر إلى النهر في القاع، سرى البرد من السقف إلى قدميه. نظر إلى الصبي فبدا قلقا. استدار وأمسك طرف الشاحنة المغلقة بإحكام بكلتا يديه وسحب نفسه ببطء إلى أعلى. بذل قصارى جهده لكنه لم يستطع أن يرفع كامل جسده. رفع إحدى رجليه فوق الحافة وعلقها، أخذ قسطا من الراحة ثم سحب نفسه عاليا واستدار فجلس منتصبا.

كان ضوء السماء كافيا كي يرى بعضا من سقف الشاحنة، مشى جاثيا على ركبتيه. وجد الغطاء منزوعا، انبعثت من الداخل رائحة خشب رطب ونتن. إنه كان قد خبر هذه الرائحة العفنة قبلا. لديه مجلة في جيبه،

أخرجها ومزق منها بعض الأوراق وجعلها على شكل لفافة، أخرج قداحته، أشعل اللفافة ورماها في العتمة. اندفع من الداخل دخان يحدث شعوراً بالإغماء، بدد الدخان ونظر من خلال الفتحة إلى داخل الشاحنة. بدت له بفعل النار الصغيرة المشتعلة داخلها وكأنها أكثر عمقا مما هي عليه. حجب عن وجهه وهج النار، عندها تمكن من رؤية قاع الشاحنة فإذا هو أمام جثث بشرية متمددة باسطة أيديها وأرجلها بأوضاع مختلفة. جثث جافة منكمشة عليها ثياب متعفنة. الأوراق التي اشتعلت خبت نارها وقبل أن تموت تشكلت زهرة بل قل وردة تذوب، ثم أطبق الظلام من جديد.

خيما تلك الليلة في الغابة فوق جبل مطل على سهول شاسعة ممتدة على السفوح المتجهة جنوباً. أضرم ناراً في ظل صخرة؛ كي يعد طعاماً عليها، ثم أكلا ما تبقى عندهما من حبات المشروم والسبانخ المعلبة. هبت عاصفة عليهما ليلاً من أعالي الجبال المحيطة بهما، محدثة دوياً كأنه صوت المدافع وأصواتاً لأشياء تتصدع. كان البرق بين حين وآخر يطلق أنواراً تبهر الأبصار فيحيط اللثام عن عالم رمادي مقفر.

تشبث الصبي به، كان كل شيء قد انقضى وبقي صوت خفيف لبرد يتساقط، ثم انهمر مطر بارد ببطء.

عندما استيقظ من جديد كان الظلام ما يزال مخيماً، لكن المطر توقف. هناك في الوادي بزغ ضوء مغشى بالدخان. نهض وسار في المرتفعات. الدخان المتصاعد من النيران انتشر مسافة عدة أميال. جلس ينظر، رائحة الدخان تعشش في المكان. بلل إصبعه وعرضه للهواء. عندما نهض وقفل عائداً كان الغطاء مضاء من الداخل وكان الصبي قد استيقظ.

فبدا ظله الأزرق الضئيل في ظل الضوء الباهت وكأنه ذروة مغامرة جديدة في آخر أصقاع الأرض. أمرٌ سمِّه ما تشاء لكنه غير قابل للتفسير والتعليل. وهكذا كان.

استأنفا الترحال في اليوم اللاحق وسط أجواء سديمية ضبابية يغشاها دخان منبعث من حريق الغابات. يصعد الدخان من الأرض كأنه الضباب. أما الأشجار النحيلة المتفحمة المنتشرة على سفوح الجبال ومنحدراتها فكأنها أعمدة علقت عليها قناديل وثنية. في وقت متأخر من النهار وصلا إلى مكان على الطريق كانت قد أتت عليه النار وعبرت. عند مرورهما كانت الحصباء ما تزال دافئة فسرت الحرارة إلى أقدامهما ثم ما لبثت أن اعتدلت. الصمغ الأسود الحار كان يتعشق بأحذيتهما، يتمطط خيوطا رفيعة من حذاءيهما كلما وضعاهما على الأرض ورفعاهما عنها. توقفا وقال: علينا أن ننتظر.

عادا من حيث أتيا وخيما فوق الطريق. عندما استأنفا سيرهما صباحا كانت حصباء الطريق قد بردت. شاهدا على جانب الطريق آثار أقدام مطبوعة على القار قد ظهرت فجأة. جلس وتفحصها. لا بد أن شخصا ما قد خرج من الغابة ليلا وتابع سيره على الطريق.

قال الصبي: ترى من هو؟

ــ لا أعرف من يكون، أي كان. فاجأه على حين غرة وهو يترنح متثاقلا فيجر إحدى رجليه ببطء ثم يقف من وقت لآخر فينحني وينهض ليمشي من جديد.

ـ ما الذي علينا فعله يا أبي؟

ـ لا بأس علينا. دعنا نتبعه ونشاهد فقط.

قال الصبي: ألق نظرة.

ـ نعم، ألق نظرة.

تبعاه مسافة طويلة، لكنهما خسرا جراء ذلك يوما. أخيرا جلس على الطريق ولم ينهض بعدها. تعلق الصبي بمعطف أبيه. لم ينبس أحدهما ببنت شفة. بدا الشخص محروقاً كما الريف من حوله، ملابسه محروقة سوداء اللون. إحدى عينيه محروقة ومغمضة. شعره المستعار يعج بالقمل، والرماد يغطي جمجمته المتفحمة. طأطأ رأسه بينما كانا يمران به وكأنه قد ارتكب خطأً. حذاؤه مربوط بسلك ومغطى بقطران الطريق. جلس حيث هو صامتا ومحنيا في أسمال بالية. ظل الصبي ملتفتا إلى الوراء ينظر إليه، وهمس قائلا:

ـ ما خطب هذا الرجل يا أبي؟

ـ أصابته الصاعقة.

ـ أفلا نستطيع مد يد العون له يا أبي؟

ـ كلا، لا نستطيع مساعدته.

ظل الصبي يسحب أباه من معطفه إلى الوراء.

ـ كف عن ذلك.

ـ أو لا نستطيع مساعدته يا أبي؟

ـ كلا لا نستطيع مساعدته. ليس بوسعنا أن نفعل شيئاً.

واظبا على المسير، بينما الطفل يبكي وينظر إلى الوراء. عندما وصلا إلى أسفل الهضبة توقف الرجل ونظر إلى الطريق خلفه. كان الرجل قد خر على الأرض ولم يعد ممكناً للمرء أن يتبينه من تلك المسافة. قال الرجل: أنا آسف لا نستطيع أن نصلح من أمره شيئاً. أنت تدرك ما أقول، أليس كذلك؟

وقف الصبي مطرقاً ثم واصلا سيرهما ولم يعد الصبي ينظر إلى الوراء. تلك الليلة أنار ضوء كبريتي باهت من مكان الحرائق. المياه الراكدة المتجمعة من الأمطار والثلوج الذائبة على جانب الطريق اصطبغت بلون أسود. الجبال محجوبة عن الرؤية. اجتازا جسراً إسمنتيا فوق نهر اختلطت مياهه بالطين والرماد، فتباطأ جريانه. قطع من الأشجار احترقت حتى تفحمت. أخيرا توقفا ثم استدارا وخيما تحت الجسر.

بقي محتفظاً بمحفظته في جيبه إلى أن أبلت قماش البنطال فأحدثت ثقباً فيه. ذات يوم أخرجها من جيبه بعد أن جلس بجانب الطريق وأخذ يدقق بمحتوياتها: بعض النقود، بطاقات ائتمان، إجازة قيادة سيارة، صورة لزوجته. بسط كل محتويات المحفظة على الطريق وانتصب واقفا ليواصلا المسير.

جلس صباحاً ينظر إلى أعلى، رأى تحت الجسر أعشاشاً بنتها السنونوات بالطين وتوزعت على الزوايا. نظر إلى الصبي. أنحى ببصره عنه وجلس يحدق بالنهر. لم يكن بوسعنا فعل شيء. لم يجب.

ـ إنه ماضٍ إلى حتفه. لا نستطيع أن نشركه بما معنا. إن نفعل نمت معه.

ـ أعرف.

ـ إذاً متى ستعود لمحادثتي من جديد؟

ـ ها أنذا أتكلم الآن.

ـ أمتأكد أنت؟

ـ نعم.

ـ حسناً.

ـ حسناً.

وقفا على ضفة النهر الأخرى يدعوانه. المخلوقات المترنحة تهيم على وجهها في الأراضي المقفرة الخربة المدمرة، مترهلة بأثوابها الرثة. تشق طريقها بصعوبة فوق الأرض الجافة لبحر جامد، حيث تضطجع مخبلة كسيرة كأنها صحن سقط على الأرض. مجازات عبر نار متوحشة فوق رمال متخثرة. أشكال ضاعت معالمها في المدى. استيقظ واضطجع في الظلام.

توقف التوقيت عند الساعة 1.17. انقطع الضوء زمناً طويلاً قبل أن تتوالى سلسلة من الهزات الخفيفة. استيقظ ومشى نحو النافذة. قالت: ما هذا؟ لم يجب. دخل إلى الحمام وألقى المفتاح الكهربائي. لكن التيار كان قد انقطع فعلاً. تورّدت وردة باهتة في زجاج النافذة. جثا على إحدى ركبتيه، حرك الرافعة و فتح الحنفيتين حتى نهايتيهما فوق حوض الاستحمام. كانت واقفة عند المدخل بثياب النوم ممسكة بعضادة الباب بقوة بيد وتهز بطنها باليد الأخرى. قالت:

ـ ما هذا؟ ما الذي يحدث؟

ـ لست أدري.

ـ لماذا تستحم؟

ـ إنني لا أفعل ذلك.

حدث مرة منذ سنوات بعيدة أن استيقظ وهو في غابة قاحلة، فجلس ينصت إلى أسراب من الطيور القواطع المهاجرة وهي تحلق فوقه في لجة الظلام الرهيب. طيور تقطع أميالا في السماء تدور حول الأرض في رحلة فارغة لا معنى لها كأنها حشرات تندفع بأعداد كبيرة على حافة زبدية. تمنى لها رحلة موفقة إلى أن رحلت، ولم يعد يسمع أصواتها بعد ذلك.

لديه ورق لعب وجده في درج مكتب أحد البيوت. الورق مهترئ وينقصه ورقة الزوج الإسباني. مع ذلك كانا يلعبان الورق من حين لآخر على ضوء النار وهما ملتحفان بالبطانيات. حاول أن يتذكر قواعد ألعاب الطفولة، كلعبة الخادمة العجوز أو لعبة الهويست وهما ضربان من ضروب ألعاب الورق. بيد أنه كان على يقين أنه تذكر الألعاب على نحو مغلوط فيه، فاخترع ألعاباً جديدة وابتدع لها أسماء مثل عصا الإشارة أو كات بارف. كان الصبي يسأله أحيانا أسئلة عن العالم الذي لا يعرف عنه شيئا حتى في ذاكرته. كان يجهد فكره في كيفية الإجابة عن أسئلته، فليس ثمة ماضٍ. ما الذي ترغب فيه؟ إلا أنه توقف عن اختراع الأجوبة، لأن أيا منها لم يكن صحيحا ولأن الحديث عنها جعله يشعر بالاستياء. غير أن للصبي مخيلته الخاصة به عن الحال والهيئة التي يمكن أن تكون عليها الأشياء في الجنوب وعن الأطفال الآخرين. حاول أن يطلق العنان لخياله؛ كي يبحر في هذه الأشياء، ولكن قلبه لم يكن معلقا بها. لمن سيكون؟

لا جداول لأعمال يجب تنفيذها. اليوم ينطوي على عناية إلهية كامنة في ذاته. الساعة. ليس ثمة زمن قادم؛ هذه الساعة هي الزمن القادم. كل

الأمور والأشياء هي من الرحمة والجمال، بحيث يجعل المرء قلبه مرتعا لهما، أما العناية الإلهية العامة فلا تتجلى إلا في الألم، ومولد الأشياء قائم بين الحزن والرماد، همس متوجهاً إلى الصبي النائم: إذاً أنت لي. فكر في الصورة التي تركها على الطريق وأنه كان عليه أن يحاول الاحتفاظ بها في حياتهما بشكل من الأشكال، لكنه لا يعرف كيف يكون ذلك. أيقظته نوبة سعال فذهب بعيداً؛ كي لا يوقظ الصبي. مشى في الظلام ملتحفا ببطانيته ومحاذياً لجدار حجري. جثا على ركبتيه وسط الظلام كما يفعل النادم التائب وأخذ يسعل حتى أحس بطعم الدم في فمه ونطق باسمها بصوت عالٍ. ظن أنه ربما يكون قد ذكره في أثناء نومه. عندما رجع كان الصبي قد أفاق. قال له: أنا آسف.

ـ حسناً.

ـ اخلد إلى النوم.

ـ أتمنى لو كنت مع أمي.

ـ لم يجب.

جلس بجانب الصبي النحيل الضئيل الملتحف بالأغطية والبطانيات، ثم قال بعد برهة: تعني أنك تتمنى لو كنت ميتاً.

ـ نعم.

ـ لا ينبغي لك قول هذا.

ـ لكنني أفعل.

ـ لا تقلها. فبئس القول هي.

ـ لا أستطيع تجنب ذلك.

ـ أعرف، لكن يجب عليك أن تتحاشى قولها.

ـ لكن، كيف؟

ـ لا علم لي.

قال لها عبر ضوء المصباح: إننا أحياء.

قالت: أحياء؟!

قال: نعم.

أسألك باسم الإله أن تخبرني عن أي شيء تتحدث؟

نحن لسنا بأحياء. بل نحن أموات يعيشون في فيلم رعب.

ـ إنني أتوسل إليك.

ـ لا يعنيني، ولا أبالي حتى ببكائك. كل هذا لا يعني لي شيئاً.

ـ أرجوك.

ـ كف عن هذا.

ـ إني أتوسل إليك، سوف أفعل أي شيء تريدينه.

ـ مثل ماذا؟ كان علي أن أفعل ذلك منذ أمد بعيد. عندما كان المسدس يحتوي على ثلاث طلقات بدلا من اثنتين؛ في ذلك الوقت كنت أحمق. لقد كنا قادرين على تجنب كل ذلك. لم أسعَ للوصول إلى ما أنا فيه، بل أكرهت عليه إكراها. أما الآن فلقد أسقط في يدي. فكرت في الامتناع عن إخبارك، ربما كان ذلك أفضل.

ـ لديك طلقتان وماذا بعد؟ أنت أن تؤمن لنا الحماية. تقول: إنك على استعداد للموت في سبيلنا، لكن ما نفع ذلك؟ كنت سآخذه معي لو لم يكن كرمى لك. أنت تعلم أني كنت سأفعل. إنه الصواب عينه.

ـ أنت تهذين.

ـ لا، بل أنا أقول الحقيقة. سوف يمسكون بنا إن عاجلا أو آجلا، وسوف يقتلوننا. سيغتصبونني ويغتصبونه ثم يقتلوننا ويأكلوننا. أما أنت فلم تتصدَّ لكل هذا، لا بل ستجلس منتظرا حدوثه. لكني لا أستطيع، لا أقدر على ذلك. جلست تدخن سيجارة طويلة من الكرمة الجافة كما لو أنها ضرب من سيجار الشيروت النادر. أمسكت السيجارة بأناقة بإحدى يديها ووضعت الأخرى على ركبتيها ورفعتها قليلا. نظرت إليه في ظل ضوء لهب ضعيف وقالت له: لقد اعتدنا أن نتحدث عن الموت، لم نعد نفعل ذلك. لماذا؟

ـ لا أعرف.

ـ ذلك لأنه موجود هنا. لم يبقَ شيء نتحدث عنه.

ـ لن أدعك.

ـ لا يعنيني هذا. إنه عديم المعنى. يمكنك أن تعدَّني امرأة فاسقة قذرة وخائنة إن شئت. لقد اتخذت لنفسي حبيباً جديداً يستطيع أن يمنحني ما عجزت عنه.

ـ الموت ليس حبيباً.

ـ أوه، بل هو حبيب.

ـ أرجوك لا تفعلي.

ـ إني آسفة.

ـ لا أستطيع أن أتدبر الأمر بمفردي.

ـ فلا تفعل إذاً. أنا لا أستطيع مساعدتك. يقال: إن النساء يحلمن بالخطر المحدق بمن هم في رعايتهن، بينما الرجال يحلمون بالخطر النازل بهم أنفسـهم. أما أنا فلا أحلم أبدا. أو تقول: إنك لا تستطيع؟ لا تفعل إذاً، هـذا كل ما في الأمر. أما أنا فقد أرهقني قلبي الفاسـق وأهلكني، وأنا على هذه الحال منذ أمد طويل. أنت تتحدث عن اتخاذ موقف، لكن ليس ثمة موقف ليتخـذ. لقد انفطر قلبي ليلة ولادته فلا تلتمس الحزن الآن لقد جفت ينابيعه. ربما تفلح أنت على هذا الصعيد، إني أشك في ذلك؛ لكن من يدري. ما أستطيع أن أؤكده لك هو أنك لن تستطيع أن تحيا من أجـل ذاتك. لم أذهب بفكري بعيدا إلى هذا الحد، لكن خير للإنسـان الذي ليس لديه من يعيش من أجله أن يصـنع لنفسـه شبحا وينفخ فيه الـروح ثم يلاطفه ويتـودد إليه بعبارات الحب. قدم له كل ما لديك من فتات الوهم والخيال وادرأ عنه الأذى بجسـدك. أما أنا، فأملي الوحيد المعقود على الموت الخالد، وإني لأتوسل إليه من أعماق قلبي.

لم يجب.

ـ لم تجادلني في الأمر فليس لديك ما تقوله.

ـ هل ستقولين له وداعا؟

ـ كلا، لن أفعل.

ـ فقط انتظري حتى الصباح، أرجوك.

ـ علي أن أرحل.

عندها كانت قد وقفت.

ـ أسألك يا امرأة، ماذا سأقول له؟

ـ لا أستطيع مساعدتك.

ـ إلى أين أنت ذاهبة؟ لا تستطيعين أن تدركي ذلك.

ـ ليس علي أن أفعل.

وقف وقال لها: إني أرجوك.

ـ كلا، لن أفعل فأنا لا أستطيع.

رحلت وكان برودها آخر هداياها. سوف تفعلها بواسطة رقاقة من زجاج بركاني أسود. هو نفسه من علمها. إنه أكثر مضاء وحدة من الفولاذ ولا سماكة له مثل الذرة. ولقد كانت على حق فليس ثمة موضوع للجدال. الليالي المئة التي أطالا السهر فيها يتناظران وهما يسوقان الحجج المؤيدة والأخرى المعارضة عن تدمير الذات بكل جدية الفلاسفة المصفدين الموثقين إلى جدار مستشفى المجانين. في الصباح لم ينطق الصبي بكلمة. وبعد أن حزما أمتعتهما وأصبحا جاهزين للمسير التفت الصبي ونظر إلى المكان الذي خيما فيه وقال: لقد رحلت. ألم ترحل؟ وقال: نعم، لقد رحلت.

كثير التروي دائما، لا يكاد يدهشه ورود أكثر الأحداث غرائبية. تطورت الخليقة على نحو تام لتجابه موتها. جلسا على الشرفة بثوبيهما وتناولا عشاء منتصف الليل على ضوء قنديل وهما يشاهدان المدن البعيدة تحترق. بعد ليالٍ قليلة وضعت وليدها فوق سريرهما على ضوء مصباح يعمل على البطارية. قفازان معدان للاستعمال في غسل الصحون. الظهور غير المتوقع لمقدمة الرأس الصغير. رأس صغير يكسوه شعر أسود سبط وملطخ بالدم. العقي الزنخ الخارج من الرحم مع المولود. البرد متجمهر

خلف النافذة مباشرة والحرائق تملأ الأفق. صراخها لم يعنِ له شيئا. رفع الجسد الأحمر المهزول الغض عاليا وعاريا وقص الحبل بمقص مطبخ ثم لف ابنه بمنشفة.

ـ هل عندك أصدقاء؟

ـ نعم، لي أصدقاء.

ـ أكثيرون هم؟

ـ نعم.

ـ هل تتذكرهم؟

ـ نعم، أتذكرهم.

ـ ماذا حصل لهم؟

ـ ماتوا.

ـ جميعهم؟

ـ نعم، كلهم.

ـ هل تفتقدهم؟

ـ نعم. أفعل.

ـ إلى أين نحن ذاهبان؟

ـ نحن متجهان جنوبا.

ـ حسنا.

أمضيا اليوم كله على الطريق الأسود الطويل. توقفا بعد الظهر وأكلا شيئا قليلا من الطعام المحدود الذي بقي معهما. أخذ الصبي سيارته

الشاحنة الدمية من العربة وفتح طرقات بين الرماد بواسطة عصا. سارت السيارة بخط مستقيم إلى الأمام متباطئة ورافقها الصبي بإصدار أصوات من فمه تشبه ضجيج السيارة. كان النهار دافئا بدرجة مرضية، فناما على أوراق النبات متوسدين حقيبتهما.

شيء ما أيقظه، انقلب على جنبه وهجع منصتا. رفع رأسه ببطء والمسدس بيده. نظر إلى الصبي ثم التفت إلى الطريق فإذا أولهم يصبح في مرمى نظره. همس: يا إلهي، هرع إلى الصبي وهزه مبقيا عينيه على الطريق. قدموا يجرون أقدامهم وسط الرماد وهم يديرون رؤوسهم المغطاة بقلنسوات ذات اليمين وذات الشمال، وعلى وجوههم أقنعة. أحدهم على ثيابه علامة الخطر. جميعهم ملطخون وقذرون. يجرجرون أنفسهم مترهلين وفي أيديهم عصي ووصلات أنابيب. ثم سمع صوتا قادما من خلفهم يشبه صوت سيارة شاحنة تعمل على الديزل. همس: بسرعة.. بسرعة. دفع بالمسدس تحت حزامه على عجل. أمسك بيد الصبي، دفع العربة، وضعها بين الأشجار وأخفاها بحيث تتعذر رؤيتها بسهولة. تجمد الصبي خوفا، شده إليه وقال: لا بأس علينا أن نركض. لا تنظر إلى الوراء، هيا. وضع حقيبتيهما فوق كتفه واندفعا بسرعة فوق العشب اليابس والأرض المتصدعة. كان الصبي مرتاعا. همس: اركض.. اركض. نظر إلى الخلف، سمع ضجيج السيارة الشاحنة ورآها. كان الرجال واقفين ينظرون حولهم. سقط الصبي فسحبه وقال: سنكون بخير، هيا.

لاحظ وجود ثغرة بين الأشجار، فظن أنها خندق أو مجاز. مروا فوق الأعشاب عبر طريق قديمة. تبدو أجزاء من الطريق المتصدعة المرصوفة بالحصباء من خلال الغبار الذي ينبعث من الرماد. أخفض الصبي وجثيا

تحت منحدر منصـتين وقد كتما نفسـيهما. تمكنا من سماع صوت محرك الديزل على الطريق. عندما نهض ليلقي نظرة لم يسـتطع أن يرى إلا قمة السـيارة الشـاحنة وهي تتحرك على طول الطريق، والرجال واقفون على متنها وبعضهم يحملون بنادق.

مرت السـيارة ونفثت دخان الديزل الأسـود فأخذ يلف في الغابة. تغير صوت المحرك؛ خفت صوته وارتفع ثم توقف.

هبط بجسده واضعا يده فوق رأسه وقال: يا إلهي. سمعا أصوات حركة وقعقعة، ثم توقفت الأصـوات وسـاد الصـمت. كان المسـدس في يده، ولم يسـتطع أن يتذكـر كيف انتقل المسـدس من مكانه تحت الحـزام إلى يده. اسـتطاعا الاسـتماع إلى الرجال وهـم يتحدثون، ثم من خلال الأصـوات عرفا أنهم ينزعون عنهم قلنسـواتهم. جلس لافًّا ذراعه حول الصبي وقال له: اصـمت.. اصـمت. ما هي إلا برهة حتى سمعا صوت السيارة الشاحنة وقد بدأ محركها بالدوران؛ فقعقعت وصـرَّت صـريرا كأنها سـفينة. ليس لديهم من وسيلة لجعل محركها يدور إلا أن يدفعوها دفعا إلا أنها لم تحظَ بالسـرعة الكافية عند ذاك المنحدر. بعد بضع دقائق حشرجت ورجت ثم توقفت من جديد. رفع رأسه ليلقي نظرة، فإذا بأحدهم قادم بين الأعشاب وقد فك حزام بنطاله ولا يبعد عنهما سـوى عشرين قدما. كلاهما تجمدا في مكانيهما.

لقم المسدس ووجهه إلى الرجل، وقف مخرجا إحدى يديه واضعا إياها إلى جانبه. كان قناعه المطلي المتجعد والقذر ينتفخ وينقبض.

ـ تابع تقدمك إلى الأمام.

نظر إلى الطريق.

لا تنظر إلى الخلف. انظر إلي. إن تصرخ مستنجدا تمت.

تقدم إلى الأمام ممسكا حزامه بإحدى يديه. الثقوب في الحزام تظهر تزايد هزال جسده، والجلد على أحد جانبيه بدا وكأنه مطلي بمادة الورنيش، حيث اعتاد أن يشحذ سكينه عليه. نزل إلى مجاز يتقاطع مع الطريق، نظر إلى المسدس وإلى الصبي، عيون تسمرت على أكواب من الأوساخ المتمكنة ثم غارت عميقا. مثل حيوان في جمجمة ينظر إلى الخارج عبر فتحتين أمام العينين. له لحية حددت في أسفلها على شكل مربع، وعلى رقبته وشم طير يظهر أن من نفذه لا يجيد الوشم. بدا الرجل واهنا، هزيلا يلبس مئزرا قذرا أزرق اللون له كمان تتصل به قلنسوة سوداء على مقدمتها شعار منقوش لمؤسسة لم يعد لها وجود.

ـ إلى أين أنتم ماضون؟

ـ أنا ذاهب لقضاء حاجتي.

ـ إلى أين أنتم ذاهبون بالسيارة الشاحنة؟

ـ لا أعرف.

ـ ماذا تعني بقولك: لا أعرف؟ انزع عنك القناع.

نزع القناع ووقف وهو ممسك به ثم قال:

ـ قصدت أن أقول: إنني لا أعرف.

ـ لا تعلم إلى أين أنتم ذاهبون؟

ـ لا.

ـ علام يعمل محرك السيارة؟

ـ على وقود الديزل.

ـ كم لديكم منه؟

ـ يوجد على متن السيارة ثلاثة براميل؛ كل منها يتسع لخمسة وخمسين غالونا.

ـ هل معكم ذخيرة لتلك المسدسات؟

التفت إلى الوراء ونظر إلى الطريق.

ـ أمرتك بعدم الالتفات إلى الوراء؛ بغية النظر إلى الطريق.

ـ نعم، عندنا ذخيرة.

ـ من أين حصلتم عليها؟

ـ وجدناها.

ـ هذه كذبة. ماذا تأكلون؟

ـ ما نستطيع إيجاده.

ـ ما تستطيعون إيجاده؟!

قال: أجل. نظر إلى الصبي وتابع قائلاً: إنك لا تريد إطلاق النار.

ـ هذا هو ظنك.

ـ ليس لديك سوى طلقتين، ربما واحدة فقط. ولسوف يسمعون صوت الطلقة.

ـ نعم، هم سيسمعون لكن ليس أنت.

ـ وكيف حكمت بهذا؟

ـ ذلك أن الرصاصة تنطلق بسرعة تفوق سرعة الصوت، وعليه فإنها ستستقر في رأسك قبل أن تسمع صوتها، أنت بحاجة إلى الفص الدماغي الأمامي ولأشياء أخرى كالمركز المسؤول عن السمع والبصر، إضافة إلى التلفيقة الصدغية. ولن يكون ممكنا لك أن تتمتع بهذه الأشياء، بل تكون كلها قد ذابت.

ـ هل أنت طبيب؟

ـ أنا لست أي شيء.

ـ بيننا رجل جريح، وهو جدير بأن تعطيه شيئا من وقتك.

ـ هل أبدو لك معتوها؟

ـ لا أعرف كيف تبدو.

ـ لماذا تنظر إليه؟

ـ أستطيع أن أنظر أينما أشاء.

ـ لا. إنك لا تستطيع. إن تنظر إليه ثانية أطلق النار عليك.

كان الصبي جالسا، واضعا يديه فوق رأسه وينظر إلى ما حوله من خلال ساعديه.

ـ إني أراهن على أن ذاك الصبي جائع. لماذا لا تأتيان إلى الشاحنة وتحصلان على شيء تأكلانه. ليس ثمة ما يتطلب أن تكون شديد العناد. ليس لديكما ما تأكلانه، فلنذهب.

ـ نذهب إلى أين؟

ـ فلنذهب.

ـ لن أذهب إلى أي مكان.

ـ ألن تفعل؟

ـ كلا. لن أفعل.

ـ تظن أني لن أقتلك. أنت مخطئ. بل أفضل أن أقتادك على هذا الطريق مسافة ميل أو نحوه، ثم أطلقك. هذا كل ما نحتاجه، بعدها لن تجدنا ولن تتبين حتى أي مسار سلكنا.

ـ هل تعرف بماذا أفكر؟

ـ بماذا تفكر؟

ـ أفكر أنك مخلفات دجاج.

أفلت الحزام فسقط على الأرض، تدلت منه جعبة العدة وحافظة ماء ومحفظة جيب عسكرية قديمة وغمد سكين مصنوع من الجلد.

عندما رفع بصره كان الرجل يمسك سكينا بيده. خطا خطوتين فقط، فأصبح يتوسط المكان بين الصبي وأبيه وعلى مسافة متساوية منهما تقريبا.

ما تظن أنك فاعل بهذا؟

لم يجب، كان رجلا طويلا لكنه سريع الحركة. نزل إلى الأرض بحركة خاطفة، أمسك بالصبي، دار حول نفسه ونهض. شده إلى صدره ووضع السكين على حنجرته. كان الأب قد نزل إلى الأرض وأخذ يتحرك تبعا لتحركات الرجل. وجه المسدس وأطلق النار من وضعيتين مختلفتين وهو جاثٍ على ركبتيه؛ كي يحقق التوازن المطلوب. أطلق النار من مسافة ستة أقدام. سقط الرجل إلى الوراء على الفور، بينما بدأ الدم يتدفق من

الفتحة التي خلفتها الرصاصة في جبهته. كان الصبي مضطجعا بردائه وقد تخلت التعابير عن وجهه تماما. أقحم المسدس تحت حزامه، رفع الحقيبة فوق كتفه، التقط الصبي، أداره، رفعه فوق رأسه ثم وضعه على كتفيه. توجه نحو الطريق القديم وهو يعدو بسرعة مضنية ويثبت الصبي من ركبتيه. أما الصبي فقد كان صامتا كأنه حجر وهو يضغط على جبهته المغطاة بدم متخثر.

وصلا إلى جسر حديدي قديم وسط الغابات. الطريق الذي تلاشى كان يعبر كل الأماكن باستثناء جدول متلاشٍ. كان قد بدأ بالسعال مع أنه لا يكاد يجد نفساً يساعده على ذلك. ابتعد عن الطريق وجثا في الغابة. التفت ووقف لاهثاً وهو يحاول أن ينصت، لكنه لم يسمع شيئاً.

قطع نصف ميل إضافيا أو مسافة قريبة من ذلك وهو يترنح، أخيرا جثا على ركبتيه ووضع الصبي على الأرض فوق الرماد وأوراق النبات. مسح الدم عن وجهه، ضمه إليه وقال: لا بأس سنكون بخير. عانق الصبي وجعله إلى جانبه. بلغت السعلة حنجرته، علقت بها ولم تغادرها. كان الصبي النحيل الضعيف يضع عليه معطفا وهو يرتعد مثل كلب. توقفت آثار الأقدام المطبوعة على أوراق النبات. ثم تابعا المسير. لا هما تكلما ولا نادى أحدهما الآخر. بلغ النحس ذروته مع أفول النهار واستحكام العتمة، إذ أخذ الصبي يرتجف بشدة وترتعد أوصاله. اشتدت الظلمة وما بزغ القمر وليس ثمة مأوى يأويان إليه. وفي الحقيبة بطانية واحدة، أخرجها وغطى الصبي بها ثم فك سحاب سترته وضم الصبي إلى صدره. مكثا حيث هما زمناً طويلاً يفترشان الأرض لكنهما تجمدا من شدة البرد، وأخيراً استوى قاعدا وقال: علينا أن نتحرك فنحن لا نستطيع أن نكتفي

بالجلوس هنا. نظر حوله فلم يرَ شيئا. تلفظ وسط الظلمة بكلمات لا غوراً سبَرَتْ ولا بعداً بلغت.

أمسك الصبي من يده بإحدى يديه وهما يسيران في الغابة على غير هدى، بينما مد الأخرى أمامه. لو أنه أغمض عينيه ما ساءت الرؤية عما هي عليه وعيناه مفتوحتان. كان الصبي ملتفا بالبطانية وطلب منه أبوه ألا يسقطها على الأرض؛ لأنه إن فعل فلن يعثرا عليها مرة أخرى. ود الصبي لو يحمله أبوه، لكن الرجل طلب منه أن يواظب على التحرك. كانا يمشيان في الغابة مشية المضطرب، يسقطان على الأرض ثم يتابعان المسير. وكان الليل طويلا طويلا. قبل بزوغ الفجر سقط الصبي أرضا ولم ينهض من جديد. لفه بسترته ثم غطاه بالبطانية، جلس وعانقه وما انفك يهزهزه. بقي بالمسدس طلقة واحدة. لن يدركك الموت... لن يفعل.

في غمرة الضوء الضنين الذي هيمن ليوم كامل ألقى الصبي فوق أوراق النبات وجلس يتفحص الغابة. عندما ازداد الضوء قليلا نهض ومشى بعد أن حدد موقع مخيمهم الذي لا خيمة فيه وأخذ يبحث عن إشارة ما. بيد أنه لم يعثر إلا على آثار أقدامهما الضعيفة فوق الرماد. عاد، أجلس الصبي وقال له: علينا أن نذهب. جلس الصبي متهالكا، وجهه شاحب ممتقع وملطخ بالأقذار التي جفت على شعره. قال له: تحدث إلي، لكنه لم يفعل.

تحركا شرقا عبر الأشجار التي ماتت منتصبة. مرا ببيت قديم وعبرا طريقا قذرة. وشاهدا قطعة أرض جرداء، لا شجر فيها. ربما كانت يوما حديقة غناء. كانا يتوقفان من وقت لآخر منصتين. الشمس المحجوبة عن

الرؤية لم تلقِ ظلها. وصلا إلى الطريق على نحو غير متوقع. أوقف الصبي بإحدى يديه. جثما في خندق على جانب الطريق كالمنبوذين منصتين. الرياح ساكنة والصمت قاتل. بعد برهة نهض، خرج من الخندق ومشى على الطريق. نظر إلى الصبي خلفه وقال له: اتبعني. خرج الصبي. مسح الرجل آثار الأقدام التي خلفاها على الرماد إلى أن زالت. وقف الصبي ينظر إلى الطريق وهو ملتحف بالبطانية.

ما من سبيل لمعرفة ما إذا تمكنوا من تشغيل محرك الشاحنة من جديد. ولا يوجد طريقة يعلم من خلالها المدة التي هم على استعداد للبقاء خلالها كامنين. أنزل الحقيبة على الأرض، جلس، فتحها وقال: نحن بحاجة لأن نأكل، ألست جائعا؟

هز الصبي رأسه.

طبعا لا. أخرج زجاجة الماء، فك غطاءها وقدمها إلى الصبي الذي تناولها ووقف يشرب، أخفض الزجاجة؛ كي يلتقط أنفاسه. جلس على الطريق مصالبا ساقيه وشرب من جديد. أعاد الزجاجة فشرب الرجل وأعاد لها الغطاء. فتش الحقيبة وأخرج منها علبة فاصوليا بيضاء، تداولاها بينهما إلى أن فرغت فرمى بها الرجل في الغابة ثم شرعا بالمسير على الطريق من جديد.

أصحاب الشاحنة كانوا قد نصبوا مخيمهم فوق الطريق عينه. حيث أضرموا نارا هناك وقد خلفوا وراءهم قطعا من الحطب المتفحم ملتصقة بالقطران الذائب وممزوجة بالرماد والعظام. جثا على الأرض واضعا يده على القطران، لقد أحس بدفء خفيف ينبعث منه. وقف ونظر إلى

الطريـق، ثم أخذ الصـبي معه إلى الغابة وقال لـه: أريدك أن تنتظر هنا، وأنا لن أذهب بعيدا، وسوف أكون قادرا على سماعك إذا ما ناديتني.

قال الصبي: خذني معك. وبدا كما لو أنه قد هم بالبكاء.

ـ لا، فأنا أريد منك أن تنتظر هنا.

ـ أرجوك يا أبي.

ـ كف عن هذا. أريد منك أن تفعل ما أطلبه. خذ البندقية.

ـ أنا لا أريد البندقية.

ـ لم أسألك إن كنت تريدها أم لا. خذها.

مشـى في الغابة وصـولا إلى حيـث كانا قد تركا العربـة. كانت ما تزال موجودة في مكانها، لكنها تعرضـت للنهب. الأشـياء القليلـة التي تركوها وجدهـا مبعثرة على أوراق النبات؛ بعض مـن الكتب والألعاب التي تخص الصـبي. بين الأشـياء أيضـا حذاؤه القديم وبعض ملابسـه البالية. عدل وضـعية العربة ووضـع فيها أشـياء الصـبي ثم دفع بها إلى الطريق و قفل عائدا. لم يكن يوجد شـيء هناك؛ دم جاف قـاتم اللون على أوراق النبات وحقيبـة الصـبي غـير موجـودة. في طريق عودتـه وجد العظـام والجلد، وقد جعلوا كومة أهيلت عليها الصـخور. جزء من الأمعاء والأحشاء. نبش العظام بمقدم حذائه؛ يبدو أن العظام قد سـلقت وليس بينها قطع ألبسة. الظلام بدأ يهبط من جديد وأمسى البرد شديدا. عاد قاصدا المكان الذي ترك فيه الصبي. جثا على ركبتيه، طوق الصبي بذراعيه وضمه.

دفعـا العربـة أمامهما بين الغابـات حتى نهاية الطريـق القديم، حيث تركاها. توجها جنوبا على طول الطريق مسرعين قبل هبوط الظلام. كان

الصبي يرتجف فقد أصابه الإعياء. حمله الرجل، وضعه فوق كتفيه وتابعا المسير. ما إن بلغا الجسر حتى كان الضوء قد أفل أو كاد. أنزل الصبي عن كتفيه ثم بدأا يتحسسان طريقهما عند السد الحاجز. تحت الجسر أخرج ولاعته، أشعلها وشرع يكنس الأرض مستنيرا بضوء الولاعة الذي كان يومض ثم يخبو. تم تنظيف المكان من الرماد والحصى. وضع الحقيبة على الأرض. أعاد الولاعة إلى مكانها المعتاد ووضع يديه على كتفي الصبي. لم يكن يراه في غمرة الظلام الدامس، بل كان يتحسسه قال له: أريدك أن تنتظر هنا فأنا ذاهب؛ كي أحتطب إذ علينا أن نوقد نارا.

ـ أنا خائف.

ـ أعرف ذلك، لن أذهب بعيدا بل سأكون على مسافة أستطيع أن أسمعك منها. إن شعرت بالخوف فنادني تجدني عندك فورا.

ـ أنا خائف حقا.

ـ إن أسرعت في الذهاب فسأعجل بالعودة. سوف نضرم نارا ولن تظل بعد ذلك خائفا. لا تضطجع على الأرض، إن فعلت فستستغرق بالنوم ولن تجيبني حين أناديك. عندها لن أكون قادرا على إيجاد مكانك. أتفهم ذلك؟

لم يجب الصبي.

تملكه الغضب من الصبي وكاد يفقد صوابه إلا أنه أدرك تحت جنح الظلام أن الصبي كان يهز رأسه، فقال: حسنا، حسنا.

تسلق أكوام الركام بصعوبة ثم دلف إلى الغابة مادا يديه أمامه. الحطب متوافر في كل مكان؛ أغصان ميتة وأخرى متناثرة فوق الأرض.

كان يخلط الحطب كيفما اتفق ثم يركله بقدميه جاعلا منه كومة. ما إن جمع ما يستطيع حمله حتى نادى الصبي فأجاب النداء. ظل الصبي يكلمه وما انفك يتبع الصوت إلى أن وصل إلى الجسر. جلسا في الظلام بينما كان الرجل يكشط الأخشاب الكبيرة بالسكين ويكسر الأغصان الصغيرة بكلتا يديه جاعلا منها كومة. أخرج الولاعة من جيبه، فتل بإبهامه زند القدح ـ كان يستعمل البنزين في تعبئة ولاعته ـ فأشعلت لهبا ضعيفا أزرق. انحنى وأشعل الأغصان الصغيرة وجلس يراقب النار وهي تتسلق لتشعل الأغصان الكبيرة. كوم مزيدا من الحطب، انحنى ونفخ نفخا لطيفا أسفل النار ورتب الحطب بيديه على الشكل الذي ينبغي أن يكون عليه.

جال جولتين أخريين جمعا للحطب. كان في كل مرة يجمع ما يستطيع حمله من الأغصان كبيرها وصغيرها فيحمل ما جمع إلى الجسر ثم يدفع بالحطب من جانب الجسر إلى الأسفل. كان يرى وهج النار من مسافة بعيدة، لكنه لا يعتقد أن رؤيتها ممكنة من الطريق الآخر. استطاع أن يبني تحت الجسر بركة معتمة من المياه الراكدة بين الصخور وجعل حوافها من الجليد الذي صفه طبقات فوق بعضها. وقف فوق الجسر ودفع بآخر كومة من الحطب. تلون نفسه بلون أبيض وذلك عبر الوهج المنبعث من ضوء النار.

جلس فوق الرمال؛ كي يجرد محتويات الحقيبة: المنظار، زجاجة تتسع لنصف غالون من البنزين تكاد تكون ممتلئة، زجاجة الماء، زوج من الكماشات، ملعقتان. رتب كافة المحتويات في صف واحد. بقي معهما خمس علب صغيرة من الطعام. اختار منها واحدة تحتوي على السجق

وأخرى فيها ذرة. فتح العلبتين بمفتاح علب عسكري صغير ووضعهما على حافة النار. جلسا يراقبان الملصقين المحيطين بالعلبتين من النار مستعينا بالكماشة. جلسا منحنيين فوق العليتين وكل منهما ممسك بملعقة ثم بَدَأا يأكلان ببطء. كان رأس الصبي ينحني إلى الأمام من شدة النعاس.

بعد أن انتهيا من الطعام أخذ الصبي إلى حاجز من الحصى تحت الجسر. أزال طبقة الجليد الرقيقة بواسطة عصا. جثا كل منهما على ركبتيه، بينما شرع الرجل يغسل وجه الصبي وشعره. كان الماء شديد البرودة فأبكى الصبي. غاصا عميقا تحت الحصى سعيا وراء ماء عذب. غسل شعره ثانية قدر استطاعته ثم توقف أخيراً؛ لأن الصبي أصبح يئن من شدة برودة الماء. نشفه بالبطانية وجثيا حيث هما. لاحت ظلال البناء تحت الجسر في وهج الضوء المنبعث من النار فكانت تتكسر عند ملاقاتها السياج المتشكل من جذوع الأشجار على طول الممر الضيق. قال: هذا هو طفلي. إني أغسل نخاع رجل ميت من شعره. وذاك هو عملي. لف الصبي بالبطانية وحمله ثم وضعه قريبا من النار.

جلس الصبي مترنحا. أبقى الرجل عينه عليه؛ مخافة أن ينقلب فيقع فوق ألسنة اللهب. حفر في الرمل تجاويف بقدمه؛ كي يجعل الصبي فيها كتفيه ووركه في أثناء النوم. جلس يضم الصبي ويجفف له شعره قريبا من النار. كل هذا يشبه طقس المسح بالزيت المغرق في القدم. كذا يكون. انفخ الحياة في الأشكال. عندما لا يكون لديك شيء آخر تفعله انسج طقوسا وشعائر من الهواء وانفخ فيها نفسك.

أيقظه البرد ليلا فنهض وانكب يكسر مزيدا من الحطب طعاما للنار.

الأغصان الصغيرة تشتعل بين الفحم متوهجة بلون برتقالي. نفخ في ألسنة اللهب منعشا فيها الحياة، مد النار بمزيد من الحطب وجلس مصالبا ساقيه، مستندا إلى أحد أعمدة الجسر.

كتل ضخمة من الحجر الكلسي اصطفت متراكبة فوق بعضها دونما ملاط فيما بينها. الحديد المشغول تحت الجسر وفوق رأسه صبغه الصدأ بلون بني وكذا المسامير المبرشمة المستطرقة العوارض والألواح الخشبية المتعامدة. الرمال حيث كان يجلس دافئة لكن البرد في الليل بعيدا عن النار كان قارسا. نهض وسحب خشبا طريا من تحت الجسر ووقف منصتا. الصبي هاجع، جلس إلى جانبه، مسح شعره المتشابك الباهت برفق. أرجوك لا تخبرني كيف تنتهي القصة. عندما نظر من جديد نحو الظلام المهيمن خلف الجسر كانت السماء تثلج.

كل ما تبقى لديهما من حطب معد للحريق كان صغير الحجم ولن تصمد النار متقدة إلا زهاء ساعة أو أكثر بقليل. سحب الحطب المتبقي تحت الجسر وكسره ثم كسر الأغصان الصغيرة إلى قطع. ظن أن الضجيج سيوقظ الصبي، لكنه لم يفعل. هسهس الحطب الندي بين ألسنة اللهب. استمر هطل الثلج. سوف ينظران في الصباح إن كان ثمة آثار أقدام على الطريق أم لا. باستثناء الصبي كان هذا أول كائن بشري يكلمه منذ أكثر من سنة. وأخيرا أخي. الحسابات الزاحفة في العينين الباردتين القلقتين، الأسنان النخرة الرمادية اللون. كتلة من اللحم البشري، الذي جعل من العالم كذبة في كل كلمة. عندما استيقظ من جديد كان قد توقف هطل الثلج. والفجر المبلر كان يشكل الأراضي العارية الجرداء خلف الجسر. بدت الأشجار سوداء اللون في مقابل الثلج. كان يضطجع ملتفا حول نفسه

وقد جعل يديه بين ركبتيه. استوى جالساً، وجد النار مضرمة فوضع علبة شمندر بين الحجر. مكث الصبي متمددا على الأرض يراقبه.

انتشر الثلج الذي هطل حديثا في الغابة فغطى الأغصان اليابسة وتشكل أكوابا فوق أوراق النبات وقد اصطبغ بلون الرماد. مشيا إلى حيث كانا قد تركا العربة. رمى بالحقيبة على الطريق. لا يوجد آثار أقدام. وقفا يصغيان وسط الصمت المطبق ثم شرعا يسيران فوق الوحل الرمادي. مشى الصبي إلى جانبه واضعا يديه في جيبيه.

سارا مجهدين طوال النهار بينما كان الصبي لائذا بالصمت. بعد الظهر ذاب الثلج المختلط بالوحل وما إن حل المساء حتى كان الطريق قد جف. ولم يتوقفا. كم ميلا قطعا؟ عشرة، اثني عشر. اعتادا أن يلعبا على الطريق لعبة اسمها التعادل بواسطة أربع ماسحات من الفولاذ كانا قد وجداها في مخزن لبيع الخردوات. بيد أنها نهبت مع ما سرق من العربة. خيما تلك الليلة في وادٍ صغير ضيق شديد الانحدار وأضرما نارا خلف صخرة عريضة مسطحة الجانب. ثم أكلا علبة طعام كانت بحوزتهما. أبقاها حتى النهاية؛ لأنها تحتوي على أكلة الصبي المفضلة؛ اللحم مع الفاصوليا. راقباها وهي تبقبق ببطء وأناة فوق الجمر. استعاد العلبة من بين الجمر مستعينا بالكماشة وأكلا صامتين.

شطف العلبة الفارغة بالماء وأعطاها إلى الصبي؛ حتى يشرب ولم يكن ممكنا فعل ما هو أفضل مما حصل.

قال: علي أن أكون أكثر اهتماماً.

لم يجب الصبي.

ـ عليك أن تحادثني.

ـ حسناً.

كنت تود أن تعرف ماذا تشبه عصبة الأشرار. ها أنت ذا قد عرفت الآن. ربما يحدث الأمر ثانية. إن واجبي هو أن أعتني بك. لقد أوكل إلي الإله هذه المهمة. سوف أقتل أي شخص يمسك كائنا من كان. هل تفهم؟

ـ نعم.

جلس في مكانه ملتفا بالبطانية جاعلا منها قلنسوة. بعد برهة رفع بصره، وقال:

ـ أمازلنا شخصين صالحين؟

ـ نعم لا نزال خيرين.

ـ وسوف نكون دائما كذلك.

ـ نعم سنبقى دائما كذلك.

ـ حسنا.

في الصباح غادرا الوادي وذهبا إلى الطريق مجددا. كان قد صنع للصبي آلة فلوت موسيقية تعمل بواسطة النفخ، وذلك من قطعة قصب وجدها على جانب الطريق. أخرجها من جيبه وأعطاها للصبي. أخذها الصبي صامتا. بعد برهة تراجع الصبي عن أبيه ثم ما لبث الرجل أن سمع الصبي يعزف للزمن القادم موسيقى غير معهودة أو ربما هي آخر معزوفة موسيقية تعزف على وجه الأرض وتأتي من بين الرماد والخرائب.

التفت الرجل ونظر إلى الصبي. كان مستغرقاً في التفكير. دار في خلد الرجل أن الصبي يشبه طفلاً مستبدلاً بآخر سراً منذ زمن الطفولة، ميالاً

إلى العزلة يبدو حزينا إلى حد ما وهو يعلن وصــول فرقة مسرح جوال إلى مقاطعة وقرية. بيد أنه لا يدري أن الممثلين خلفه قد اختطفتهم الذئاب.

جلس على أوراق النبات مشابكا ساقيه فوق قمة سلسلة جبال ونظر إلى الوادي من خلال المنظار. شـكل نهر مازال يجــري. طاحونة ذات مداخن قرميدية ذات لون أدكن. سـقوف مبنية من الصـخر الأردوازي وبرج ماء خشبي قديم محاط بأطواق من الحديد. لا يوجد دخان أو حركة تدل على وجود حياة. أخفض المنظار وجلس يراقب.

قال الصبي: ماذا ترى؟

ـ لا شيء.

مرر المنظار للصبي فأخذه وعلق شريطه حول عنقه. وضع المنظار على عينيه وأدار العدسات لضبط الرؤية. كل ما حولهما كان ساكنا.

قال: إني أرى دخانا.

ـ أين؟

ـ وراء تلك الأبنية.

ـ أي أبنية؟

أعاد الصبي المنظار فعدل الرجل العدسات وقال وهو ينظر: إنه دخان ينبعث ملتفا. نعم إني أراه.

ـ ماذا علينا أن نفعل يا أبي؟

ـ أعتقد أنه علينا أن نلقي نظرة. ويجب أن نكون حذرين.

إن كانـت بلدة صـغيرة فسـيكون عندهـم حواجز ومتاريسـ. لكن من المحتمل أن يكونوا مجرد لاجئين.

ـ مثلنا.

ـ نعم مثلنا.

ـ ماذا لو أنهم كانوا عصبة أشرار؟

ـ علينا أن نجازف؛ لأننا بحاجة لإيجاد شيء نأكله.

تركا العربة في الغابة واجتازا خط السكة الحديدية. انحدرا من جرف عالٍ شديد الانحدار عبر شجر لبلاب متفحم وميت.

قال للصـبي: ابق قريبا مني ففعل. تحركا عبر الطرقات مثل خبيرين بوضـع الألغـام وتعطيلها. كانا يجتازان مبنـى في كل تحرك. رائحة دخان الحطـب المنتشـرة بالجو تسـبب الدوار وتبعـث على الإغمـاء. انتظرا في متجر وراقبا الطريق؛ ما من شـيء يتحرك. مشـيا عـبر النفايات وأكوام من الحجارة المتكسـرة. أدراج خزانة مفتوحة ومرمية على الأرض إضافة إلى أوراق وعلب كرتونية منتفخة. لم يعثرا على شـيء، فقد تم نهب المحال التجاريـة جميعها منذ سـنوات. زجـاج النوافذ معظمـه محطم. الظلام مسـتحكم داخل المتجر لدرجة تتعـذر الرؤية معها. اعتليا درجات حديدية مضـلعة لسـلم دوار. الصبي ممسـك يد الرجل بيده. بضع بدلات يغطيها الغبـار معلقة علـى حامل. بحثا عـن أحذية فلم يجدا منها شـيئا. سـارا يجـران أقدامهمـا جرا عبر النفايـات لكنهما لم يعثرا على أي شـيء ذي نفـع لهما. عندما رجعا أخذ بعض السـتر المعلقة على الحامل، نفض عنها الغبار، طواها، وضعها على ذراعه وقال: لنذهب.

فكر أنه ربما يكون قد مر بشــيء فاته الانتباه إليه لكنه لم يجد شـيئا. في متجـر للأغذيـة جالا على أكوام النفايات المتراكمـة على الأرض؛ بحثا عن شـيء يكون ذا نفـع لهما. لم يعـثرا إلا على مواد تعبئـة قديمة وبعض الأوراق إضــافة إلى الرماد الســرمدي. طاف على الأرفف مسرعاً؛ بحثاً؛ عــن فيتامينات. فتح باب غرفة تبريد كبيرة فانتشــرت منها تحت الظلام رائحة زنخة نتنة عفنة منبعثة من موتى داخل الغرفة. أغلق الباب بسرعة. وقفــا على الطريــق ونظر إلى الســماء. دخان خانق يقطــع النفس. التعب الشديد أنهك الصبي فأمسكه من يده قائلا: لا بد أن نفتش أكثر، يجب أن نستمر في البحث.

البيــوت الموجودة في طرف البلــدة لم تحتوِ إلا على القليـل الزائد عما توافــر في المحــال التجارية. اعتليا الســلم الخلفي ودخــلا مطبخا. أبواب الخزائــن كلها كانت مفتوحة. وجد علبة خمــيرة فوقف ينظر إليها. دخلا غرفــة الطعــام وبحثــا في أدراج بوفيــه موجــودة فيهــا. وصــلا إلى غرفة الجلوس. لفائف من ورق الجدران ســاقطة على الأرضــ كأنها وثائق من مخلفات الأزمنة الغابرة. ترك الصــبي جالســا على درجات السلم حاملا المعاطف وتابع البحث.

رائحة الرطوبة العفنة معششــة في كل الأشــياء. في غرفة النوم الأولى توجد جثة جافة مغطاة عند الرقبة. آثار شعر متبقية على الوسادة. أمسك البطانية من حاشــيتها الســفلى، سحبها عن الســرير، نفضها، طواها ثم حملهــا تحت ذراعه. فتش المكاتب والخزائن فوجد رداء صــيفيا معلقا. لا يوجد شــيء. عاد أدراجه من حيث أتى. بدأ الظلام يخيم. أمسك الصبي من يده وخرجا إلى الشارع عبر الباب الأمامي.

عند قمة الهضبة استدار وتفحص البلدة. حل الظلام سريعا. برد وعتمة. وضع معطفين على كتفي الصبي وغمره بالسترة وبكل شيء.

ـ أنا جائع حقا يا أبي.

ـ أعرف.

ـ هل سنتمكن من العثور على طعامنا وشرابنا؟

ـ نعم. فأنا أعرف مكانهما.

ـ ماذا لو أن أحدا وجدهما؟

ـ لن يجدوهما.

ـ أرجو ألا يتمكنوا من ذلك.

ـ لن يستطيعوا. هيا.

ـ ماذا كان هذا؟

ـ لم أسمع شيئا.

ـ أنصت.

ـ لا أسمع شيئا.

أصغيا. ثم سمع نباح كلب من مسافة بعيدة. استدار ونظر نحو البلدة الغارقة في الظلام، وقال: إنه كلب.

ـ كلب؟!

ـ نعم.

ـ من أين أتى؟

ـ لا أعرف.

ـ لن نقتله. أليس كذلك يا أبي؟

ـ كلا، لن نقتله.

نظر إلى الصبي الذي كان يرتجف برغم المعاطف التي تدثر بها. انحنى وطبع قبلة على حاجبه وقال: لن نؤذي الكلب. إني أعدك بذلك.

ناما في سيارة متوقفة قرب معبر مرتفع وقد كوما المعاطف والبطانية غطاء فوقهما. في غمرة الظلام والصمت استطاع أن يرى بعض الأضواء الخافتة والمبعثرة على نحو عشوائي. الأدوار العليا من الأبنية كلها تسبح في الظلام. عليك أن تحمل ماء إلى الأعلى. من المحتمل أن يجبرك الدخان على الخروج ماذا يأكلون؟ الله أعلم.

جلسا وقد ادثرا بالمعاطف وهما ينظران إلى المحيط عبر النافذة.

ـ من هم يا أبي؟

ـ لا أعرف.

أفاق ليلا فاضطجع منصتا. لم يستطع أن يتذكر أين هو موجود. دغدغته الفكرة فابتسم.

قال: أين نحن؟

ـ ما هذا يا أبي؟

ـ لا شيء. اخلد إلى النوم. فنحن بخير.

ـ سوف نكون على ما يرام. أليس كذلك يا أبي؟

ـ نعم.

ـ ولن يمسنا سوء.

ـ هذا صحيح.

ـ لأننا نحمل النار.

ـ نعم لأننا نحمل النار.

في الصباح كان المطر ينهمر باردا وينصب على السيارة شديدا. وصل إلى ما تحت المعبر العالي وكان يتراقص خلف السيارة على الطريق. جلسا يشاهدان الماء وهو يسيل على الزجاج. عندما ضعف تدفق الأمطار كان قد انقضى قسم كبير من النهار. تركا المعاطف والبطانية على أرض المقعد الخلفي وترجلا من السيارة إلى الطريق لتفتيش المزيد من البيوت. امتزج دخان حرائق الأشجار بالهواء الرطب. لم يعودا يسمعان نباح الكلب.

وجدا بعض الأواني المنزلية وقليلاً من قطع الملابس؛ بينها كنزة فضفاضة. وبعض البلاستيك الذي يحتاجانه. لقد كان متأكدا أن ثمة من يراهما ويراقبهما لكنه لم ير أحدا. في حجرة لإعداد الطعام وحفظه وجدا جزءا من كيس يحتوي على دقيق الذرة وفيه ما يدل على أن الفئران قد مرت عليه منذ عهد بعيد. غربل الدقيق بواسطة قطعة من منخل مثبت على نافذة. فصل الدقيق من الروث الجاف الذي كان فيه. أضرم نارا فوق الإسمنت وتحت رواق المنزل. صنع كعكا من الدقيق وخبزه فوق قطعة من القصدير ثم جلسا يأكلان الكعك ببطء واحدة تلو الأخرى. غلف المتبقي بورقة ووضعها في الحقيبة.

كان الصبي جالسا على الدرج عندما رأى شيئا يتحرك من خلف المنزل عبر الطريق. وجه كان ينظر إليه؛ صبي في مثل سنه يلبس معطفا صوفيا فضفاضا أكبر حجما مما يناسبه وأكمامه مقلوبة إلى الوراء. وقف. ركض

عبر الشارع ثم دلف إلى مدخل بناء. لا أحد هناك. نظر إلى المنزل ثم ركض إلى وسط الفناء وعبر الأعشاب الميتة نحو جدول راكد أسود وصاح: ارجع لن ينالك مني أذى. كان واقفا هناك يصرخ حين وصل أبوه بسرعة فائقة، عبر الطريق وقبض على ذراعه. قال له مستهجنا:

ـ ماذا أنت فاعل؟ ما هذا الذي تفعله؟

ـ يوجد هناك ولد صغير يا أبي. ولد صغير.

ـ لا يوجد ولد صغير. ما الذي ترتكبه؟

ـ إنه موجود. لقد رأيته.

أخبرتك أن تتسمر في مكانك وألا تبرحه. ألم أخبرك. والآن علينا أن نذهب. هيا.

فقط أردت أن أراه يا أبي. وددت لو أراه هذا كل ما في الأمر.

أمسك به الرجل من ذراعه وعادا عبر الفناء. لم يكف الصبي عن البكاء ولا هو توقف عن النظر إلى الوراء. قال الرجل:

ـ هيا. علينا أن نذهب.

ـ أريد أن أراه يا أبي.

ـ ليس من أحد تراه. هل ترغب في أن تموت؟ هل هذا ما تريده؟

قال الصبي وهو ينشج ويبكي متنهدا: إني لا أبالي بالموت. نعم إنه لا يهمني توقف الأب فتوقف الصبي ثم جثم على الأرض فحمله وقال: أنا آسف. لا تقل ذلك. لا ينبغي لك قوله.

عادا عبر الشوارع الرطبة متجهين نحو الجسر. أخذا المعاطف والبطانية من السيارة وتابعا السير نحو جسر السكك الحديدية حيث تسلقا الطريق ثم جازا دروبا ومجازات بين الغابات. أخذا العربة واتجها نحو الطريق السريع.

قال الصبي:

ـ ماذا لو لم يكن للصبي الصغير من أحد يرعاه؟ ماذا لو لم يكن له أب؟

ـ يوجد أناس هناك. إنهم مختبئون لكنهم موجودون.

دفع العربة وصولا إلى الطريق ثم توقف. استطاع أن يرى آثار الشاحنة فوق الرماد الرطب. آثار باهتة وممسوحة في محاولة لإخفائها لكنها موجودة.

أحس أنه استطاع أن يشم رائحتهم. كان الصبي يسحبه من معطفه إلى الوراء وقال:

ـ أبي.

ـ ماذا؟

ـ إني متأسف لحال الصبي الصغير وخائف عليه.

ـ أعرف. لكنه سيكون بخير.

ـ علينا أن نعود؛ كي نصطحبه يا أبي. نستطيع أن نعثر عليه وأن نأخذه معنا. يمكننا أن نصحبه وأن نأتي بالكلب. فالكلب يستطيع أن يصطاد شيئا يأكله.

ـ لا نستطيع.

ـ وسوف أشاطر الولد الصغير طعامي.

ـ كف عن هذا. إننا لا نستطيع.

عـاد للبـكاء ثانيـة. ماذا عن الولد الصـغير؟ بكى متنهـدا. ماذا عن الولد الصغير؟

عند الفسق؛ مع ظلمة أول الليل جلسا عند مفترق طرق. أخرج الخريطة الممزقة، فرد أجزاءها فوق الطريق وشـرع يتفحصـها. وضـع إصبعه على نقطـة فيها وقال: نحن هنا؛ تماما هنا. لم يلتفت الصـبي. جلس يتفحص ويشـير بإصـبعه إلى الطرق الملتوية والمطبوعة بالأحمر والأسـود، ويحدد مـا يعتقد أنـه موقع تقاطع الطرق الذي هما عنده. كمـا لو أنه يرى الذات الصـغيرة لكل منهما جاثية هناك. قال برقة: يمكننـا أن نعود فالمكان ليس بعيدا جدا ولم يفتنا الوقت.

نصبا مخيما جافا في أرض حراجية قريبة من الطريق. لم يجدا مكانا مظللا يضرمان فيه نارا تتعذر رؤيتها فيه فعدلا عن الفكرة. أكل كل منهما قطعتين مـن كعك دقيق الذرة وناما على الأرض متجاورين بين البطانيات والمعاطف. ضم الصبي فهدأ ارتجافه بعد برهة ثم نام، إذ هدأ.

الكلـب الـذي يتذكره تبعنا علـى مدى يومـين. حاولـت أن ألاطفه؛ كي يأتي لكنه لم يأت. حاولت أن أنصـب له شـركا من الأسلاك؛ كي أوقعه فيه فأمسـكه. كان في المسدس ثلاثة خراطيش لا يمكن الاستغناء عن أي منها. مشـت على الطريق، ابتعدت، أتبعها الصـبي ناظريـه، و نظر إلي ثم ألقى نظرة على الكلب وشرع يبكي ويتوسل للإبقاء على حياة الكلب لقد وعدته ألا أمس الكلب بسوء. تعريشة للكلب مغطاة بجلد حيوان. في اليوم اللاحق كان قد رحل. هو ذاك الكلب الذي يتذكر لكنه لا يتذكر أولادا صغارا البتة.

كان قد وضـع حفنة من الزبيب المجفف في قطعة من القماش ودسها في جيبه. جلسا فوق العشب الميت عند الظهيرة جانب الطريق وأكلا الزبيب.

نظر الصبي إليه وقال:

ـ هذا آخر ما تبقى. أليس كذلك؟

ـ نعم.

ـ هل أوشكنا أن نموت الآن؟

ـ لا.

ـ ماذا أنت فاعل الآن؟

ـ سنشرب شيئا من الماء ثم نتابع المسير على الطريق.

ـ حسنا.

نزلا مسـاء في حقل محاولين إيجاد مكان يضـرمان فيه نارا لا ترى من مـكان آخر وهما يجرجـران العربة على الأرض خلفهمـا. الأمل في إيجاد شـيء في الريف ضـعيف جدا. عليهما إيجاد شـيء يأكلانه غدا. أدركهما الليـل وهما خائضـان في طريق موحـل. توجها إلى حقل يجـران أرجلهما جرا متثاقلين وعبره إلى مجموعة من الأشـجار العارية التي بدت سـوداء مقارنة بما خلفها من العالم المرئي. ما إن وصـلا هناك حتى كان قد هبط ظلام الليل. أمسك يد الصبي وجمع بقدمه حطبا كبيرا وأغصانا صغيرة ثم أشـعل نارا. كان الحطب رطبا لكنه نزع عنه اللحاء الميت بالسـكين ثم كومه عيدانا وأغصـانا؛ كـي يتجفف بالحرارة. ثم مدّ قطعة البلاسـتيك على الأرض جاعلا منها ملاءة.

أحضر من العربة المعاطف والبطانيات وخلع عنه وعن الصبي أحذيتهما الرطبة والموحلة. جلسا صامتين وقد مدا أيديهما صوب ألسنة اللهب؛ طلبا للدفء. حاول أن يفكر في شيء يقوله إلا أنه لم يستطع. لقد انتابه هذا الشعور من قبل جراء البرد الذي يفقد المرء صوابه واليأس الذي يتبلد معه الحس. أسماء الأشياء تتبع الأشياء ذاتها إلى عالم النسيان. ألوان، أسماء الطيور، الأشياء التي تؤكل. وأخيرا أسماء الأشياء التي يعتقد المرء أنها حقيقية.

كلها أكثر هشاشة وأسرع زوالا مما يظن؛ كم قد زال منها فعلا؟ لغة المفاهيم الاصطلاحية المكرسة للعبادة والتقديس المجردة من مرجعياتها ومن حقيقتها أسدل الستار عليها مثلها في ذلك مثل شيء يحاول الاحتفاظ بالحرارة، ولسوف تنطفئ وتنتهي إلى الأبد إن عاجلا أم آجلا.

ناما طوال الليل فقد أنهكهما تعب شديد. في الصباح كانت النار قد خمدت وتفحمت على الأرض. انتعل حذاءه الموحل وذهب ليجمع حطبا وهو ينفخ في يديه المتجمدتين على شكل كوبين طلبا للدفء، فالبرد شديد بل هو زمهرير. ربما يكون هذا الشهر نوفمبر أو ما بعده. أوقد نارا ومشى إلى طرف الأرض الحراجية، ثم توقف ليستطلع الريف حوله: حقول ميتة ومخزن حبوب على مسافة بعيدة عنه.

رحلا من جديد ودائما سيرا على الأقدام عبر طريق قذرة وعلى طول هضبة حيث يقبع بيت كان يوما عامرا. لقد أتى عليه الحريق منذ أمد بعيد. هيكل صدئ لفرن مرمي في قبو للمؤن تغمره مياه سوداء. ألواح أسقف معدنية متفحمة منهارة ومتفتتة، متناثرة في الحقول والريح تعصف

بها. عثرا في مستودع الحبوب على مقدار ضئيل من الحبوب المتناثرة على فوهة مطحنة. لم يستطيعا تمييزها من كثرة الغبار الذي يغطيها فأكلاها بغبارها وبكل ما عليها. بعد ذلك توجها إلى الطريق عبر الحقول.

سارا بمحاذاة جدار حجري يخترق أطلال بستان فاكهة. الأشجار المنتظمة في صفوف تشوهت وتفحمت. أما أغصانها التي تساقطت على الأرض فقد تكدست أكواما. توقف ونظر عبر الحقول. الرياح شرقية والرماد الناعم يتحرك في الحقول. يتوقف ثم يمشي من جديد. إن كل ما يشاهده الآن كان قد رآه من قبل. بقع من الدماء الجافة فوق مخلفات الأعشاب وبقايا لفات من الأحشاء والأمعاء رمادية اللون. المقتولون ذبحا سحبوا ونقلوا بعيدا. علقت على نتوءات الجدار رؤوس بشرية متشابهة الوجوه؛ وجوه جافة ومكشرة وعيونها منقبضة وغائرة. آذانهم متدلية عند شحماتها ومقرقطة بأقراط من الذهب. الرياح تعبث بشعورهم الشعث فتلفها حول جماجمهم. الأسنان في تجاويفها تشبه قوالب الأسنان. عليهم وشوم غير متقنة الصنع صباغها الأزرق مستخرج من نبتة الوسم الأوروبية، وقد أضيف له شيء من الشراب الكحولي المحضر منزليا. وشوم بدت شاحبة في ظل ضوء الشمس الشحيح. عناكب، سيوف وتروس، تنين، شعارات حربية وعقائد مغلوط في كتابتها وتهجيتها. آثار ندوب بجراح وحروق قديمة ورسوم مخيطة من جوانبها. الرؤوس التي لم تتشوه جراء ضربها بالهراوات والعصي سلخ جلدها عن عظمها. الجماجم التي سلخ عنها جلدها لونت وطبعت على جباهها سمات أقرب ما تكون إلى الخربشة. إحدى الجماجم كانت عظامها بيضاء اللون رسم عند ملتقى عظامها بعظام الرقبة رسم دقيق بالحبر الأزرق المستعمل بالطباعة. نظر

إلى الصبي الواقف إلى جانب العربة في مهب الريح. نظر إلى العشب المتيبس ومد بصره على امتداده. نظر إلى الأشجار المتفحمة الملتوية المنتظمة في صفوف. مزق وقطع قليلة من الثياب جمعتها الريح خلف الجدار. كل شيء يكسوه الرماد. مشى بمحاذاة الجدار ملقيا نظرة أخيرة على الوجوه التي غدت أقنعة ثم رقي مرقى عبر الجدار وذهب إلى حيث كان الصبي منتظرا. وضع ذراعه حول كتفه وقال: حسنا، دعنا نذهب.

كان ينتهي إلى فهم رسالة من كل حادثة وقعت مؤخرا. يرى فيها رسالة وتحذيرا. وكذا كان الحال مع مشهد المقتولين ذبحا والفرائس التي تم التهامها. أفاق صباحا وتقلب تحت بطانيته، ثم نظر خلفه إلى الطريق التي أتيا منها فإذا به يرى أربعة مشاة يسيرون جنبا إلى جنب. ألبستهم مختلفة الأشكال، بيد أن كلا منهم قد تلفع حول رقبته بشال أحمر أو برتقالي اللون. يبدو أنهم حاولوا جاهدين أن تكون الألوان قريبة من الأحمر. وضع يده على رأس الصبي وقال: اسكت.

ـ ما هذا يا أبي؟

ـ أناس على الطريق. أخفض رأسك ولا تنظر.

النار قد انطفأت ولا دخان ينبعث منها والعربة لا يمكن رؤية أي شيء منها. انبطح على الأرض وأخذ ينظر من تحت ساعده. جيش ينتعل أفراده أحذية لاعبي التنس يحملون مواسير بطول ثلاثة أقدام لكل منها مع أغطية من الجلد الطبيعي. معاصمهم مطوقة بشارات من الحبال. بعض المواسير ينتظمها سلك على شكل سلسلة وهي مزودة عند نهاياتها بالهراوات. مروا مقعقعين مصلصلين، ساروا مترنحين كأنهم ألعاب

مهتاجـة. ملتحون ومقنعـون. زفراتهم تتلون بالهواء بلـون الدخان. قال: اسـكت.. اصـمت. الكتيبة المنظمة يتقدمها حملة الحراب وحملة الرماح مزدانين بشـرابات ومتشـحين بالأوشـحة. تمدد الصـبي مذعورا مواريا وجهه بين ذراعيه. مروا وابتعدوا مسـافة مئتي قدم. الأرض تهتز اهتزازا خفيفـا من وقـع أقدامهم. ثم مرت بعدهم عربـات يجرها عبيد مزودون بعـدة الحرب، وقـد حملت العربـات بأكداس من العتـاد الحربي. عبرت بعدهم النسـاء؛ ربما كان عددهن اثنتي عشـرة امرأة وبعضـهن حوامل. وأخيرا مر غلامان يتخذان لأغراض جنسية شاذة في ثياب رثة لا تقي من البرد وقد طوق عنقاهما بطوقين محكمين وشد كل منهما إلى الآخر بنير. مر الجميع وهما هاجعان ينصتان.

ـ هل رحلوا يا أبي؟

ـ نعم، لقد رحلوا.

ـ أرأيتهم؟

ـ نعم.

ـ أهؤلاء هم عصبة الأشرار؟

ـ أولئك هم عصبة الأشرار.

ـ أهم كثيرون؟

ـ نعم، هم كثيرون، لكنهم رحلوا.

نهضـا ونفضا عن ثيابهما ما علق بها وهما يصغيان إلى الصمت الذي وسع المدى.

ـ إلى أين هم ذاهبون يا أبي؟

ـ لا أعرف. لكنهم في حالة تقدم وتنقل وهذا ليس مؤشرا جيدا.

ـ لماذا؟

ـ هو ليس مؤشرا جيدا وكفى. نحن بحاجة لإلقاء نظرة على الخريطة.

سحبا العربة من الدغل الذي كانا قد أخفياها فيه. سحبها عاليا وكوم عليها البطانيات والمعاطف ودفعاها نحو الطريق. وقفا ينظران إلى حيث كان آخر أفراد أولئك الشعث؛ ليقدرا ما إذا كان ما يزال يشكل تهديدا لهما معتمدين في ذلك على إحساسهم البصري بعد أن تعذرت الرؤية في الجو المضطرب.

بدأ الثلج يهطل من جديد بعد الظهر. وقفا يشاهدان رقاقات الثلج الرمادية الشاحبة وهي تنخل وسط الظلمة الكئيبة. استأنفا سيرهما مجهدين. الثلج يتشكل هشا رقيقا فوق سطح الطريق. ما انفك الصبي يسقط على الأرض متخلفا عن أبيه وما برح الأب يتوقف منتظرا. قال له:

ـ ابق إلى جانبي.

ـ إنك تسير بسرعة كبيرة جدا.

ـ سوف أبطئ الخطى.

تابعا المسير.

ـ إنك لم تعد تتكلم.

ـ بل أنا أتكلم.

ـ أتريد التوقف؟

ـ أنا دائما أريد أن أتوقف.

ـ علينا أن نكون أكثر حذرا. علي أنا أن أكون أكثر حذرا.

ـ أعرف.

ـ سوف نتوقف. أيناسبك ذلك؟

ـ نعم.

ـ حالما نجد مكاناً.

ـ حسناً.

الثلج المنهمر يحول بينهما وبين رؤية ما حولهما. لا سبيل لرؤية أي شيء على جانبي الطريق. انتابه السعال مجددا، أما الصبي فكان يرتجف من شدة البرد. كلاهما يسيران جنبا إلى جنب وقد جعلا فوقهما الغطاء البلاستيكي وأمامهما العربة يدفعانها عبر الثلوج. توقف أخيرا. الصبي يرتجف إلى حد يتعذر ضبطه أو التحكم فيه. قال:

ـ علينا أن نتوقف.

ـ الجو بارد حقا.

ـ أعرف.

ـ أين نحن؟

ـ أتسأل أين نحن؟

ـ نعم.

ـ أنا لا أعرف.

ـ هل لك أن تخبرني إذا كنا قد أوشكنا أن نموت؟

ـ لا أعلم. ليس الموت وشيكا.

تركا العربة مقلوبة في حقل فيه نبات البردي. لف البطانيات والمعاطف بالغطاء البلاستيكي وأخذها واتجه صوب سياج، قائلاً للصبي: تمسك بمعطفي ولا تفلته من يدك. وصلا إلى السياج وحاولا أن يرقياه بواسطة سلك معدني، أخذ كل منهما يثبته للآخر بكلتا يديه. كان السلك باردا فأخذت وصلاته تصر صريراً من شدة البرد.

كان الظلام يهبط سريعا. تابعا المسير. وصلا إلى غابة أرز؛ أشجارها ميتة ومتفحمة. لكن مع ذلك فإن أغصانها ما تزال قادرة على احتضان الثلج. وكانت تحيط بكل شجرة دائرة من الأرض المتفحمة تغطيها طبقة من المواد العضوية المتعفنة.

وقع اختيارهما على شجرة؛ ليبيتا تحتها. كوما البطانيات والمعاطف على الأرض ولف الصبي بإحدى البطانيات. ثم عكف على جمع النباتات اليابسة إبرية الشكل جاعلاً منها كومة. فرغ مكانا من الثلج؛ كي يوقد فيه النار فوراً وبدأت عيدانها تطقطق. أدرك أنها لن تعمر طويلاً. نظر إلى الصبي وقال: علي أن أذهب لأحتطب المزيد، سوف أبقى قريبا. هل توافق؟

ـ أين تعني بقولك قريبا؟

ـ ما أعنيه هو أنني لن أذهب بعيداً.

ـ حسناً. تكدس الثلج على الأرض وبلغ ارتفاعه حتى الآن نصف قدم. تنقل متخبطا بين الأشجار وهو يسحب الأغصان المتساقطة بين الأشجار ومن تحت الثلوج المتراكمة. وقد جمع حتى الآن ما يمكنه حمله وشق طريقه راجعا إلى حيث أوقد النار التي سرعان ما تحولت إلى جمرات تهتز في قاع المكان الذي أضرمت فيه.

قذف الأغصان في النار وعاد ليجمع حطبا من جديد. يصعب البقاء قرب النار فالحطب أخذ يتفحم بسرعة ووهج النار لا يقوى على الانتشار. سرعة الحركة تولد عنده شعورا بالإغماء. التفت إلى الوراء فرأى الصبي يغوص بالثلج، يجمع الأغصان ويكومها فوق ذراعيه.

لم يكن هطل الثلوج غزيرا لكنه لم يتوقف عن الانهمار. أمضى الليلة دون أن يغمض له جفن بل كان ينهض طوال الليل ويعتني بالنار؛ كي يبقي عليها متقدة. فرد الغطاء وثبت طرفه إلى دعامة قرب الشجرة وذلك كي يحبس ويعكس الحرارة المنبعثة من النار. نظر إلى وجه الصبي النائم وقد انعكس عليه وهج النار البرتقالي. وجنتاه الغائرتان ملطختان باللون الأسود. كظم غيظه ولكن دون جدوى، فهو لا يظن أن الصبي قادر على الترحال أكثر مما فعل. حتى وإن توقف الهطل فلن يكون الطريق سالكا وسوف يتعذر المرور عبره.

الثلج يتهادى هامسا في أذن السكينة والشرر يتطاير ثم يخبو قبل أن يموت لينتهي إلى عالم الظلمة السرمدية.

كان النوم واليقظة حين سمع دويا قويا لشيء ما يتحطم في الغابات ويرتطم ثم تبعه آخر. جلس منتصبا. النار المضرمة تحولت إلى ألسنة لهب ضعيفة مبعثرة بين الجمر. أنصت فإذا هناك صوت تصدع طويل وجاف لأغصان تتهاوى، تبعه تصدع آخر محدثا ضجة شديدة. مد يده إلى الصبي وهزه قائلا: انهض. علينا أن نرحل.

أزال النوم عن عينيه بمسحهما بظهر كفيه. قال:

ـ ما هذا يا أبي؟ ما هذا؟

ـ علينا أن نتحرك. هيا.

ـ ماذا في الأمر؟

ـ إنها الأشجار. الأشجار تتساقط على الأرض.

جلس الصبي ينظر حوله مستسلما للحزن. قال للرجل:

ـ سنكون بخير. هيا، علينا أن نسرع.

غرف البطانيات غرفا، طواها ولف الغطاء حولها. رفع بصره فلامس الثلج عينيه. كادت النار تكون فحما ولم يبقَ لها وهج يضيء وكان الحطب قد نفد تقريباً. الأشجار تتهاوى من حولهما دون أن يرياها فالظلام دامس. تشبث الصبي به. تحركا دونما توقف. حاول أن يجد مكانا خاليا تحت جنح الظلام لكنه أخيرا وضع الغطاء على الأرض، جلسا فوقه مباشرة، سحبا البطانيات فوقهما وقرب الصبي منه. أصوات ارتطام الأشجار المتهاوية بالأرض مع الصوت الخفيض لأحمال الثلوج كانت تحدث ما يشبه الانفجار فتجعل الغابات ترتعد. ضم الصبي وأخبره بأن الوضع سيتحسن وأن كل شيء سيتوقف قريبا. بعد برهة من الوقت كان كل شيء قد توقف. المجنون الكئيب يموت بعيدا وأيضا مرتحلا وحده وبعيدا جدا. ومن ثم إلى العدم. قال: هناك، أعتقد أنها تلك. حفر نفقا تحت إحدى الشجرات المتساقطة. انكب يغرف الثلج بكلتا يديه ويبعده. كان يحفر الثلج بأصابعه المتجمدة التي جعلها داخل كميه. جرا جسديهما جرا ووضعا عليهما البطانيات والغطاء. بعد برهة ناما من جديد على الرغم من البرد القارس.

عندما طلع النهار شق طريقه خارجاً من وكرهما. كان الغطاء مثقلاً بالثلج. وقف ونظر حوله: توقف الهطل. أشجار الأرز مغمورة بتلال من

الثلج. أغصان متكسرة وجذوع أشجار قليلة ما تزال منتصبة، عارية جرداء ومحترقة. مشهد طبيعي مصطبغ بلون الرماد. شق طريقه وسط الثلوج التي تغمر الأرض تاركا الصبي ينام تحت الشجرة كأنه حيوان يغط في سبات طويل عميق. تكدس الثلج فصار يغمر رجليه حتى الركبتين. أتت الثلوج على نباتات البردي الميتة والمنتشرة في الحقل فغمرتها أو كادت. تجمع الثلج فوق أسلاك السياج كأنما أعملت فيه مواسي الحلاقة فخلفت أثلاما وشقوقا. أما السكون فيحبس الأنفاس رهبة. انتابه السعال فتوقف واستند إلى عمود. لديه فكرة بسيطة عن المكان الذي توجد فيه العربة. خطر في باله أنه قد حمق وفسد عقله ولم يعد يعمل كما ينبغي. قال لنفسه: ركز، عليك أن تفكر. عندما التفت كي يعود كان الصبي يناديه. قال: علينا أن نرحل، لا نستطيع البقاء هنا.

حدق الصبي بالثلوج المتراكمة فوق الأرض مكتئبا.

ـ هيا.

شقا طريقهما نحو السياج.

قال الصبي: إلى أين نحن ذاهبان؟

ـ يجب أن نعثر على العربة.

وقف حيث هو واضعا كفيه تحت إبطيه داخل السترة.

قال الرجل: تعال. عليك أن تأتي.

خاض في الثلوج الموحلة عبر الحقول يشق طريقه بصعوبة بالغة. تكدس الثلج عميقا ورماديا وكانت تنهال عليه موجة جديدة من الرماد. شق

طريقه بجهد كبير متقدما عدة خطوات، ثم التفت ونظر إلى الوراء. كان الصبي قد سقط أرضا. رمى البطانيات والغطاء من يديه وعاد ثم سحب الصبي الذي كان يرتجف. أنهضه وعانقه قائلا: أنا آسف. أنا آسف.

بدءا وقتاً طويلاً؛ بحثاً عن العربة. عثرا عليها، سحبها من تحت الثلوج التي ركمتها. نبش عميقا في محتويات العربة، أخرج الحقيبة، نفضها وأقحمها في إحدى البطانيات. وضع الحزمة والبطانيات الأخرى والمعاطف في السلة. أنهض الصبي، رفعه ثم وضعه فوق تلك الأشياء. فك رباط حذائه وخلعه عن قدميه. أخرج سكينه وقطع أحد المعاطف إلى قطع، ثم لف بها قدمي الصبي. استهلك معطفا كاملا. ثم قطع قطعا مربعة الشكل من الغطاء البلاستيكي، طبقها فوق بعضها، جعل تحتها شيئا من بطانة أكمام المعطف، وزعها على كاحليه ثم ربطهما ورجع إلى الوراء. نظر الصبي إليه وقال: الآن أنت، أبي. لف الصبي بأحد المعاطف وجلس على الغطاء وسط الثلوج وشرع يلف قدميه. وقف ودس كفيه في سترته؛ ليبعث فيهما الدفء ثم وضع حذاءيهما في الحقيبة إضافة إلى المنظار وسيارة الطفل. نفض الغطاء، لفه وحزمه مع البطانيات الأخرى، حزمها جميعا، وضعها مع الحزمة الأخرى ورفعها فوق كتفه وألقى نظرة أخيرة على السلة وقال: لقد أنهيت الأمر، دعنا نذهب. التفت الصبي وألقى نظرة واحدة وأخيرة على العربة وتبعه نحو الطريق.

كان الوضع أصعب حتى مما خمن وقدر. في غضون ساعة من الزمن قطعا مسافة ميل واحد تقريباً. وقف ونظر إلى الصبي وراءه. وقف الصبي وانتظر.

ـ تظن أننا أوشكنا على الموت. أليس كذلك؟

ـ لا أعرف.

ـ ليس الموت وشيكا.

ـ حسنا.

ـ لكنك لا تصدقني.

ـ لا أعرف.

ـ لماذا تعتقد أننا سنموت؟

ـ لا أعرف.

ـ كف عن ترديد عبارة لا أعرف.

ـ حسنا.

ـ لماذا تعتقد أننا سنموت؟

ـ ليس لدينا ما نأكله.

ـ سوف نجد ما نأكله.

ـ حسنا.

ـ كم من الوقت يستطيع الناس في اعتقادك أن يبقوا من دون طعام؟

ـ لا أعرف.

ـ ولكن كم من الوقت تظن..؟

ـ أياما قليلة.. ربما.

ـ ثم ماذا؟ تسقط ميتا.

ـ نعم.

ـ حسنا. لن يكون ذلك. هذا يستغرق زمنا طويلا. لدينا ماء. هذا هو الشيء الأكثر أهمية. لا تستطيع الاستمرار والبقاء وقتا طويلا دونما ماء.

ـ حسنا.

ـ لكنك لا تصدقني.

ـ لا أعرف.

ـ نظر إليه متفحصا، كان واقفا في مكانه واضعا يديه في جيبي سترته الفضفاضة التي لا تناسب مقاسه.

ـ أوتظن أني أكذب عليك؟

ـ لا.

ـ ولكن تعتقد أني ربما أكذب فيما يتعلق بالموت.

ـ نعم.

ـ حسنا. ربما أفعل، لكننا لسنا في حالة احتضار.

ـ حسنا.

تفحص السماء. مرت أيام رق فيها الدثار المعتم المظلم الرمادي الذي يحجب السماء. أما الآن فالأشجار المنتصبة على طول الطريق تلقي بظلالها الباهتة جدا فوق الثلج. تابعا سيرهما. الصبي لا يتحرك كما ينبغي. توقف، فحص قدميه وأعاد ربط قطع البلاستيك حول كاحليه. عندما بدأ ذوبان الثلوج صار من الصعوبة بمكان الإبقاء على أقدامهم جافة. توقفا مرارا وتكرارا؛ كي يستريحا. خارت قواه ولم تعد تعينه على حمل الصبي. جلسا فوق الحزمة التي بحوزتهما وأكلا شيئا من الثلج القذر. بدأ الثلج يذوب بعد الظهر. مرا ببيت محترق لم يبقَ منه إلا مدخنة

قرميدية منتصبة في باحته. أمضيا يومهما كله على الطريق؛ مشيا خلاله ساعات قليلة لم يتقدما خلالها سوى مسافة ثلاثة أميال، وذلك بسبب الأجواء السائدة.

اعتقد أن ظروف الطريق بالغة السوء الأمر الذي يقطع بعدم وجود أي شخص عليه لكنه كان مخطئا. خيما فوق الطريق عينه تقريبا حيث أضرما نارا عظيمة. كانا يسحبان أغصان ميتة من بين الثلوج ويلقيان بها في النار فتهسهس وتتبخر. لم يكن ممكنا تجنب إضرام النار فالبطانيات القليلة التي يحتفظان بها لم تكن لتوفر لهما الدفء. حاول أن يبقى مستيقظا. كان ينهض من نومه فيستوي قاعدا وهو يرتعش ويمد يده يتحسس الأمكنة حوله. بحثا عن المسدس. الصبي نحيل جدا، نظر إليه وهو نائم؛ وجه مشدود وعينان غائرتان. أي جمال غريب هذا؟ نهض، جر مزيدا من الحطب وألقى به في النار.

توجها نحو الطريق ثم توقفا فيه. يوجد آثار مطبوعة على الثلوج، إنها آثار لعربة ذات عجلات مطاطية ضيقة وثمة آثار حذاء مطبوعة متجها جنوبيا. مر فجرا وتحرك على الطريق ليلا. وقف يفكر بالأمر. تفحص آثار الأقدام بعناية. مر صاحبها بمحاذاة النار تابع السير لمسافة خمسين قدما ولم يتباطأ لإلقاء نظرة. توقف ونظر إلى الطريق وراءه بينما كان الصبي ينظر إليه.

ـ يجب أن نخرج عن الطريق.

ـ لماذا يا أبي؟

ـ شخص ما قادم.

ـ هل هم عصبة الأشرار؟

ـ نعم، أخشى أن يكونوا هم.

ـ من المحتمل أن يكونوا أناسا طيبين، أليس كذلك؟

لم يجب، نظر إلى السماء جريا على عادته القديمة لكن لم يكن هناك ما يراه.

ـ ما الذي سنفعله يا أبي؟

ـ دعنا نذهب.

ـ هل نستطيع العودة إلى حيث توجد النار؟

ـ لا، هيا فليس لدينا متسع من الوقت.

ـ إني جائع حقا.

ـ أعرف.

ـ ما الذي سنفعله؟

ـ يجب أن نختبئ في جحر. علينا أن نبتعد عن الطريق.

ـ هل سيرون آثار أقدامنا؟

ـ نعم.

ـ ماذا نستطيع أن نفعل حيال ذلك؟

ـ لا أعلم.

ـ هل سيعلمون من نحن؟

ـ ماذا؟

ـ في حال رؤيتهم لآثار أقدامنا، هل سيعلمون من نحن؟

ـ التفت إلى الوراء وألقى نظرة من الآثار التي خلفتها أقدامهما على الثلج، وقال: سوف يكتشفون مكاننا.

ثم توقف.

نحن بحاجة إلى التفكير بالأمر. فلنعد إلى النار.

فكر بأن يجد مكانا ما على الطريق بحيث يكون الثلج قد ذاب فيه كليا. ثـم خطر في باله أن آثار أقدامهما لن تظهر من جديد على الجانب الآخر البعيـد وهكذا لن يكون الأمر ذا جدوى. دفعا بأقدامهما ثلجا وجعلاه فوق النار. سـارا بين الأشـجار، دارا دورة ثم رجعا. أسرعا مخلفين متاهة من آثار الأقدام ثم شـرعا بالعودة والمسير شمالا عبر الغابات وجعلا الطريق في مرمى النظر.

المكان الذي انتقياه كان بيسـاطة عند أعلى نقطة وصـلا إليها. بحيث يتمكنان من رؤية الشمال على طول الطريق ويشرفان على طريق الرجوع. فرد الغطاء فوق الثلج البارد ولف الصبي بالبطانيات وقال: سوف تتعرض للبرد. لكن أرجو ألا نمكث هنا طويلا. في غضـون ساعة تحدر رجلان من الطريق يذرعانه بخطى واسـعة. بعد أن تخطيا المكان وقف كي يراقبهما؛ عندهـا توقفا والتفت أحدهما ونظـر إلى الوراء. تجمد. كان ملتفا بإحدى البطانيات الرمادية، فرؤيته صـعبة لكنها ليست مستحيلة. من المحتمل أن يكونا قد شما رائحة الدخان. وقفا يتحادثان ثم واصلا السير. جلس وقال: لا بأس. علينا أن ننتظر ولسوف نكون بخير.

لا طعام لديهما على مدى خمسة أيام، أما نصيبهما من النوم فهو قليل وفي حال كالتي هما عليها في ضواحي بلدة صغيرة فوجئا بوجود بيت ضخم

يقع في مكان مرتفع على الطريق. توقف الصبي وأمسك بيده. ذاب الثلج معظمه عن الأرض المرصوفة بالحصباء وعن الغابات والحقول المنتشرة قبالة الجنوب أيضا. وقفا هناك. القطع البلاستيكية مضى عليها وقت طويل مذ جعلا منها نعالا بديلة، فغدت أقدامهما رطبة وباردة. كان البيت منيفا وفخما وعبر واجهته تنتصب أعمدة بيضاء مصممة وفق الطرز المعمارية الإغريقية البسيطة، رواق جانبي للعربات والسيارات. طريق مفروش بالحصى يمتد من الطريق العامة إلى مدخل المبنى مرورا بحقل تنتشر فيه أعشاب ميتة. أما النوافذ فهي سهلة سليمة لم تصب بأذى.

ـ ما هذا المكان يا أبي؟

ـ اصمت. دعنا فقط نقف هنا ونتصت.

لا وجود لشيء. تخلخل الريح في نبات السرخس الميت المنتشر على جانب الطريق فيسمع حفيفها. صوت باب أو مصراع آتٍ من بعيد.

ـ أعتقد أن علينا إلقاء نظرة.

ـ لا تدعنا نذهب إلى هناك يا أبي.

ـ حسنا.

ـ لا أعتقد أن علينا أن نذهب إلى هناك.

ـ حسنا. علينا أن نلقي نظرة.

تقدما ببطء عبر الطريق الموصل إلى البيت. لا آثار لأقدام أو غيرها على التشكيل العشوائي لبقايا الثلوج بعد ذوبانها. سياج طويل من الشجيرات الميتة؛ على غصن داكن يوجد عش عصافير قديم. وقفا في فناء المنزل يتفحصان واجهته: قرميد البيت المصنوع يدويا ملطخ بالأوساخ المحترقة

والعالقة فيه. الدهان المتقشر استحال خيوطا متجففة منذ زمن بعيد عالقة أسفل الأعمدة وعلى سطوح القنطرة الدنيا المتغضنة. مصباح كهربائي مثبت في نهاية سلسلة طويلة تدلى من الأعلى. تشبث الصبي به ورقيا السلم. إحدى النوافذ مفتوحة فتحة صغيرة وقد أرسل عبرها حبل مرورا بالرواق، ليختفي بين الأعشاب. أمسك يد الصبي واجتازا الرواق. كان البيت ذات يوم يعج بالعبيد الذين يمشون في جنباته يحملون الطعام والشراب في صوان من فضة. توجها إلى النافذة ونظرا عبرها إلى داخل البيت.

ـ ماذا لو وجد شخص ما هنا يا أبي؟

ـ لا يوجد أحد هنا.

ـ علينا أن نرحل يا أبي.

ـ يجب أن نجد شيئا نأكله. لا خيار لنا.

ـ يمكننا إيجاد شيء في مكان آخر.

ـ ستكون الأمور بخير. تعال.

استل المسدس من حزامه وحاول فتح الباب فدار متمحورا على مفصلاته النحاسية الضخمة ببطء. وقفا منصتين، ثم دلفا إلى ردهة فسيحة كبلطة برخام أبيض وأسود على غرار الدومينو. درج عريض صاعد. الجدران مغطاة بورق موريس الفاخر لكنه تبلل بالمياه فتلطخ وتدلى، وكذا الجص الذي يكسو السقف منتفخ ومتدلٍ. الحلية المعمارية المصفرة والمصممة على شكل نتوءات قد تقوست ونتأت من الجدران العليا. إلى الجهة اليسرى من المدخل انتصبت خزانة ضخمة لأدوات المائدة، مصنوعة من خشب

الجوز في غرفة يفترض أن تكون حجرة طعام. أتى الحريق على أبوابها وأدراجها، أما ما تبقى منها فكان أضخم من أن يحترق. في إحدى زوايا الغرفة تكومت كومة كبيرة من الثياب: ألبسة، أحذية، أحزمة، معاطف، بطانيات، أكياس نوم قديمة. سوف يكون لديه متسع من الوقت كي يفكر في أمرها لاحقا. تشبث الصبي بيده، كان مذعورا. اجتازا الردهة وصولا إلى الغرفة الموجودة في الجانب الآخر. دخلاها وتوقفا؛ قاعة ضخمة لغرفة ترتفع أسقفها ضعف ارتفاع أبوابها. مستوقد نار مصنوع من القرميد؛ إطاره الخشبي منتزع من مكانه ومحترق. يوجد فرشات ومفارش وشراشف مرتبة على الأرض وموضوعة قبالة الموقد.

همس الصبي: أبي.

قال له: اصمت.

كان الرماد باردا وبضعة قدور متفحمة تبعثرت هنا وهناك. جثا على عقبيه، التقط أحد القدور، شمه ثم أعاده إلى حيث كان. نهض وأطل من النافذة. آثار أقدام على العشب الرمادي وثلج بلون الرماد. الحبل المرسل عبر النافذة مربوط بجرس نحاسي والجرس مثبت على موجه خشبي خشن والموجه مثبت على إطار النافذة. أمسك يد الصبي ونزلا عبر رواق خلفي ضيق إلى المطبخ. نفايات مكومة في كل مكان. بقع صدئة. روائح قذرة وعفنة. دخلا إلى الغرفة المحاذية، قد تكون حجرة للمؤن ولإعداد الأطعمة. يوجد في أرض تلك الغرفة باب أو هو بويب لمخزن أرضي مقفل بقفل ضخم مصنوع من عدة طبقات من الصفيحات الفولاذية. وقف ينظر إليه.

قال الصبي:

ـ أبي، يجب علينا أن نذهب يا أبي.

ـ ثمة سبب كامن وراء إقفال هذا الباب.

سحبه الصبي من يده. كان وشيكا من البكاء. قال:

ـ أبي.

ـ يجب أن نأكل.

ـ أنا لست جائعا يا أبي. لست جائعا.

ـ نحتاج إلى قضيب معدني أو أي شيء نخلع القفل.

خرجا من الغرفة عبر الباب الخلفي. الصبي متشبث به. دس المسدس في حزامه ووقف يجيل النظر في باحة المنزل. يوجد ممشى قرميدي وهيكل سلكي وملتوٍ لما كان فيما مضى صفا من أشجار البقس الحراجية. يوجد في البهو مسلفة حديدية قديمة تستعمل في تمهيد الأرض وتسويتها وهي مرفوعة على أعمدة من الآجر المتراكب بعضه فوق بعض. وقد أقحم أحدهم بين شفرات المسلفة مرجلا مصنوعا من حديد الزهر سعته أربعون غالونا، وهو من النوع الذي كان يستعمل في تذويب الشحوم. تحته يوجد رماد نار وقطع حطب متفحمة وقريبا من أحد جانبيه ثمة عربة صغيرة ذات عجلات مطاطية. لقد رأى كل هذه الأشياء ولم يرها. في الجانب الآخر من الباحة هناك غرفة خشبية لتدخين اللحوم والأسماك تعلوها سقيفة تحتوي على أدوات وعدد عبر الباحة وهو يكاد يسحب الصبي سحبا. وقف في برميل يعلوه سقف السقيفة وشرع يصنف العدد. أخرج رفشا ذا مقبض طويل، رفعه بيده وقال: اتبعني.

عاد إلى البيت وبدأ يقطع الخشب المحيط بالمسامير المثبتة لمشبك الباب.

أخـيرا ركز نصــل الرفش تحت المســامير وثبته بإحــكام ثم خلعها. كانت المسامير مصوملة داخل الخشب لذلك تم خلع القفل وكل ما حوله. أقحم نصــل الرفش تحت حافــة الجوانب، توقف وأخــرج ولاعته. وقف فوق مكان التقاء الرفش بمقبضه ورفع حافة البويب ثم اتكأ وأمسك به. همس الصبي:

ـ أبي.

توقف وقال:

ـ أصغ إلي وكف عن هذا، إننا نموت جوعا. هل تفهم؟

ثم رفع البويب، أزاحه ثم وضعه على الأرض خلفه وقال:

ـ انتظر هنا.

ـ إني ذاهب معك.

ـ ظننت أنك كنت خائفا.

ـ بل أنا خائف.

ـ حسنا، ابقَ خلفي وقريبا مني.

هبط الدرجات الخشــبية الخشنة بسرعة، أخفض رأسه، نقر الولاعة نقرة خفيفة، أشــعلها، وجه اللهب صــوب الظلام في طقس يشــبه طقوس تقديم القربان. برد ورطوبة ورائحة نتانة فظيعة. تشبث الصبي بمعطفه. تمكــن من رؤية جــزء من الجدار الحجري. أرضــ قرميدية فوقها فراش قــديم مبقــع وداكن اللون ربضــ في مكانه ثم هبط الــدرج من جديد. مد

يـده مقدما ضـوء الولاعة أمامـه. رأى مجموعة من الناس ذكـورا وإناثا محتشـدين عراة عند الحائط الخلفـي. كل منهم يحـاول أن يختبئ وأن يحجب وجهه بيديه. على الفراش يوجد رجل ساقاه مبتورتان من مفصلي الوركـين وقد خلفا تحتهما جدعتين متفحمتين ومحروقتين. ورائحة المكان بشعة.

ثم التفتوا واحدا تلو الآخر وهم ينظرون بعيون طارفة ومختلجة في ظل ضوء مثير للشفقة ثم همسوا: ساعدنا. نرجوك أنجدنا.

التفت وسحب الصبي سحبا وقال له: أسـرع.. أسـرع.

كان قد أسـقط الولاعة أرضا، لكن لا وقت لديه كي ينظر أين سقطت. دفع الصبي نحو أعلى الدرج. صاحوا: أنجدنا.

ـ أسـرع.

لاح وجـه ملتحٍ أسـفل الـدرج وهـو ينظر بعينـين تختلجـان وقال: أرجوك.. أرجوك.

ـ أسـرع.. بحق الله أسـرع.

دفـع الصـبي بقوة عبر البويب وجعله يتسـلق الدرج بجهد وصـعوبة. وقف، أمسك الـباب، هـزه ودفعه عاليا بعنف ثم تركه يسقط على الأرض محدثـا ضـجة داوية. التفت كـي يمسـك بالصـبي لكن الصـبي كان قد انتصـب واقـفا وبـدأ يـؤدي رقصـة الـذعر الصـغيرة الخـاصة بـه. قـال لـه بصـوت خافت: هل لك أن تأتي حبا بالله. لكن الصبي كان يشير إلى إليها أصابته القشـعريرة. كان أربعة رجـال ملتحون وامرأتان يتقدمون

عبر الحقل متجهين نحو البيت. أمسك بيد الصبي وقال: اركض.. اركض.

اندفعا بسرعة هائلة عبر البيت نحو الباب الأمامي هبطا الدرج. في منتصف الدرب الذي يصل بين البيت والطريق جرى الصبي إلى الحقل ونظر إلى الوراء. كانت الخرائب والنباتات اليابسة تحجبهما نسبيا لكنه يدرك أنه في أحسن الأحوال لديهما عدة دقائق فقط وربما لم يعد لديهما وقت على الإطلاق. عند أسفل الحقل شقا طريقهما عبر صف من قصب الخيزران الميت. وصلا إلى الطريق ثم عبراه وصولا إلى الغابات الموجودة في الجانب البعيد. أحكم قبضته على معصم الصبي أكثر وأكثر وهمس: اركض، علينا أن نركض. نظر إلى البيت لكنه لم يستطع أن يرى شيئا. إن مروا عبر الطريق الذي يصل إلى البيت فسوف يرونه يركض مع الصبي بين الأشجار. هذه هي اللحظة. هذه هي اللحظة. سقط على الأرض وسحب الصبي إليه وقال له: اصمت.. اصمت.

ـ هل سيقتلوننا يا أبي؟

ـ اصمت.

جلسا بين الأغصان والرماد وقلباهما يخفقان بشدة. أوشك أن يسعل. كان عليه أن يغلق فمه بيده، بيد أن الصبي ممسك بها ولا يريد أن يفلتها. وكان يقبض باليد الأخرى على المسدس. عليه أن يركز؛ كي يخمد نفسه وصوته وفي الوقت عينه كان عليه أن يصغي. أدار ذقنه بين الأغصان، محاولا أن يرى، همس: أبق رأسك منخفضا.

ـ هل هم آتون؟

ـ لا.

تقدما ببطء بين الأغصان نحو أرض بدت كأنها أكثر انخفاضا. اضطجع يصغي وهو ممسك بالصبي. استطاع أن يسمعهم وهم يتحدثون على الطريق. صوت امرأة. ثم سمعهم وهم عند الأغصان اليابسة. أمسك يد الصبي فجأة ووضع فيها المسدس وهمس: خذه.. خذه. روع الصبي. لف ذراعه حوله وعانقه. جسده نحيل جدا. قال له:

ـ لا تخف.

عليك أن تفعلها إن هم وجدوك. هل تفهم؟ اسكت، لا تبكِ. هل تسمعني؟ أنت تعرف كيف تفعلها. ضعه في فمك وأطلق. افعلها بسرعة وبقوة. هل تفهم؟ كف عن البكاء. هل تفهم؟

ـ أعتقد ذلك.

ـ كلا. هل تفهم؟

ـ نعم.

ـ قل: نعم أنا أفهم يا أبي.

ـ نعم أنا أفهم يا أبي.

نظر إليه فلم يرَ فيه الذعر. أخذ المسدس منه وقال:

ـ كلا، أنت لا تفهم.

ـ أنا لا أعرف ماذا أفعل يا أبي. لا أعرف ماذا أفعل. أين ستكون أنت؟

ـ حسنا.

ـ لا أعرف ماذا أفعل.

ـ اسكت. أنا هنا ولن أتركك.

ـ أتعدني؟

ـ نعم أعدك. كنت عازما على الركض؛ كي أحملهم على ملاحقتي من غير أن يفكروا. بيد أني لا أستطيع أن أتركك.

ـ أبي.

ـ اسكت وابق في الأسفل.

ـ أنا خائف جدا.

ـ اسكت.

اضطجعا منصتين، أو تستطيع أن تفعلها؟ متى يحين الوقت؟ عندما يحين الوقت لن يكون هناك وقت. الوقت هو الآن. ماذا لو لم تنطلق الرصاصة؟ يجب أن تنطلق. ماذا لو لم تنطلق؟ هل تستطيع أن تهشم هذه الجمجمة العزيزة بصخرة؟ هل يوجد هكذا كائن في داخلك وأنت لا تعرف عنه شيئا؟ هل يمكن أن يكون موجودا؟ احضنه بين ذراعيك. تماما هكذا. الروح سريعة. ضمه إليك. قبله وبسرعة. انتظر. المسدس الصغير المطلي بالنيكل موجود في قبضته. أوشك أن يسعل فركز كل انتباهه على كبح السعال. حاول أن ينصت لكنه لم يستطع أن يسمع شيئا. همس: لن أتركك، لن أتركك أبدا. هل تفهم؟ استلقى بين الأغصان واحتضن الصبي الذي كان يرتعد. المسدس في يده وهو يحكم قبضته عليه. طوال زمن الفسق الطويل وظلمة الليل البارد الذي لا نجوم فيه شعر بأنه ينعم بسعادة روحية، بدأ يشعر بأن لديهما فرصة.

همس: علينا أن ننتظر. البرد شديد. حاول أن يفكر لكن رأسه كان يدور ولم يكن قادرا على التركيز. كل حديثه عن الركض، لكنه لا يستطيع أن يركض.

عندما أمسى الظلام من حولهما دامسا فك أربطة الحقيبة وأخرج منها البطانيات ثم غطى الصبي الذي نام بعد وقت قصير.

سمع، ليلا صرخات شنيعة قادمة من المنزل، فحاول أن يضع يديه على أذني الصبي وبعد برهة توقف الصراخ. استلقى منصتا، عندما كان قادما إلى الطريق عبر أجمة القصب رأى صندوقا؛ شيئا يشبه مبنى صغيرا يتخذ ملعبا للأطفال. استطاع التعرف على مكانه وهو الموقع الذي كانا جاثمين عليه يراقبان الطريق.

كامنون ويقرعون جرس البيت كي يأتي رفاقهم. نام نوما خفيفا ثم صحا. ما الذي يأتي؟ وقع خطى فوق الأغصان. كلا إنها الرياح. لا يوجد شيء. جلس منتصبا ونظر صوب البيت، فلم ير إلا الظلام. هز الصبي حتى استيقظ وقال له: تعال، يجب أن نذهب. لم يجب الصبي لكنه أدرك أنه قد أفاق.

سحب البطانيات وهي على حالها دون أن يطويها وحزمها مع الحقيبة همس: تعال.

شرعا بالمسير عبر الغابات المظلمة. القمر موجود في مكان ما خلف دثار من الغيوم الرمادية التي تحجب السماء؛ لذلك استطاعا أن يميزا الأشجار فقط ولا شيء سواها. كانا يتمايلان ويترنحان كما السكارى.

ـ إن يجدونا يقتلونا. ألن يفعلوا يا أبي؟

ـ اسكت. لا أريد مزيدا من الكلام.

ـ ألن يفعلوها يا أبي؟

ـ اصمت. بلى، نعم سيفعلونها.

ليس لديه فكرة عن الاتجاه الذي يمكن أن يكونا سائرين فيه وكان خوفه أن يدورا حول المكان عائدين إلى البيت نفسه.

حاول أن يتذكر إن كان يعلم أي شيء عن ذلك أم أن الأمر مجرد خرافة. ترى إلى أي اتجاه يميل الرجال الضائعون. ربما تغير الحال مع الخرائط التي تمثل نصف الكرة الأرضية. أخيرا طرد الفكرة من رأسه. الفكرة الموجودة هناك يمكن أن تكون أي شيء قابل للتعديل. عقله يخدعه ويضلله. أشباح وأوهام لم يسمع بها منذ ألف سنة تنهض ببطء من سباتها. عدل هذه الفكرة.

كان الصبي يتمايل على قدميه وطلب منه أن يحمله، فقد بات يمشي فيتعثر ويحكي فيتلعثم. حمله الرجل فاستغرق بالنوم من فوره؛ نام على كتفه. إنه يدرك أنه لا يستطيع أن يحمله مسافة بعيدة.

كان نائما على الأغصان في الغابة الغارقة بالظلام. استيقظ وهو يرتجف ارتجافا عنيفا. جلس منتصبا ومد يديه حوله؛ كي يتحسس الطفل فوقعت يده على أضلاعه النحيلة. الدفء والحركة. دقة القلب.

عندما استيقظ للمرة الثانية كان الضوء يكفي للرؤية. أزاح عنه البطانية ونهض فسقط أو كاد. ثبت نفسه وحاول أن يتبين ما حوله في

الغابات. ترى ما هي المسافة التي قطعاها؟ سار نحو قمة تلة حيث جلس وشاهد النهار وهو يحتشد. الفجر الخجول الضنين بالضياء والعالم البارد المكفهر. وبدت له من بعيد غابة صنوبر عارية ومتفحمة. عالم هجرته الألوان وأعلن الحداد. عاد، أمسك الصبي وأجلسه. ما انفك عقله يتوثب إلى الأمام. قال يجب أن نذهب، يجب أن نذهب.

حمله عبر الحقل وكان يتوقف؛ طلبا للاستراحة بعد كل خمسين خطوة معدودة. عندما وصل إلى غابة الصنوبر جثا على ركبتيه، أنزل الصبي ومدده فوق تربة الغابة الرملية التي أوشكت أن تتعفن. غطاه بالبطانيات وجلس ينظر إليه. بدا وكأنه شيء خارج من معسكر موت، يكاد يموت جوعا، منهك القوى، مريض ويسكنه الخوف. انحنى عليه، قبله، نهض ومشى حتى بلغ نهاية الغابات ثم دار حول المكان دورة أحاطت به؛ حتى يستبين ما إذا كانا في مأمن.

عبر الحقول الممتدة على طريق الجنوب استطاع أن يرى مبنى على شكل منزل وآخر على هيئة مستودع للحبوب. يبدو من خلف الأشجار منعطف الطريق. درب طويل يكسوه عشب ميت. لبلاب معترش على طول جدار حجري، صندوق بريد وسياج على طول الطريق خلفه أشجار ميتة. البرد يعم المكان والصمت يسوده ويلفه ضباب متفحم. قفل عائدا وجلس جانب الصبي. اليأس هو ما أدى به إلى هذا الحد من اللامبالاة، لكنه يدرك ألا يستطيع أن يتصرف على هذا النحو من جديد مهما كانت الحال.

لم يستيقظ الصبي منذ ساعات ومتى أفاق تملكه الذعر. لقد حدث له ذلك فيما مضى. فكر في إيقاظه، لكنه يدرك أنه لن يتذكر شيئا إن فعل.

لقد دربه كيف يستلقي في الغابات وكأنه ولد ظبي. لكن إلى متى؟ أخيراً أخذ المسدس من حزامه ووضعه تحت البطانيات إلى جانبه ونهض؛ ليشرع بالمسير.

أتى إلى مخزن الحبوب من التل الذي يشرف عليه. توقف ليرى وينصت. شق طريقه نزولا عبر خرائب كانت بستانا للتفاح. ما بقي منه الآن جذوع مشوهة ومتفحمة. غاص حتى ركبتيه في الأعشاب الميتة. وقف عند باب مستودع الحبوب وأنصت. ضوء مضلع شاحب. مشى بمحاذاة مرابط للخيل يكسوها الغبار. وقف في مركز المستودع وأصغى لكنه لم يسمع صوتا. اعتلى الدرج إلى الدور العلوي وكان ضعيفا لدرجة لم يكن واثقا معها أنه قادر على إتمام الصعود حتى النهاية. مشى حتى بلغ نهاية الدور العلوي. نظر عبر النافذة العالية في المبنى الجملوني إلى الريف من حوله: الأرض المرقعة ميتة ورمادية، السياج والطريق.

توجد بالات من التبن في الدور العلوي. جلس القرفصاء وانتقى حفنة من حبوب التين وجلس يمضغها. قاسية وجافة ويعلوها الغبار. عليهما أن يحتفظا بشيء من الغذاء. نهض ودحرج بالتين على الأرض وتركهما تسقطان على أرض المستودع. سمع صوت ارتطامهما متزامنا مع غبار علا منهما. عاد إلى الجملون ووقف يتفحص ما استطاع أن يراه من البيت القائم خلف زاوية المستودع ثم عاد أدراجه عبر الدرج.

يبدو أن العشب المنتشر بين المنزل والمستودع لم يطأه أحد. عبر المكان قاصدا الرواق الذي كان يغطيه العفن. دراجة طفل هوائية. باب المطبخ مفتوح، اجتاز الرواق ووقف عند المدخل. المطبخ مزين بألواح من خشب

متجعد ورطب وهو من النوع الرخيص. دخل إلى الغرفة وقد تلاشت قواه وأوشك أن ينهار. توجد طاولة فورميكا حمراء. عبر الغرفة وفتح باب الثلاجة. ثمة شيء موضوع على أحد الأرفف، طبقة من العفن رمادية اللون. أغلق الباب. نفايات في كل مكان. تناول مكنسة من الزاوية وأخذ ينكش بمقبضها النفايات. اعتلى طاولة طويلة وشرع يتحسس طريقه عبر الغبار المتراكم وصولا إلى السطح العلوي للخزائن. مصيدة فئران. علبة تحتوي على شيء لا يعرفه. أزاح الغبار عنها فإذا هي علبة مسحوق بنكهة العنب يستعمل في تحضير مشروبات. وضعها في جيب معطفه.

جال في المنزل ودخل الغرفة الموجودة فيه الواحدة تلو الأخرى. لم يعثر على شيء. وجد ملعقة في درج ملحق بسرير فوضعها في جيبه. اعتقد أنه سيجد بعض الملابس في خزانة أو بعضاً من مستلزمات الفراش. خاب ظنه. عاد، خرج من المنزل ودلف إلى مرآب السيارات. بدأ يصنف العدد: أدوات لتقليب التربة وتسويتها، رفش، مرطبانات موضوعة على الرف تحتوي على مسامير وبراغي إضافة إلى قطاعة علب؛ أدناها من الضوء، نظر إلى نصلها الصدئ. ثم أعادها إلى مكانها وعاد فالتقطها من جديد. فك النصل القديم، وضعه على الرف واستبدله بآخر جديد ثم ثبت المقبض على النصل ووضع القطاعة في جيبه. التقط المقبض ووضعه في جيبه.

عاد إلى المستودع. لديه قطعة من قماش اعتزم استعمالها في التقاط حبات من التبن الموجود في البالة بيد أنه عندما عاد إلى المستودع توقف ينصت إلى صوت الرياح. صوت صرير صفيح صادر عن السقف من فوقه. ما تزال عالقة في المستودع رائحة لأبقار كانت فيه. توقف في مكانه يفكر في الأبقار فأدرك أن جنس البقر قد انقرض. هل هذا صحيح؟ هل يحتمل

وجود بقرة في مكان ما تطعم ويعتنى بها؟ أممكن هذا؟ تطعم ماذا؟ ولماذا يعتنى بها؟ خلف الباب المفتوح تمر الرياح عبر العشب الميت فيسمع صريفها جافا. خرج من المستودع ونظر عبر الحقول نحو غابة العنب حيث ترك الصبي نائما. سار عبر البستان وتوقف من جديد. لقد داس على شيء. خطا خطوة إلى الوراء، جثا على ركبتيه وباعد بيديه ما بين الأعشاب. إنها تفاحة. التقطها وقربها من الضوء. قاسية، بنية اللون وذاوية. مسحها بقطعة قماش وعض منها قطعة؛ جافة. تكاد تكون بلا طعم، لكنها تفاحة. أكلها كلها بقشرتها وبذورها. أمسك سويقتها بين إبهامه والسبابة وتركها تسقط. ثم مشى بين الأعشاب يدوس عليها برفق. مازالت قدماه ملفوفتين بقطع من المعطف ومزق من الغطاء. جلس، فك وثاقهما، وضع الأربطة في جيبه ومشى حافي القدمين. في الوقت ذاته كان قد وصل إلى عمق البستان حيث عثر على أربع تفاحات أخرى، وضعها في جيبه وقفل عائدا. سار في دروب البستان؛ مر بها دربا فدربا إلى أن وطئت قدمه بين الأعشاب ما ليس يدري ما هو. تجمع لديه من التفاح ما لا طاقة له بحمله. تحسس الفراغات المحيطة بالجذوع. ملأ جيوبه، وضع تفاحا على طوله. ألقى كل ما معه من تفاح عند باب مستودع الحبوب جاعلا منه كومة وجلس يلف قدميه الخدرتين المتبلدتين بسبب البرد القارس.

في غرفة مبنية بالطين وملحقة بالمطبخ رأى سلة قديمة مصنوعة من أغصان صغيرة لدنة مجدولة مملوءة بأوعية زجاجية منزلية حابسة للهواء. سحب السلة، وضعها على الأرض وفرغها من الأوعية الزجاجية. قلبها وأزال عنها الأوساخ ثم توقف. ما الذي رآه؟ إنه أنبوب تصريف وتعريشة. تعريشة ملتفة لكرمة ميتة؛ تشكيلها يشبه خطا بيانيا

لمؤسسة تجارية. وقف، عاد إلى المطبخ ومنه إلى الفناء حيث وقف ينظر إلى المنزل. النوافذ تعكس نهارا رماديا وقبيحا. أنبوب التصريف يمتد وصولا إلى زاوية الرواق. ما زال يحمل السلة، وضعها على الأرض وصعد الدرج من جديد. يمر الأنبوب من تحت عمود الزاوية ويدخل في خزان إسمنتي. أزال ما كان على غطائه من نفايات وعفن. عاد إلى المطبخ، أحضر مقشة وكنس الغطاء حتى صار نظيفا. وضع طرف المقشة في الزاوية ورفع الغطاء عن الخزان. يوجد داخله صينية مملوءة برواسب طينية رمادية رطبة ممزوجة بخليط من الأغصان والأماليد الميتة. رفع الصينية، أخرجها من الخزان ووضعها على الأرض. وجد تحتها حصباء بيضاء اللون. قلب الحصى بيده وفرغ المكان منه فظهرت طبقة من الفحم النباتي وقطع محروقة من أعواد وأغصان كاملة هي مجسمات كربونية متفحمة للأشجار ذاتها أعاد الصينية. يوجد في الأرض حلقة شد نحاسية خضراء. مد يده، تناول المقشة ونظف المكان من الرماد. نظف الجوانب والحواف، جثا على ركبتيه، جعل أصابعه على شكل كلاب، أدخلها بحلقة الشد وأدارها على محورها ثم فتح الباب. يوجد في القاع المظلم حوض مملوء بمياه شديدة العذوبة لدرجة استطاع معها أن يميزها بواسطة الشم دون أن يذوقها. تمدد واضعا بطنه على الأرض ومد يده إلى الماء فلامست أصابعه صفحة الماء. تقدم إلى الأمام ومد يده من جديد. ملأ كفه بالماء، شمه، ذاقه ثم شرب. قضى وقتا طويلا وهو يمد كفه إلى الماء، يملأ راحة اليد منه ثم يشرب. ليس في ذاكرته عن كل الأشياء والأمكنة ما هو بهذا القدر من الطيب واللذة.

عاد إلى الغرفة الطينية الملحقة بالمطبخ وأتى بمرطبانين ووعاء معدني قديم مطلي بلون أزرق. مسح الوعاء، ملأه بالماء ثم غسل به المرطبانين.

ثم غطس أحـد المرطبانين حتى امتلأت ثم رفعها والماء يقطر منها. كان الماء صـافيا، قربه من الضـوء؛ لا يوجد فيه رسـابات خلا قطعة صغيرة من الأنبوب الغاطس بالماء. أمال المرطبان وشرب. شرب ببطء لكنه أتى على معظم ما فيه من ماء. جلس حيث هو وقد انتفخت معدته. يسـتطيع أن يشـرب المزيد لكنه لم يفعل. صب ما تبقى من ماء في المرطبان الآخر ثم شـطفه، ملأهما معا ووضع الغطاء الخشبي فوق الحوض. نهض وقد امتـلأت جيوبـه تفاحا. حمل مرطبـاني الماء وخرج إلى الحقول قاصـدا غابة العنب.

لقد غاب وقتا أطول مما كان يعتزم، فأسـرع وحث الخطى ما استطاع إلى ذلك سبيلا. الماء يهتز ويقرقر في معدته المنكمشة المتقلصة. جلس كي يأخذ قسـطا من الراحة ثم اسـتأنف المسـير من جديـد. عندما عاد إلى الغابـات لم يبدِ الصـبي أي نوع مـن الإثارة أو الاهتمـام. جثا على ركبتيه وضـع مرطباني الماء على الأرض بعناية وحذر. أخذ المسـدس، وضـعه في حزامه وجلس ينظر إلى الصبي.

أمضـيا الظهـيرة وما بعدهـا جالسـين يـأكلان التفاح وهمـا ملتفان بالبطانيات ويرشـفان الماء رشـفا. أخرج من جيبه العلبة التي تحتوي على المسـحوق المنكـه بنكهة العنب، صـب محتواه في المرطبـان، حركه ومزجه بالماء ثم قدمه للصبي. قال الصبي: لقد فعلت حسناً يا أبي.

نام الرجل بينما واظب الصبي على النظر إليه. عندما هبط المساء انتعلا حذاءيهمـا، ثم ذهبا إلى البيت الموجـود بالمزرعة فجمعا ما تبقى من تفاح.

صبا الماء في مرطبانات ثلاثة حتى أترعاها. لف كل الأشياء التي بحوزته ببطانية ووضعها في الحقيبة، ثم لف كل البطانيات الأخرى، ربطها، وضعها فوق الحقيبة، ورفع الحقيبة فوق كتفه. وقفا عند الباب يراقبان الضوء وهو ينسحب من جهة الغرب ويرخي الستار على العالم ثم يمما شطر الطريق من جديد عبر الممر الذي يصل ما بينه وما بين البيت.

أمسك الصبي بمعطفه بينما مضى هو نحو حافة الطريق محاولا في غمرة الظلام أن يتحسس بقدميه الطريق المرصوفة. سمع صوت صاعقة يسعى إليهما من مكان بعيد وما هي إلا لحظات حتى أضاءت السماء فوقهما إضاءات ضعيفة باهتة.

أخرج الغطاء البلاستيكي من الحقيبة لكن ما تبقى منه لا يكفيهما ولا يقيهما. بعد برهة بدأ هطل الأمطار. سارا متلاصقين جنبا إلى جنب فكانا يتعثران وتزل بهما أقدامهما. ليس ثمة مكان يأويان إليه. كان كل منهما قد غطى رأسه بقلنسوة معطفه. لكن المعطفين تبللا بالأمطار وثقلا وزنا. توقف محاولا إعادة ترتيب الغطاء. بدأ الصبي يرتجف بشدة وترتعد أوصاله بردا.

ـ إنك تتجمد. أليس كذلك؟

ـ بلى.

ـ إن نتوقف يشتد البرد علينا.

ـ أنا الآن أعاني من البرد فعلا.

ـ ماذا تريد أن تفعل؟

ـ ألا نستطيع أن نتوقف؟

ـ حسنا. بلى، نستطيع أن نتوقف.

كانت ـ فيما يذكر ـ ليلة ليلاء طويلة؛ واحدة من الكثرة الكثيرة من مثيلاتها من الليالي. اضطجعا جانب الطريق فوق الأرض الرطبة المبللة وتحت البطانيات، والأمطار تهطل فوق الغطاء فتخلف أصواتا مزعجة ومتتالية. عانق الصبي فهدأ ارتجافه بعد برهة ثم نام بعدها. تدحرجت الصاعقة جهة الشمال ثم تلاشت ولم يبقَ سوى المطر. نام واستيقظ. تراخى المطر ثم توقف الهطل. تساءل: ترى هل الوقت قريب من منتصف الليل؟ انتابته نوبة سعال واشتدت عليه لدرجة أيقظت معها الصبي. كان قد دخل وقت الفجر منذ زمن طويل، كان ينهض من وقت لآخر وينظر جهة الشرق وبعد برهة طلع النهار.

لف معاطفهما الواحد تلو الآخر حول جذع شجرة صغيرة وفتلها مخرجا منها المياه. جعل الصبي يخلع ثيابه ولفه بإحدى البطانيات، وبينما كان الصبي واقفا يرتجف عصر المياه من ثيابه وأعادها إليه. كانت الأرض حيث كانا نائمين قد جفت، جلسا عليها وجعلا البطانيات فوقهما وهما يأكلان من التفاح ويشربان الماء، ثم شرعا بالمسير على الطريق من جديد. يسقطان فجأة ثم ينهضان وكل منهما غطى رأسه بقلنسوته، ترتعد أوصالهما من شدة البرد وليس على جسديهما سوى أسمال بالية. مثلهما في ذلك مثل الإخوة المتسولين الذين يطلقون؛ بحثا عن أقوات يومهم.

كانت ثيابهما قد جفت مساء. تفحصا الخارطة الممزقة ولكن لم تكن لديه فكرة بسيطة عن الموقع الذي هما فيه. وقف فوق مرتفع واقع على الطريق وحاول أن يحدد موقعهما واتجاههما في ظل ضوء الشفق ساعة

الغروب. تركا المرتفع وسلكا طريقا ضيقة عبر الريف أدت بهما إلى جسر، ثـم إلى جدول مـاء قد جفت ينابيعه. سـارا ببطء بمحاذاة ضـفته وحطا رحالهما تحت ضفة الجدول مباشرة. قال الصبي:

ـ هل نستطيع أن نضرم نارا؟

ـ ليس معنا ولاعة.

أشاح الصبي بوجهه عنه.

ـ أنا آسف أسقطتها ولم أرغب في إخبارك.

ـ حسنا.

ـ سوف أجد لنـا مقدحا لإخراج النار. كنت دائمـا أنظر حولي؛ بحثا عن شيء كهذا، وما تزال لدينا تلك الزجاجة الصغيرة من البنزين.

ـ حسنا.

ـ هل تشعر ببرد شديد؟

ـ لا بأس علي.

تمدد الصبي واضعا رأسه في حضن أبيه، وقال:

ـ بعد وقت قصير سيقدمون على قتل أولئك الناس. ألن يفعلوا؟

ـ بلى سيقتلونهم.

ـ لماذا عليهم أن يقتلوهم؟

ـ لا أعرف.

ـ هل سيأكلونهم؟

ـ لا أعرف.

ـ سوف يأكلونهم. أليس كذلك؟

ـ نعم.

ـ ونحن لم نستطع أن نمد لهم يد العون؛ لأننا لو فعلنا لكانوا أكلونا معهم.

ـ نعم.

ـ ولهذا السبب لم نستطع أن نساعدهم.

ـ نعم.

ـ حسناً.

مرا ببلدات كانت تحذر الناس وتنبههم عبر رسائل مكتوبة في عجالة على لوحات إعلانية. تلك اللوحات مطلية بطبقات من الدهان الأبيض، وذلك لغرض الكتابة عليها. الدهان يشف عن كتابات خلفه تبدو شاحبة، وفيها إعلانات عن البضائع التي لم يعد لها وجود. جلسا جانب الطريق وأكلا آخر ما تبقى معهما من تفاح.

قال الرجل:

ـ ما هذا؟

ـ لا شيء.

ـ سنجد شيئاً نأكله. كنا دائما نجد ما نأكله.

لم يجب الصبي، بينما كان الرجل ينظر إليه.

ـ ليس هذا كل ما يشغل فكرك. أهذا كل شيء؟

ـ حسناً.

ـ أخبرني.

أشاح الصبي بوجهه عنه ونظر إلى الطريق.

ـ أريد منك أن تخبرني. هل هذا يناسب؟

هز رأسه.

قال الرجل:

ـ انظر إلي.

أدار وجهه ونظر إليه. بدا وكأنه كان يبكي.

ـ فقط أخبرني. هذا كل ما أريده منك.

ـ لن نأكل أحدا من البشر أبدا. أليس كذلك؟

ـ لا. طبعا لا.

ـ حتى وإن عانينا من مجاعة.

ـ نحن نعاني من المجاعة الآن.

ـ قلت لي: إننا لسنا كذلك.

ـ قلت: إننا لسنا نحتضر ولم أقل: إننا لا نعاني من مجاعة.

ـ لكننا لن نفعل.

ـ مهما كلفنا الأمر.

ـ نعم، مهما كلفنا الأمر.

ـ لأننا أناس طيبون.

ـ نعم.

ـ ونحن نحمل النار.

ـ ونحن نحمل النار. نعم.

ـ حسناً.

عثر في أحد الخنادق على حجر قداحة مفتت أو على حجر صواني. لكن في نهاية الأمر كان أسهل عليه أن يمرر الكماشة التي بحوزته على طرف صخرة تمسها مسا خفيفاً، بحيث تقدح شررا، وقد جعل أسفل الصخرة كومة من الصوفان السريع الاشتعال وصب عليها شيئا من البنزين. بعد يومين ثم بعد ثلاثة أيام كانا يعانيان من الجوع بكل ما في الكلمة من معنى، وكان الريف قد تعرض للسلب والنهب والإتلاف والتخريب واختلطت الأوراق فيه. الليالي كانت شديدة البرودة وحالكة الظلام ويسودها صمت رهيب بانتظار الصباح البعيد المنال. تماما كما الفجر الذي يسبق المعركة. بشرة الصبي الملونة بلون الشمع، فضاع لونها. وقد جعلته عيناه الواسعتان المحدقتان يبدو غريبا ومختلفا.

بدأ يعتقد أن الموت قد أمسى قريبا جدا منهما وبأن عليهما أن يبحثا عن مكان يختبئان فيه ولا يصل أحد إليه. مرت عليه أوقات كان يراقب خلالها الصبي وهو نائم ثم يجهش بالبكاء ويتنهد إلى حد يفقد معه السيطرة على نفسه. لكن لم يكن الموت هو الباعث على بكائه. لم يكن واثقا من سبب البكاء، لكنه كان يظن أن المحرض عليه هو الجمال أو الطيبة. وهي أمور لم يعد أمامه من سبيل كي يفكر فيها. جلسا في غابة جرداء وشربا ماء من حفرة بعد أن صفياه بتمريره عبر قطعة من أسمال بالية. رأى الصبي ـ في الحلم ـ صريعا ومسجى فوق لوح تبريد. استيقظ مذعورا. ما يستطيع أن يتحمله في أثناء اليقظة ليس له قبل به ليلا. لم يعد إلى النوم؛ مخافة أن يعاوده الحلم.

دخلا بيوتا أمست خرائب محترقة ولم يكونا قد دخلاها من قبل. بحثا بين أنقاضها بأصابعهما؛ علهما يجدان فيها شيئا. ثمة جثة طافية على سطح مياه سوداء اللون في أحد الأقبية وسط القمامة وأنابيب المجاري الصدئة. وقف في غرفة جلوس محترقة جزئيا وسقفها متهدم. جوانب الغرفة مشبعة بالمياه ومائلة نحو الفناء. خزانة فيها كتب مبللة ورطبة. تناول كتابا، فتحه ثم أعاده إلى مكانه. كل الأشياء رطبة ونتنة. فتح درجا فوجد شمعة لكن لا سبيل لإشعالها. وضعها في جيبه. خرج من المنزل، مشى في ظل ضوء رمادي ثم توقف. رأى وأدرك في لحظة خاطفة حقيقة العالم المطلقة: القسوة الباردة تهيمن على كوكب الأرض الذي مات قبل أن يكتب وصيته. ظلام عنيد حقود لا يعرف الصفح. كلاب الشمس العمياء تطوف. خواء الكون الأسود الساحق. وفي مكان مجهول من العالم يوجد حيوانان طريدان يرتجفان كأنهما ثعلبان من ثعالب الأرض يلفهما غطاء. وقت مسروق في عالم مستعار وعيون هي الأخرى مستعارة وجدت كي تحزن وتأسى.

جلسا في حجرة قيادة سيارة شاحنة متوقفة في أحد أطراف بلدة صغيرة، وذلك طلبا للراحة. مكثا يحدقان بما يحيط بهما عبر زجاج السيارة الذي غسلته الأمطار التي انهمرت مؤخرا فأضحى نظيفا. كانا منهكين وحولهما غلاف خفيف من الرماد. انتصبت على جانب الطريق لافتة أخرى تحذر من الموت وهي مكتوبة بحروف بهت لونها وتضاءل وضوحها وذلك بفعل تقادم السنين عليها. أوشك أن يبتسم وقال:

ـ هل تستطيع أن تقرأ هذه؟

ـ نعم.

ـ لا تعر هذا الكلام أي اهتمام لا يوجد أحد هنا.

ـ هل صاروا في عداد الأموات؟

ـ أعتقد ذلك.

ـ أتمنى لو أن ذاك الصبي الصغير كان معنا.

قال:

ـ دعنا نذهب.

الأحلام الفنية الآن التي كان يكره أو يصحو منها. أشياء لم تعد معروفة في العالم. دفعه البرد إلى إذكاء النار بمقدار جديد من الحطب. ذكراها وهي تجتاز المرجة المخضرة في الصباح الباكر ميممة شطر المنزل، وهي ترتدي ثوبها الوردي الرقيق الذي يضيق عند الصدر ويلتصق به مظهرا جماله. إنه يعتقد أن كل ذاكرة يتم استدعاؤها لا بد من أن تمارس شيئا من العنف على أصولها. كما هو الحال في لعبة الحفل: قل كلمتك.. مررها وكن مقتصدا ما يتبدل في الذاكرة تبقى له حقيقته في الواقع؛ سواء أكان معروفا أم لم يكن كذلك.

عبرا الشوارع ملتفين بالبطانيات القذرة. أبقى المسدس على خصره وأمسك يد الصبي. عند أقصى نقطة متطرفة من البلدة مرا ببيت منعزل قائم وسط حقل. عبرا الحقل، دخلا البيت وجالا على الغرف، وقد فوجئا برؤية نفسيهما في مرآة. أوشك الرجل أن يشهر مسدسه لولا أن الصبي قال له هامسا: هؤلاء هم نحن يا أبي. أنت وأنا.

وقف عند الباب الخلفي ونظر إلى الحقول وإلى الطريق التي خلفها وإلى الريف الأجرد الممتد خلف الطريق. في ركن من فناء المنزل يوجد

مشواة لشي اللحوم، مصنوعة من برميل بحجم خمسة وخمسين غالونا. البرميل مقطوع على طوله ومزود بمشعل كهربائي وهو موضوع على إطار من الحديد ومثبت عليه بالتلحيم. الفناء محاط بسياج وفيه عدد من الشجرات الميتة وفيه سقيفة تحتوي على عدد معدنية. خلع البطانية ولف كتف الصبي بها.

ـ أريدك أن تنتظر هنا.

ـ بل أريد أن أذهب معك.

ـ أنا ذاهب إلى هناك فقط وذلك كي ألقي نظرة. ما عليك إلا أن تجلس هنا. سوف تتمكن من رؤيتي طوال الوقت ولن أغيب عن ناظريك. إني أعدك بذلك.

اجتاز الفناء ودفع الباب دفعا ففتحه والمسدس ما زال في يده. إنها سقيفة ملحقة بحديقة. أرضها قذرة وهي تحتوي على أرفف معدنية عليها أوعية بلاستيكية تزرع فيها الرياحين عادة. كل شيء فيها مغطى بالرماد. يوجد فيها أيضا عدد تستعمل في خدمة الحدائق وهي موضوعة في الزاوية ومعها مِجَزُّ عشب. ثمة مقعد طويل تحت النافذة وإلى جانبه خزانة معدنية، فتحها فوجد فيها بيانات بضائع مصورة قديمة، علب بذار وعشبة البغونيا الاستوائية ونبتة الصباح؛ وضعها كلها في جيبه. ولكن ما حاجته بها. يوجد على الرف العلوي علبتا زيت محرك. وضع المسدس في حزامه ومد يده وتناولهما ثم وضعهما على المقعد الطويل. كانتا قديمتين جدا ومصنوعتين من الورق المقوى وعليهما غطاءان معدنيان. تخلل الزيت الورق المقوى ونفذ منه لكن يبدو أن العلبتين ما تزالان مملوءتين. تراجع إلى الوراء ونظر عبر الباب إلى خارج المنزل. كان الصبي جالسا على

درجات السلم الخلفي في البيت يراقبه وهو مدثر بالبطانيات. عندما التفت رأى علبة وقود عند الزاوية الواقعة خلف الباب. أدرك أنه لا يمكن أن يكون بها وقود الآن. أمالها بقدمه وتركها تسقط على الأرض فسال منها سائل خفيف. التقطها ووضعها على المقعد، حاول أن يفك الغطاء فلم يفلح. أخرج الكماشة من جيب معطفه، باعد ما بين فكيها، أمسك بها الغطاء وأداره يمنة ويسرة ثم نزع الغطاء ووضعه على المقعد. شم العلبة؛ رائحة عفنة. لقد تقادمت عليها السنون لكنه وقود بنزين ما زال قابلا للاشتعال. أعاد الغطاء إلى العلبة وأحكم إغلاقها ثم وضع الكماشة في جيبه. نظر حوله بحثا عن علبة أصغر حجما لكنه لم يعثر على شيء. لم يكن ينبغي له أن يرمي الزجاج. فتش المنزل.

عندما كان يسير بين الأعشاب شعر بشيء من الإغماء فتوقف. ترى هل كان استنشاقه لرائحة البنزين هو سبب الدوار الذي أصابه؟ كان الصبي يراقبه. كم يوما يفصلهما عن الموت؟ عشرة أيام، ليس أكثر من ذلك بكثير. إنه عاجز عن التفكير. لماذا توقف عن المسير؟ التفت ونظر إلى العشب. رجع إلى الوراء يتحسس الأرض ويتفحصها بقدميه. وقف واستدار ثانية ثم رجع متجها إلى السقيفة ثم عاد يحمل رفشا من النوع الذي يستخدم في الحديقة. غرز نصل الرفش في المكان الذي توقف به فمضى شطره في التراب ثم توقف وإذ ذاك سمع صوت ارتطامه بجسم خشبي أجوف. بدأ يجرف الأوساخ ويزيحها.

كان يعمل ببطء؛ كم هو متعب. اتكأ على الرفش. رفع رأسه ونظر إلى الصبي، فرآه جالسا حيث تركه. كان يستريح كلما ملأ رفشا وأفرغه. ما استطاع أن يكشف النقاب عنه، أخيرا كان قطعة من الخشب مغطاة بطبقة

لباد. أزاح التراب عن حواف الخشبة بواسطة الرفش فاتضح أنها عبارة عن باب طوله نحو ستة أقدام وعرضه ثلاثة أقدام. في أحد طرفي الباب يوجد مشبك وقفل مغلف بكيس بلاستيكي. أخذ قسطا من الراحة وهو ممسك بالقفل وقد جعل جبهته فوق ذراعه. عندما رفع رأسه كان الصبي واقفا في الفناء ولا يبعد سوى بضعة أقدام. كان شديد الخوف. همس:

ـ لا تفتحه يا أبي.

ـ حسنا.

ـ أرجوك يا أبي.. أرجوك.

ـ حسنا.

ـ كلا، هذا ليس بحسن.

وضع قبضته على صدره وبدأ يرتعد من شدة الخوف. رمى الرجل الرفش وأحاط الصبي بذراعيه، وقال:

ـ تعال نجلس بالرواق ولنأخذ قسطا من الراحة.

ـ هل نستطيع أن نذهب بعد ذلك؟

ـ تعال نجلس قليلا.

ـ حسنا.

جلسا مدثرين بالبطانيات، ينظران إلى الفناء. بقيا جالسين زمنا طويلا. حاول أن يفهم الصبي أنه لا يوجد أحد مدفون بالفناء. لكن الصبي كان يبكي. بعد برهة بدأ يعتقد أن الصبي ربما كان على حق.

ـ دعنا فقط نجلس حتى من غير أن نتكلم.

ـ حسنا.

جالا في البيت من جديد. وجد زجاجة جعة وقطعة قماش قديمة ممزقة من ستارة. مزق طرف القماش وأقحمه في عنق الزجاجة وذلك بواسطة حمالة معطف وقال:

ـ هذا هو مصباحنا الجديد.

ـ كيف نستطيع أن نجعله يضيء؟

ـ وجدت في السقيفة شيئا من البنزين وبعض الزيت. سوف أريك.

ـ حسنا.

قال الرجل:

ـ تعال. كل شيء سيكون على ما يرام. هذا وعد مني.

عندما انحنى وأدخل رأسه تحت البطانية؛ ليرى وجه الصبي أدرك أن صحته قد تدهورت لدرجة لا يمكن تقويمها أو التعافي منها.

غادرا المنزل واتجها إلى السقيفة مرورا بالفناء. وضع الزجاجة على المقعد وتناول مفك براغي. فتح في غطاء إحدى علبتي الزيت ثقبا كبيرا وآخر أصغر منه وذلك كي يسهل عملية سيلان الزيت وتفريغه. سحب الفتيل من الزجاجة وصب فيها زيتا حتى امتلأ نصفها. زيت قديم، ثقيل وشديد البرودة؛ لذلك استغرق صبه زمنا طويلا. فتح علبة البنزين، مزق قصاصة ورق من إحدى علب البذار، صب شيئا من البنزين في الزجاجة وسد فتحتها بإبهامه ثم رجها. صب بعد ذلك شيئا من محتوى الزجاجة، مستعملا مفك البراغي لهذا الغرض. أخرج قطعة من حجر القدح من جيبه. باعد ما بين فكي الكماشة وحك حجر القدح بفكها المسنن. ثم أعاد الكرة من جديد. توقف وصب شيئا من البنزين في صحن الفخار،

وقال: من المحتمل أن تشتعل وتتوهج. هز الصبي رأسه. أطلق شيئا من الشرر فوق الصحن فمس ما فيه مسا خفيفا. هب لهب وردي من الصحن متزامنا مع سماع صوت انفجار خفيف.

تناول الزجاجة، أمالها، أشعل فتيلها، أطفأ لهب النار المشتعل بالصحن ثم ناول الزجاجة التي كانت تنفث دخانا إلى الصبي، وقال له: هذه هي؛ خذها.

ـ ماذا سنفعل؟

ـ ضع يدك أمام اللهب ولا تدعه ينطفئ.

نهض، تناول المسدس من حزامه، وقال:

ـ يبدو هذا الباب شبيها بالباب الآخر، لكن الأمر ليس كذلك. أدرك أنك خائف ولك الحق في أن تخاف. أعتقد أن ثمة أشياء موجودة هنا، لذا علينا أن نلقي نظرة. لا يوجد مكان آخر نلجأ إليه؛ هذه هي قضيتنا وهنا مكمن الصعوبة أساسا. أريد منك أن تمد لي يد العون، فإذا لم تكن راغبا في حمل الفانوس إذاً عليك أن تمسك المسدس.

ـ بل أحمل الفانوس.

ـ حسنا تفعل. هكذا يتصرف الأناس الطيبون، إنهم يواظبون على المحاولة ولا يستسلمون.

ـ حسنا.

خرجا إلى باحة المنزل، قدم الصبي أمامه وهو يحمل الفانوس الذي نفث دخانا أسود. وضع المسدس في حزامه، التقط الرفش وشرع يقطع الخشب المحيط بمشبك الباب. وضع طرف نصل الرفش تحت المشبك،

محاولا رفعه وخلعه. جثا على ركبتيه، أمسك القفل وكل ما يحيط به. أحكم قبضته عليه ثم رجه فتقلقل. انتزعه وألقى به على العشب. أقحم نصل الرفش تحت الباب وأدخل أصابعه تحته ثم نهض ورفعه. انهالت الأوساخ من على الجوانب محدثة خشخشة. نظر إلى الصبي وقال: هل أنت بخير؟ هز الصبي رأسه صامتا وهو يحمل الفانوس. خلخل الرجل الباب ورفعه ثم تركه يسقط على العشب. ظهرت عبر الظلام درجات سلم خشبي. مد يده وتناول المصباح من الصبي شرع يهبط السلم. التفت، اتكأ على يديه ثم قبل جبهة الصبي.

الغرفة التي تحت الأرض محاطة بجدران إسمنتية وأرضها مكسوة بالإسمنت وبالقرميد الذي يستعمل في كسوة المطابخ. يوجد سريران معدنيان خفيفان مزودان بنوابض ولا فراش عليهما. جعل كل منهما ملاصقا لأحد الجدارين المتقابلين. كما يوجد تحت قوائم كل سرير فرشة ومستلزماتها وكل فرشة مطوية بطريقة تحاكي تقاليد الجيش العسكرية. التفت ونظر إلى الصبي فرآه جاثيا على ركبتيه، منحنيا إلى الأمام وعيناه طارفتان تختلجان بسبب الدخان المتصاعد من الفانوس. هبط إلى الدرجات الدنيا من السلم وجلس دافعا الفانوس إلى الأمام وهمس:

ـ يا إلهي... يا إلهي!

ـ ماذا هناك يا أبي؟

ـ انزل... يا إلهي! انزل.

صندوق فوق صندوق من البضائع المعلبة: طماطم، دراق، فاصوليا، مشمش لحوم معلبة ولحم بقر مملح. أمامه مئات الجالونات من المياه،

مناديل ورقية ومناديل حمام. كما يوجد صحون ورقية وأكياس نفايات بلاستيكية وبطانيات. أمسك جبينه بيده وقال: يا إلهي. . . التفت الصبي، وقال: كل شيء على ما يرام.

ـ انزل.

ـ أبي.

ـ انزل. تعال وانظر.

وضع الفانوس على إحدى الدرجات. صعد السلم وأمسك يد الصبي وقال له: تعال، فكل شيء على ما يرام.

ـ ماذا وجدت؟

لقد وجدت كل شيء؛ كل شيء. انتظر حتى ترى. جعله يهبط السلم أمامه. تناول الفانوس ورفعه عاليا قائلاً له: هل تستطيع أن ترى؟ هل تستطيع؟

ـ ما كل هذه البضائع يا أبي؟

ـ إنها أغذية. هل تستطيع أن تقرأ؟

ـ المكتوب هنا يشير إلى أن في العلبة إجاصا.

ـ أجل. نعم. أوه إنه يشير إلى ذلك. نعم هو ذاك.

لم يكن من متسع له حيث كان يقف يسمح بالحركة. انحنى ومرر رأسه من تحت مصباح معدني أخضر اللون متدلٍ من السقف، ثم أمسك الصبي من يده. سارا يستعرضان صفوفا من العلب الكرتونية التي طبعت عليها بيانات بمحتوياتها: توابل، ذرة، ملفوف مطبوخ، حساء، صلصة سباغتي. إنه غنى العالم وترفه الذي تلاشى. قال الصبي:

ـ لماذا كل هذه الأشياء موجودة هنا؟ هل هي حقيقية؟

ـ نعم، إنها حقيقية.

سحب إحدى العلب، وضعها على الأرض، مزق غلافها وأخرج منها علبة دراق، وقال: إن هذه الأشياء موجودة هنا؛ لأن أناسا ظنوا أنها ربما يكون وجودها ضروريا وسيكونون بحاجة إليها.

ـ لكنهم لم يستعملوها.

ـ أجل، لم يفعلوا.

ـ لأنهم ماتوا.

ـ صحيح.

ـ وإنه جدير بنا أن نستفيد منها.

ـ نعم. إنهم يرجون أن نفيد منها كما نتمنى نحن ـ لو أنهم مازالوا موجودين ـ أن ينعموا بها.

ـ لقد كانوا أناسا طيبين.

ـ نعم، لقد كانوا صالحين.

ـ مثلنا.

ـ أجل، مثلنا.

ـ لذلك لا بأس علينا.

ـ نعم نحن على صواب.

يوجد ـ فيما استعرضاه ـ سكاكين وأوعية بلاستيكية كما يتوافر بين الأشياء غطاء مائدة وآنية مائدة فضية، إضافة إلى أدوات مطبخ موضوعة

في صندوق بلاستيكي. وجد أيضا بطاريات صغيرة مضيئة لكنها لم تكن تعمل ومفتاح علب. ثمة صندوق مليء بالبطاريات والبطاريات الجافة عاينها وتفحصها. معظمها كان متآكلا وصدئا وقد رشحت منها مواد لزجة. لكن بعضها كان يبدو بحالة جيدة. أخيرا حصل على مصباح يعمل على البطارية، أضاءه، وضعه على الطاولة وأطفأ لهب الفانوس الذي كان ينفث دخانا. مزق قطعة من علبة الكرتون المفتوحة وبدد بواسطتها الدخان. اعتلى السلم وأخفض الباب ثم التفت ونظر إلى الصبي وقال:

ـ ماذا تحب أن تتناول على العشاء؟

ـ إجاص.

ـ اختيارك جيد. فليكن إجاصا.

تناول زبديتين مصنوعتين من الورق من رزمة مغلفة بغلاف بلاستيكي. وضعها على الطاولة. مد دثارين فوق السريرين؛ كي يجلسا عليهما. فتح صندوقا كرتونيا يحتوي على علب الإجاص. أخرج إحداها، وضعها على الطاولة وفتحها بمفتاح علب ونزع الغطاء عنها. نظر إلى الصبي الذي كان يجلس على السرير صامتا يشاهده وهو ما يزال مدثرا بالبطانية. قال الرجل في نفسه: ربما لم يتفهم الصبي تماما ما يحدث الآن. عندما تكون في غابات مظلمة باردة يحتمل أن تصحو في أي وقت. قال الرجل: هذا الإجاص هو الأطيب مذاقا على الإطلاق؛ حقا إنه أطيب إجاص ذقته. فقط اصبر وسوف ترى.

جلسا جنبا إلى جنب يأكلان ما في العلبة من إجاص ثم تناولا علبة دراق وأكلا ما فيها. لعقا ملعقتيهما وأمالا الزبديتين وشرب كل منهما الشراب الحلو المذاق والغني بالنكهة وهو ينظر إلى الآخر.

ـ علبة إضافية.

ـ لا أريدك أن تصاب بالغثيان.

ـ لن أصاب بالغثيان.

ـ إنك لم تأكل شيئا منذ زمن طويل.

ـ أعرف.

ـ حسنا.

مدد الصبي على السرير. وضع رأسه على الوسادة وملس له شعره المتسخ برفق ثم غطاه بالبطانيات. عندما اعتلى السلم ورفع الباب كان قد خيم الظلام. ذهب إلى المرآب، أحضر الحقيبة وعاد. ألقى نظرة أخيرة حول المكان. هبط السلم، أغلق الباب وأقحم أحد مقبضي الكماشة في مشبك الباب؛ بغية إقفاله. أمسى ضوء المصباح الكهربائي ضعيفا فبدأ يبحث في المواد المخزنة إلى أن عثر على وقود أبيض اللون معبأ في علب على شكل غالونات. تناول واحدة منها، وضعها على الطاولة، فك غطاءها ونزع عنها اللحام المعدني بواسطة مفك براغي. أنزل المصباح المعلق فوق رأسه وملأه بالوقود. كان قد وجد سابقا علبة مليئة بالولاعات التي تعمل على غاز البوتان. أشعل المصباح بواحدة منها وعدل اللهب ثم علق المصباح حيث كان وجلس على السرير.

بينما كان الصبي نائما بدأ يجول على المواد المخزنة ويفحصها بدقة وبشكل منهجي: ألبسة وستر وجوارب. حوض ماء مصنوع من فولاذ غير قابل للصدأ. قطع من الإسفنج وألواح صابون. معجون وفراشي أسنان. صندوق بلاستيكي كبير يحتوي على مسامير مصوملة وصواميل إضافة

إلى خـردوات وأدوات معدنية متنوعة وذات خصـائص ومظاهر مختلفة. وجد في الصندوق ذاته كيسا من القماش يحتوي على عملة معدنية ذهبية جنوب إفريقية، بحجم يعادل ملء الكف مرتين. نظف القطع الذهبية مما كان عالقا بها، فركها بأصـابعه، نظر إليها ثـم أعادها مع الخردوات إلى الصندوق ووضعه على الرف.

تفحص كل شـيء في المخزن وكان ينقل الصناديق والأقفاص من جهة لأخـرى داخل الغرفة. يوجد باب فولاذي صـغير يفضـي إلى غرفة أخرى تحتـوي على زجاجـات فيها وقود. وجـد في زاوية الغرفـة حماما كيميائيا جدرانه مزودة بشبكة من الأنابيب المغطاة بشبك معدني وفي أرضه فتحات لتصريف المياه والسوائل. أضحى الجو أكثر دفئا في الغرفة المحصنة تحت الأرض فخلع عنه معطفه. استمر في تفحص كل الموجودات ومنها صندوق خراطيش إيه سـي بي من عيار 45 وثلاثة صناديق طلقات بنادق من عيار 30 ـــ 30 . ما لم يجده هو المسـدس أو البندقية. تناول مصـباح البطارية وجـال في المـكان؛ بحثا عن حجرة خبيئة قد تكون خافيـة عليه. وبعد وقت قصـير جلس على السرير يأكل لوحا من الشوكولا. لم يجد مسدسا وأيقن أنه لا يوجد شيء من هذا القبيل.

عندمـا اسـتيقظ كان المصـباح المعلـق فوق رأسـه يطلق صـوتا خافتا خفيفا، ويرسـل ضـوءه على الجدران والأقفاص والصناديق. لم يكن يعي أيـن هو. كان مضـطجعا وقد اتخذ مـن معطفه غطاء له. جلس منتصـبا ونظر إلى الصـبي فإذا هو مستغرق في النوم على السرير الآخر، وكان قد خلـع عنه حذاءه لكنه لا يتذكر أنه فعل. وجد حذاءه تحت السـرير، انتعله ورقي السلم. سحب مقبض الكماشة من المشبك ثم رفع الباب وأنعم النظر

فيما حوله. إن هذه الساعة هي وقت الصباح الباكر. نظر إلى البيت، مد بصره نحو الطريق وكان أوشك أن يخفض الباب من جديد إلا أنه توقف. استرعى انتباهه أن الضوء الرمادي الغامض محتشد جهة الغرب وليس ناحية الشرق. إذاً لقد ناما الليل كله والنهار معظمه أيضا. أخفض الباب، أحكم إغلاقه من جديد، هبط درجات السلم وجلس على السرير. جال بناظريه على المؤن التي حوله.

كان قد جهز نفسه للموت، أما الآن فهو لم يعد يرغب في الموت. لذلك يجب عليه أن يتدبر الأمر. يمكن لأي شخص أن يرى الباب ملقى على الأرض في الفناء ومن ثم يمكنه أن يعرف من فوره ما يخبئ هذا الباب. لذا عليه أن يفكر فيما يجب عمله حيال ذلك. ما هما فيه الآن ليس مخبأ وسط الغابات، إنه أبعد ما يكون عن ذلك. أخيرا نهض واتجه نحو الطاولة ثم رفع موقد الغاز الصغير المزود بمضرمين وأشعلهما. أحضر مقلاة وغلاية وفتح علبة بلاستيكية تحتوي على أدوات مطبخ.

شرع الأب يطحن حبات البن بمطحنة يدوية صغيرة وهذا ما أيقظ الصبي. جلس منتصبا، حدق فيما حوله، وقال:

ـ أبي.

ـ مرحبا. هل أنت جائع؟

ـ علي أن أذهب إلى الحمام. أحتاج إلى دورة مياه.

أشار بملعقة كانت بيده إلى الباب الفولاذي المنخفض. إنه لا يعرف كيف يستعمل دورة المياه، لكنهما سيستعملانها على أي حال. لم يكونا يعتزمان البقاء في هذا المكان الوقت الطويل الذي مكثاه فيه، كما لم يكن

ينوي رفع الباب وفتحه وإغلاقه أكثر مما تقتضيه الضرورة. مر الصبي قرب الرجل وكان شعره يتصبب عرقا وقال:

ـ ما هذا يا أبي؟

ـ قهوة ولحم وبسكويت.

هتف الصبي مبتهجا.

جر صندوقا صغيرا على الأرض، جعله بين السريرين، غطاه بمناديل ووضع عليه صحونا وأكوابا وآنية أخرى. أخرج زبدية فيها بسكويت وهي مغطاة بمنديل يد، ثم وضع فوق الصندوق زبدة وعلبة حليب مكثف وملحا وفلفلا. نظر إلى الصبي بدا وكأنه مخدر. جلب المقلاة من الموقد، تناول بالشوكة قطعة لحم ووضعها في صحن الصبي. غرف غرفة من بيض ممزوج ومقلي بالمقلاة الأخرى ثم غرف عدة ملاعق من فاصوليا مشوية بالفرن وصب قهوة في كوبيهما. كان الصبي رافعا بصره ينظر إلى الرجل.

قال الرجل:

ـ هيا لا تدع الطعام يبرد.

ـ ماذا آكل أولا؟

ـ ما طاب لك.

ـ أهذه قهوة؟

ـ نعم، تفضل. ضع شيئا من الزبدة على البسكويت هكذا...

ـ حسنا.

ـ هل أنت على ما يرام؟

ـ لست أدري.

ـ هل تشعر بالراحة؟

ـ نعم.

ـ ما هذا؟

ـ هل تعتقد أنه يجب علينا أن نشكر الناس؟

ـ الناس؟

ـ الذين قدموا لنا كل هذا.

ـ حسنا، نعم. أظن أننا نقدر على ذلك.

ـ هل ستفعل؟

ـ لماذا لا تشكرهم أنت؟

ـ أنا لا أعرف كيف أفعل.

ـ بل تعرف، فأنت تعلم كيف تقول شكرا.

جلس الصبي يحدق بالصحن. كانت تعوزه الثقة بالنفس. كان الرجل قد هم بالكلام عندما قال الصبي:

أيها الناس الأعزاء، شكرا لكم؛ لكل ما قدمتموه لنا من طعام وغذاء. إننا نعلم أنكم إنما ادخرتموه لأنفسكم، ولو كنتم موجودين هنا لما كنا أكلنا منه شيئا مهما كنا جائعين. إننا نأسف؛ لأنكم لم تتمكنوا من أكل الطعام. ونرجو أن تكونوا عند ربكم في السماء آمنين. رفع بصره ناظرا إلى الرجل، وقال:

ـ هل ما قلته يفي بالغرض؟

ـ نعم، أعتقد أن هذا مناسب.

لم يكن يرغب بالبقاء في القبو منفرداً؛ لذا كان يتبع الرجل جيئة وذهابا بينما كان الأخير يحضر عبوات ماء بلاستيكية إلى الحمام القائم في مؤخرة المنزل. أحضرا الموقد الصغير معهما إضافة إلى غلايتي ماء. شرع يسخن الماء ويصبه في الحوض ويصب فوقه ماء من العبوات البلاستيكية. استغرق تحضير الماء زمنا طويلا فقد أراده دافئا وممتما. عندما شارف الخزان على الامتلاء خلع الصبي عنه ثيابه. وضع رجليه في الماء وهو يرتجف. وقف مهزولا، نحيلا، قذرا وعاريا وقد وضع كفيه على كتفيه. الضوء الوحيد المتاح كان ينبعث من تلك الحلقة المتقدة الزرقاء اللون؛ من مضرم الموقد. قال الرجل:

ـ ما رأيك

ـ دافئ أخيرا.

ـ دافئ أخيرا؟

ـ نعم.

ـ من أين أتيت بهذه العبارة؟

ـ لا أعرف.

ـ حسنا. إذاً دافئ أخيراً.

غسل له شعره المتلبد بالأوساخ بالإسفنج والصابون. صرف المياه القذرة المترسبة ثم جلس وشرع يصب عليه ماء عذبا دافئا من الغلاية.

لفه وهو يرتجف بردا بمنشـفة ثم جعل فوقها بطانية ولفها أيضا. سرح له شعره ونظر إليه. كان البخار ينبعث منه كثيفا وكأنه دخان. قال له:

ـ هل أنت بخير؟

ـ قدماي باردتان.

ـ عليك أن تنتظرني.

ـ أسرع.

اسـتحم، خرج مـن الحوض، صـب فيه مـواد منظفة فوق المياه التي استحم بها ونقع فيها ثيابهما النتنة وقال:

ـ هل أنت جاهز؟

ـ نعم.

أطفـأ موقد الغاز وانتظـر حتى انطفأ تماما، خرج وأنار الضـوء الذي يعمل على البطارية ووضعه على الأرض. جلسا على حرف الحوض وانتعلا أحذيتهمـا ثم ناول الصـبي الفلاية والصـابون وأخذ هـو الفرن وزجاجة الوقود الصـغيرة والمسـدس. لف البطانيات وعادا عبر البهو إلى الغرفة. جلسا على السرير ووضعا بينهما رقعة لعبة الداما. ارتديا سترتين وجوارب جديـدة والتفا ببطانيات جديدة. علق بخطاف سـخانا صـغيرا يعمل على الوقود وشـربا كوكا كولا محفوظة بعبوات بلاسـتيكية. ذهبا بعد برهة إلى الحمام، عصرا الماء من ثيابهما وعادا بها؛ كي تجف.

ـ كم من الوقت نستطيع أن نبقى هنا يا أبي؟

ـ لن يستمر هذا طويلا.

ـ كم سيستمر؟

ـ لست أدري. سوف نبقى يوما إضافيا أو يومين ربما.

ـ لأن بقاءنا هنا ينطوي على خطر.

ـ نعم.

ـ هل تظن أنهم سيجدوننا؟

ـ كلا ، لن يعثروا علينا.

ـ ولكن يحتمل أن يجدونا.

ـ كلا ، لن يفعلوا. لن يتمكنوا من ذلك.

في وقت لاحق وعندما كان الصبي مستغرقا في النوم ذهب إلى البيت وشرع يجر بعض قطع الأثاث وأخرجها إلى البهو ثم أخرج فراشا ومده فوق الباب. ثم سحبه من الداخل بعناية بحيث أصبح يغطي الباب كله. لم يكن ما فعله يرقى إلى مستوى الحيلة أو الخدعة ولكنه كان أفضل من لا شيء. بينما كان الصبي مستغرقا في النوم جلس هو على سريره وعلى مقربة من ضوء المصباح؛ وجلس يبري طلقات مسدس زائفة من غصن شجرة يابسة مستخدما سكينا لهذا الغرض. ثم وضع الطلقات الخشبية بعناية في أسطوانة المسدس إلى أن بلغ عددها خمس طلقات. صاغ نهاياتها على نحو أكسبها شكل الطلقات الحقيقية. صقلها وملسها بفركها بالملح ثم لطخها بسقط الفحم إلى أن تلونت بلون رواسب التبر. عندما أنجز تحضير المسدس ونظر إليه. حتى من هذه المسافة القريبة جدا بدا المسدس وكأنه ملقم ومحشو برصاص حقيقي. وضع المسدس جانبا ونهض فتحسس الثياب التي كانت تتبخر المياه منها فوق السخان.

كان قد احتفظ بحفنة صغيرة من أغلفة طلقات المسدس الفارغة، لكنها ذهبت مع كل الأشياء الأخرى التي كانت في العربة. كان حريا به أن يحتفظ بها في جيبه. لقد أضاع حتى الطلقة الأخيرة. ظن أنها لو كانت بحوزته لكان أعاد حشوها بخراطيش من عيار 45 لأن فتيلها ربما كان مناسبا إن هو استطاع أن يخرجه بعناية دون أن يسبب له تلفا. كان سيفعل ذلك بمقص العلب؛ حتى يتمكن من الحصول على الحجم الملائم والمطابق للطلقات. نهض وجال جولة أخيرة على المخازن ثم خفف الضوء شيئا فشيئا إلى أن انطفأ. قبل الصبي ومشى الهوينى نحو السرير الآخر حيث التحف بالبطانيات النظيفة. أنعم النظر مرة أخرى بهذا الفردوس البالغ الصغر الذي يهتز متماوجا مع الضوء البرتقالي المنبعث من السخان ثم استسلم إلى النوم.

كانت البلدة قد هجرت لسنين خلت. مع ذلك فقد عبرا شوارعها الغارقة بالركام المكدس والنفايات المبعثرة بحذر شديد. مرا بحاوية معدنية تستعمل مكبا للنفايات المبعثرة حيث كان أحدهم قد حاول أن يحرق فيها جثثا. اللحم المتفحم والعظام التي يغطيها رماد أسود تكاد تضيع معالمها لولا وجود هياكل جماجم بينها. لكن لا يوجد رائحة على الإطلاق فقد تقادم الزمن على الجثث. يوجد سوق في نهاية الشارع تكدست في أحد ممراته علب كرتونية فارغة ومعها ثلاث عربات معدنية. تفحصها، سحب إحداها، أدار عجلاتها ثم وقف. دفعها على الممر وعاد فجذبها من جديد، قال الصبي:

ـ نستطيع أن نأخذ اثنتين من هذه العربات.

ـ كلا.

ـ أستطيع دفع واحدة.

ـ أنت المستكشف. أريدك أن تكون الرقيب.

ـ ماذا سنفعل بكل هذه الأمتعة؟

ـ علينا أن نأخذ ما نستطيع أخذه فقط.

ـ هل تعتقد أن شخصا ما سيأتي؟

ـ نعم، أحيانا.

ـ قلت: إن أحدا لن يأتي.

ـ لم أعن أبدا.

ـ أتمنى لو أننا نستطيع أن نعيش هنا.

ـ أعرف ذلك.

ـ هنا يمكننا أن نكون نشيطين وحذرين.

ـ نحن يقظان وحذران.

ـ ماذا لو التقينا بأناس طيبين؟

ـ حسنا، أنا لا أعتقد ولا أرجح أن نلاقي أناسا طيبين على الطريق أبدا.

ـ نحن على الطريق.

ـ أعرف ذلك.

ـ إذا كنت يقظا وحذرا كل الوقت ألا يعني هذا أن الخوف يتملكك دائما وأبدا؟

ـ حسنا، أظن أنه يجب أن ينالك من الخوف ما يكفي لأن تبقى حذرا في المقام الأول؛ لكي تظل محترسا ويقظا.

ـ ولكن ماذا عن بقية الوقت؟

ـ نعم.

ـ لا أعرف. ربما يجب عليك أن تبقى محترسا بشكل دائم. هب أن خطبا ما فاجأك وأنت لا تتوقعه. ربما يكمن الحل في أن تتوقع البلاء دائما.

ـ هل تتوقع ذلك دائما يا أبي؟

ـ نعم، أتوقعه دائما. لكن من الممكن أن أنسى أحيانا أنه يجب علي أن أحترس.

أجلس الصبي على صندوق صغير وبدأ يقص له شعره مستخدما مقصا ومشطا بلاستيكيا. حاول أن يتقن تزيين شعره فاستغرق ذلك بعض الوقت. عندما انتهى من قص شعره أزاح المنشفة عن كتفيه وجمع شعره الذهبي من الأرض. مسح وجه الصبي وكتفيه بقطعة قماش مبللة وأمسك له مرآة؛ كي يرى.

ـ لقد أحسنت صنعا يا أبي.

ـ حسنا.

ـ أبدو مخيفا حقاً.

ـ أنت نحيل فعلاً.

قص شعره بنفسه، لكنه لم يكن قصا متقنا ثم شذب لحيته مستخدما المقص. في هذه الأثناء كان الماء الموجود في الغلاية قد أصبح ساخنا فحلق ذقنه مستعملا موسى مأمونة للحلاقة. كان الصبي يراقبه. عندما انتهى نظر إلى المرآة كي يرى وجهه فبدا من دون لحية. التفت إلى الصبي وقال: كيف أبدو؟ رفع الصبي رأسه وقال:

ـ لست أدري. هل سيصيبك البرد؟

أكلا وجبـة غذائيـة غنية في ظل الضـوء المنبعث مـن الفانوس: لحم، فاصـوليا خضـراء، بطاطا مهروسـة مع البسـكويت والصلصـة. كان قد وجـد أربع زجاجات من الويسـكي في كل واحدة منهـا ربع غالون ومازالت بأكياس الورق التي كانت فيها وقت شـرائها. وضـع قليـلا منها في كأس، أضاف له ماء ثم شرب بعض ما في الكأس. أصيب بدوار حتى قبل أن يكمل شرابه فاكتفى بما شرب. أكلا إجاصا، وضعا بعض الكريم على حبات من البسـكويت جاعلين منها حلوى. أكلا منها ثم شـربا قهوة. رمى الصحون الورقية وغطاء الطاولة البلاستيكي في كيس للنفايات. لعبا لعبة الداما ثم وضع الصبي على سريره.

أيقظـه ليلا الصـوت الخافت لقطـرات المطر التي كانـت تنهمر على الفراشـ الـذي غطى به الباب الذي يعلوهما. فكر في نفسـه أنه ما كان له أن يسمع صوت المطر ما لم تكن الأمطار تنصب صبا وتنهمر بغزارة. نهض وبيده المصـباح الكهربائي وصعد السلم ثم رفع الباب. أطلق المصباح نورا كشـافا فأنار الفناء. كانت الأرض من حوله مشـبعة ومغمورة بالمياه؛ مياه تجمعت من الأمطار التي كانت تجلد الأرض جلدا. أغلق الباب؛ تسرب الماء منه وبدأ يقطر من درجات السلم. إلا أنه يعتقد أن الغرفة نفسها محصنة ولا يمكن أن تتسرب إليها المياه. ذهب ليطمئن على الصبي فوجده يتصبب عرقا. سحب إحدى البطانيات عنه وهوى له وجهه ثم أطفأ السخان وذهب إلى السرير.

عندما اسـتيقظ من جديد ظـن أن المطر قد توقـف. لكن لم يكن هذا سـبب اسـتيقاظه، بل لأن مخلوقات عجيبة قد زارته في الحلم لم يكن قد

رأى مـن نوعها من قبل قط. تلك المخلوقات لم تنبس ببنت شـفة وقد ظن أنها كانت جاثمة بجانب سـريره، بينما كان نائما وأنها توارت في لحظات اسـتيقاظه. التفت ونظر إلى الصبي. ربما فهم للوهلة الأولى أنه هو نفسه كان شخصـا غريبا ومنفرا بالنسبة للصبي. كائن من كوكب سيار لم يعد له وجود. الحكايات التي يحوم حولها الشك والريبة. لن يستطيع أن يشيد للصـبي العالم الذي ضيعه هو؛ عالما يكون مصدرا للسرور والابتهاج ما لم يتمكن أن يبني ما قد أضـاعه أصـلا. وهو يعتقد أن الصبي يعي ذلك على نحو أفضـل منه. حاول أن يتذكر الحلم لكنه ما اسـتطاع إلى ذلك سبيلا؛ كل ما تبقى منه كان الشـعور الذي خلفه. جال في خاطره أنهم ربما جاؤوا في الحلـم؛ كـي يحذروه. لكن يحذرونـه من ماذا؟ من أنه لن يسـتطيع أن يوقـد في قلب الطفل ما اسـتحال في قلبه هو إلى رمـاد. حتى هذه اللحظة تتنازعـه في داخلـه رغبتان. ففي جانب يتمنى لـو أنهما لم يهتديا أبدا إلى هذا الملجأ، وفي آخر كان دائما يتمنى أن ينتهي الأمر.

فحص صمام خزان الموقد الصغير الذي كان قد انطفأ. هزه وأداره بعد أن وضـعه على صندوق صغير. جلس على الأرض وبدأ يفكك أجزاءه. فك اللوح السفلي ونزع مجموعة المضرم وأزاح الأنبوبة الواصلة بين المضرمين، مسـتخدما لهذه الغاية مفتاح ربط صـغير. هز المرطبان الذي يحتوي على الخـردوات هزا خفيفا وأخرج منه مسـمارا ملولبا وأسـلكه بين الأنبوبين. ربطـه، وصـل الخرطـوم بالخزان ثـم أمسـك القرص المعدني للمضـرم الصغير بعد أن دفعه نحو الأعلى. إنه صغير الحجم وخفيف الوزن. وضعه على الصـندوق الصـغير. نزع اللوح المعدني ورماه فوق النفايات ثم صعد السلم؛ كي يطلع على حالة الجو. كان الفراش الذي يعتلي الباب قد تشرب

بكميــة كبيرة من مياه الأمطار فثقل وزنا. شــق عليه رفــع الباب إلى أعلى فوقف مســتندا علــى كتفيه؛ كي يســتريح. نظر حولــه في محاولة لتحديد الوقت. الســماء تمطر رذاذا خفيفا ومســألة تحديد الوقت بالنسبة له أمر مســتحيل. نظر إلى البيت ثم مد بصــره نحو الريف المبلل بمياه الأمطار. ترك الباب ينزل وينغلق، هبط السلم وشرع يُعد وجبة الإفطار.

بددا يومهما أكلا ونوما. كان قد خطط للمغادرة لكنه رأى المطر مسوغا كافيا لتبرير بقائهما. العربة موجودة تحت الســقيفة. ليس من المحتمل أن يسير أحد على الطريق في يوم كهذا. جالا على المواد المخزنة واختارا منها ما يمكنهما أخذه ثم بســطا مــا أخرجاه من مواد على نحو منظم في زاوية الملجأ فتشكل لديهما مكعب من المواد المختارة بعناية.

كان يومهمــا بعضــ يــوم، بل لم يكن شــيئا على الإطــلاق. توقف هطل الأمطــار مع هبوط الظلام. فتحــا الباب وأخذا في نقــل العلب والأقفاص والأكياســ البلاســتيكية عبر باحة المنزل المبللة إلى الســقيفة. وضــعا كل الأشــياء في العربة وحزماهــا. عندما حملت العربة بأقصــى طاقتها على الاســتيعاب غطاها بالغطاء البلاســتيكي وشــد ســلكا إلى حلقات التثبيت وربــط الســلك بحبال قصــيرة. رجعــا إلى الــوراء، وجها ضــوء البطارية نحــو العربــة ونظر إليها. دار في خلده أنه كان حريا به أن يحضــر عجلتين إضــافيتين من العربات الأخرى التي كانت في المخزن؛ لكن ســبق الســيف العذل. كما كان أولى به أن يحتفظ بمرآة الدراجة النارية التي كانت مثبتة على عربتهما القديمة أيضا. تناولا وجبة العشاء وناما حتى الصباح. أفاقا باكرا وتناولا طعام الإفطار ثم اســتحما ثانية وغســل كل منهما شــعره في حوض مــن الماء الدافئ. مع بزوغ خيوط الفجــر الأولى كانا على الطريق،

وقد ارتدى كل منهما قناعا نظيفا منعشـا كان قصه من قماش معد ليكون غطاء سـرير. تقدم الصـبي يحمل رفشـا وقد شـرع يمهد الطريق بإزالة الأعواد والأغصـان عنها. تبعه الرجـل متكئا على مقود العربة وهو يراقب الطريق الممتد أمامهما.

كانت العربة ثقيلة الوزن لدرجة يصعب معها دفعها فوق أرض الغابات الرطبـة والمبللـة. توقفا وقـت الظهيرة في منتصـف الطريق، أعدا شـايا سـاخنا وأكلا ما تبقى من لحم، إضـافة إلى حبات من البسكويت الرقيق الجاف مع الخردل وصلصة التفاح. تناولا طعامهما جالسين وقد أسند كل منهما ظهره إلى ظهر الآخر. قال الصبي:

ـ هل تعلم أين نحن الآن يا أبي؟

ـ إلى حد ما.

ـ إلى حد ما! كيف ذلك؟

ـ حسـنا، أعتقد أن ما يفصـلنا عن الساحل هو مسـافة مئتي ميل تقريبا تبعا لأقصر الطرق؟

ـ وفقا لأقصر الطريق!

ـ أعني إذا سلكنا خطا مستقيما كما يمكن للطيور أن تفعل.

ـ هل سنصل إلى هناك قريبا؟

ـ لا، لن يتحقق ذلك في وقت قريب. فلنقل سـيكون هذا في وقت قريب إلى حد ما. لأننا لا نستطيع أن نسير كما تمضي الطيور.

ـ ذلك لأن الطيور ليست مرغمة على اتباع الطرق؟

ـ صحيح.

ـ تستطيع الطيور أن تذهب حيثما تشاء.

ـ نعم.

ـ هل تعتقد أن ثمة طيوراً موجودة في مكان ما؟

ـ لست أدري.

ـ لكن ماذا تظن؟

ـ أعتقد أن هذا غير محتمل.

ـ هل تستطيع الطيور أن تطير إلى المريخ أو إلى مكان ما؟

ـ لا. لا تستطيع.

ـ لأن المكان بعيد جداً.

ـ نعم.

ـ حتى ولو رغبت.

ـ حتى وإن رغبت.

ـ ماذا لو حاولت أن تطير ثم وصلت إلى منتصف طريق ما فأعياها التعب. هل ستتقهقر عندها وتسقط؟

ـ حسنا، إنها لا تستطيع في حقيقة الأمر أن تصل إلى منتصف الطريق؛ لأنها ستكون في الفضاء والفضاء خالٍ من الهواء؛ لذلك لن يكون بمقدورها أن تطير. أضف إلى ذلك أن الجو سيكون باردا جدا لدرجة تتجمد معها وتموت.

ـ أوه.

ـ على أي حال، هي لا تعرف مكان المريخ.

ـ هل نعرف نحن أين مكان المريخ؟

ـ نوعا ما.

ـ لو كان لدينا سفينة فضاء هل كان باستطاعتنا الذهاب إلى هناك؟

ـ حسنا، إن كانت عندك سفينة فضائية جيدة حقا ولو توافر لك أناس يمدون لك يد العون إذاً لكان ممكنا لك أن تذهب إلى هناك فيما أظن.

ـ هل ستجد طعاما ومواد غذائية عندما تصل إلى هناك؟

ـ كلا. لا يوجد شيء هناك.

ـ أوه.

جلسا وقتا طويلا فوق بطانيات مطوية وهما يراقبان الطريق في كلا الاتجاهين. لا يوجد رياح ولا يوجد شيء آخر. قال الصبي بعد برهة:

ـ لا يوجد أي طيور. أيوجد شيء من هذا القبيل؟

ـ كلا.

ـ فقط في الكتب.

ـ نعم، في الكتب فقط.

ـ لا أظن ذلك.

ـ هل أنت مستعد؟

ـ نعم.

نهضا، وضعا الأكواب في مكانها وكذلك ما تبقى من البسكويت. كوم الرجل البطانيات فوق العربة، وضع الغطاء عليها وشده ثم ثبته ووقف ينظر إلى الصبي. قال الصبي:

ـ ماذا في الأمر؟

ـ أعلم أنك اعتقدت ـ فيما مضى ـ أننا أوشكنا أن نموت.

ـ نعم.

ـ لكننا لم نمت.

ـ كلا، لم نمت.

ـ حسنا.

ـ هل أستطيع أن أسألك عن شيء؟

ـ بالتأكيد.

ـ لو كنت طيرا هل كنت تستطيع أن تحلق عاليا لأفق تستطيع عنده أن ترى الشمس؟

ـ نعم. تستطيع.

ـ أظن ذلك سيكون أمرا رائعا حقا.

ـ نعم سيكون كذلك. هل أنت مستعد؟

ـ نعم.

ـ توقف. ماذا حل بآلة الفلوت الموسيقية التي كانت معك؟

ـ لقد رميتها.

ـ رميتها!

ـ نعم.

ـ حسنا.

ـ حسنا.

عبرا جسـرا يعلو نهرا وقت الغسـق الطويل الملون بلون الرماد ثم توقفا ينظران من خلال الدرابزين الإسمنتي إلى النهر الميت الذي يجري ببطء. نهـر يلفه غطاء أسـود قـاتم وكثيف يجري على تخـوم مدينة محترقة. ثم شاهداه ثانية تحت جنح الظلام عندما كانا يدفعان العربة الثقيلة أمامهما صـعودا على امتداد الهضـبة ثم توقفا؛ كي يسـتريحا. أدار العربة بشـكل جانبي؛ حتى يتمكن من إيقافها. اصـطبغ قناعاهما عند منطقة الفم بلون الرمـاد، أما الدوائر المحيطـة بعيونهما فقد اتخذت أشـكال أكواب قاتمة اللون. جلسـا على قارعة الطريق يحيط بهمـا الرماد من كل جانب. يمما وجهيهما شـطر الشـرق حيث لاح من بعيد شـبح مدينة تغرق في الظلام؛ ظلام الليل القادم. ولا أضواء في المدينة تؤنس وحشتها.

ـ هل تعتقد أن ثمة أحدا موجوداً في المدينة يا أبي؟

ـ لا أعرف.

ـ متى سنتمكن من التوقف؟

ـ نستطيع التوقف الآن.

ـ على الهضبة؟

ــ يمكننـا أن ننحـدر بالعربة ونضـمها هناك؛ عند تلك الصـخور، ثم نغطيها بالأغصان.

ـ هل هذا مكان مناسب للتوقف؟

ـ حسـنا، الناس عادة لا يحبون التوقف عند الهضـاب ولا نريدهم نحن أن يفعلوا.

ـ لذا فهو مكان جيد ومناسب.

ـ أعتقد ذلك.

ـ لأننا حاذقان.

ـ حسنا، يجب ألا نكون حاذقين جدا.

ـ حسنا.

ـ هل أنت مستعد؟

ـ نعم.

وقفا، حمل رفشه ووضعه فوق كتفه ونظر إلى أبيه قائلا:

ـ ما أهدافنا البعيدة المدى؟

ـ ماذا؟!

ـ أهدافنا البعيدة المدى.

ـ أين سمعت هذا الكلام؟

ـ لا أعرف.

ـ كلا. أين سمعته؟

ـ أنت من قال هذا.

ـ متى؟

ـ منذ وقت طويل مضى.

ـ وماذا كان الرد؟

ـ لا أعرف.

ـ حسنا، وأنا أيضا لا أعرف. تعالَ فقد هبط الظلام.

في وقت متأخر من اليوم اللاحق، وبينما كانا يجتازان منعطفا في الطريق توقف الصبي، وضع يده على العربة وهمس: أبي، مد الرجل بصره فرأى شبح مخلوق بشري صغير الحجم يمشي على الطريق متثاقلاً يجر قدميه جرا. هكذا بدا له، فالمسافة التي تفصل بينهما بعيدة.

وقف متكئا على ممسك العربة وقال: حسنا. من عساه يكون؟

ـ ماذا علينا أن نفعل يا أبي؟

ـ قد يكون شَرَكاً منصوباً.

ـ ماذا سنفعل؟

ـ دعنا نتبعه وسوف نرى إن كان سيلتفت إلى الوراء أم لا.

ـ حسنا.

لم يكن المتجول ممن يلتفتون إلى الوراء؛ كي يراقبوا وينظروا. اقتفياه برهة من الزمن ثم أدركاه. إنه رجل طاعن في السن، صغير الحجم ومحني القامة يحمل على ظهره حقيبة عسكرية قديمة ومتغضنة وقد ربط بها بطانية ملفوفة لفا. كان يمشي بخطى وئيدة ويضرب الأرض ضربا خفيفا بعصا متقشرة كانت في يده، اتخذ منها عكازا. عندما رآهما غير وجهته وانحرف عن الطريق إلى جانبه ثم التفت ووقف محترسا. ثمة قطعة قماش قذرة مربوطة على فكه كما لو كان يعاني من ألم في أسنانه. حتى طبقا لمعايير عالمهم الجديد فهو مصدر رائحة فظيعة وكريهة جدا تفوح منه.

قال:

ـ ليس معي شيء، تستطيعان أن تفتشاني إن رغبتما في ذلك.

ـ لسنا لصين.

ـ أمال إحدى أذنيه نحو الأمام وصاح قائلا: ماذا؟

ـ قلت: لسنا لصين.

ـ ما أنتما إذاً؟

لم يجدا طريقة يجيبانه من خلالها عن سؤاله. فرك أنفه بطرف معصمه ووقف منتظرا. كان حافي القدمين، لكن لفهما بأسمال بالية وبعض قطع الورق المقوى المربوطة بخيوط من القنب الأخضر وعليها عدد من الطبقات من مزق ألبسة قذرة ورثة. فجأة أصبح الرجل أكثر إعياء، اتكأ على عكازه وجلس على الأرض بين الرماد واضعا إحدى يديه على رأسه. بدا وكأنه كومة أسمال بالية سقطت سهوا من عربة كانت تسير على الطريق. تقدما منه ووقفا أمامه ينظران إليه. قال الرجل: سيدي.. سيدي. جثم الصبي على الأرض ووضع يده على كتفه وقال:

ـ إنه خائف يا أبي. الرجل خائف.

نظر إلى أعلى الطريق وإلى أدناه وقال: لو كان هذا الرجل كمينا لكان ذهب قبلنا.

ـ هو خائف يا أبي، وهذا كل ما في الأمر.

ـ أخبره أننا لن نؤذيه.

هز الرجل العجوز رأسه وحركه من جانب إلى آخر في حين كانت أصابعه تعبث بشعره القذر. رفع الصبي بصره ناظرا إلى أبيه، وقال:

ـ ربما هو يعتقد أننا لسنا حقيقيين.

ـ إذاً ماذا نكون حسب اعتقاده؟

ـ لا أعرف.

ـ لا نستطيع أن نبقى هنا. علينا أن نرحل.

ـ إنه خائف يا أبي.

ـ لا أعتقد أنه يتعين عليك أن تلمسه.

ـ يمكننا أن نعطيه شيئا يأكله.

وقف ينظر إلى الطريق وهمس: اللعنة. أخفض بصره ناظرا إلى الرجل العجوز. ربما تحول إلى إله وهما تحولا إلى شجر. قال: حسنا.

فك رباط الغطاء ولفه إلى الخلف، مد يده، بحث في الأطعمة المعلبة وأخرج إحدى العلب المغلفة بالقصدير. أخذ مفتاح العلب من جيبه وفتح العلبة. فرد الغطاء، مضى إلى الصبي جثم على الأرض وناوله العلبة.

ـ ما رأيك في أن نعطيه ملعقة؟

ـ إنه لا يستعمل الملعقة.

ـ أخذ الصبي العلبة وناولها إلى الرجل العجوز هامسا: خذها. هي لك.

رفع الرجل العجوز عينيه ونظر إلى الصبي. أومأ الصبي إليه بالعلبة. بدا الصبي وكأنه إنسان يحاول أن يطعم نسرا موهنا ومكسورا على الطريق.

قال:

ـ لا بأس عليك. خذها.

أخفض الرجل العجوز يده من على رأسه ونظر إلى الصبي بعينين طارفتين لونهما أزرق رمادي، وقد أوشكتا أن تتطمرا بين ثنيات بشرته الرقيقة والمتجعدة.

قال الصبي:

ـ خذها.

مد يده وتناول العلبة بأصابعه المهزولة وضمها إلى صدره. قال الصبي، وهو يستعمل يديه في إشارات توضيحية:

ـ كلها. إنها طيبة المذاق. نظر الرجل العجوز إلى العلبة، أمسكها بإحكام ثم رفعها. أنفه متجعد وأصابعه المصفرة تعبث بمعدن العلبة. أمالها وشرب. تسرب العصير من العلبة فبلل لحيته القذرة. أخفض العلبة وهو يمضغ ما في فمه بصعوبة. كان يهز رأسه هزا خفيفا وهو يبتلع. همس الصبي:

ـ انظر يا أبي.

ـ إني أرى.

التفت الصبي ونظر إليه.

قال الرجل:

ـ أعلم ما هو السؤال، وجوابي عليه: لا.

ـ وما هو السؤال؟

ـ هل نستطيع أن نأخذه معنا؟ إننا لا نستطيع.

ـ أعرف.

ـ تعرف.

ـ نعم.

ـ حسنا.

ـ هل نستطيع أن نمنحه شيئا آخر؟

ـ دعنا ننتظر؛ حتى نرى ماذا سيفعل بهذه.

راقباه وهو يأكل. عندما انتهى جلس ممسكا بالعلبة الفارغة وهو ينظر إليها وكأنه يطلب منها أن تجود بالمزيد.

ـ ماذا تريد أن تعطيه؟

ـ ما رأيك أنت؟ ما الذي يجب أن يأخذه؟

ـ أعتقد أنه يجب ألا يأخذ شيئا. ماذا تريد أن تعطيه؟

ـ بإمكاننا أن نطهو شيئا على الموقد ويستطيع هو أن يأكل معنا.

ـ هذا يعني أن نتوقف وأن نبيت ليلتنا هنا.

ـ نعم.

نظر إلى الرجل العجوز وإلى الطريق وقال:

ـ حسنا. لكننا سنرحل غدا.

لم يجب الصبي.

ـ هذا أكثر شيء يمكن أن تحصل عليه.

ـ حسنا.

ـ حسنا تعني حسنا، لكنها لا تعني أنه علينا أن نتفاوض غدا بشأن صفقة أخرى.

ـ ماذا تعني بقولك نتفاوض؟

ـ أن نتحدث أكثر حول الموضوع وصولا إلى صفقة أخرى. لا يوجد صفقة أخرى. هذا كل شيء.

ـ حسنا.

ـ حسنا.

ساعدا الرجل العجوز؛ كي ينهض ويقف على قدميه وناولاه عكازه. إنه لا يــزن مئة باوند. وقف ينظر حوله بعين الشــك والريبة. أخذ الرجل علبة القصــدير منه ورماهــا في الغابة. حاول الرجل العجــوز أن يناوله عكازه، لكنه دفعها بعيدا عنه.

قال له:

ـ متى أكلت آخر مرة؟

ـ لا أعرف.

ـ لا تتذكر.

ـ لقد أكلت الآن.

ـ هل تحب أن تأكل معنا؟

ـ لا أعرف.

ـ ألا تعرف؟

ـ آكل ماذا؟

ـ ربما بعض لحم البقر المطهو على نار هادئة مع البسكويت والقهوة.

ـ ماذا علي أن أعمل؟

ـ أخبرنا أين ذهب العالم؟

ـ ماذا؟

ـ ليس عليك أن تفعل شيئا. هل تستطيع أن تمشي؟ هل هذا مناسب؟

ـ أستطيع المشي.

نظر إلى الصبي وقال له:

ـ هل أنت صبي صغير؟

نظر الصبي إلى أبيه. قال الأب:

ـ كيف يبدو لك؟

ـ لا أعرف. فأنا لا أرى كما ينبغي.

ـ هل تستطيع أن تراني؟

ـ أستطيع أن أقول: إن شخصا ما موجود هنا.

ـ هذا جيد. علينا أن نذهب. نظر إلى الصبي، وقال: لا تمسك يده.

ـ إنه لا يستطيع أن يرى.

ـ لا تمسك يده ودعنا نذهب.

قال الرجل العجوز:

ـ إلى أين نحن ذاهبون؟

ـ نحن ذاهبون كي نأكل.

طأطأ رأسه، أمسك عكازه، دفع بها إلى الأمام وأخذ يضرب بها على الأرض ضربا خفيفا وفيه شيء من التردد.

ـ كم عمرك؟

ـ عمري تسعون عاما.

ـ كلا، ليس لك من العمر ما ذكرت.

ـ حسنا.

ـ هل هذا ما تقوله للناس؟

ـ أي أناس؟

ـ لا أعني أناسا محددين.

ـ أعتقد ذلك.

ـ تفعل ذلك؛ كي تتجنب أذاهم.

ـ نعم.

ـ وهل ينطلي هذا عليهم؟

ـ كلا.

ـ ماذا لديك في الحقيبة؟

ـ لا شيء. تستطيع أن تنظر.

ـ أعلم أنني أستطيع أن أنظر. ماذا يوجد فيها؟

ـ لا شيء. بعض الأمتعة فقط.

ـ ألا يوجد فيها شيء تأكله؟

ـ كلا.

ـ ما اسمك؟

ـ إيلي.

ـ إيلي ماذا؟

ـ ما العلة في إيلي؟

ـ لا شيء. دعنا نذهب.

عسكرا في الغابات وكانا قريبين من الطريق أكثر مما أراد. كان هو يجر العربة بينما الصبي يوجهه من الخلف. أضرما نارا؛ كي يتدفأ الرجل العجوز ولم يكن يرغب بإشعال النار أيضا. تناولا طعامهما بينما كان هو جالسا، ملتحفا بلحافه الفريد من نوعه ومتشبثا بملعقته كأنه طفل صغير. كان معهما كوبان فقط لذلك صب قهوته وشربها من الزبدية التي أكل منها وإبهاماه مثبتان على حوافها وكأنهما كلابان. كان جالسا يحدق بالجمر. ثيابه رثة ويوشك أن يموت جوعا وكأنه بوذا.

قال الرجل:

ـ أنت تعلم أنك لن تستطيع أن تذهب معنا.

هز رأسه.

ـ منذ متى وأنت على الطريق؟

ـ كنت دائما على الطريق. إنك لا تستطيع أن تبقى في مكان بعينه.

ـ كيف تعيش؟

ـ كل ما أفعله هو أنني أستمر في الذهاب. كنت أعلم أن ما نحن عليه الآن واقع.

ـ كنت تعلم أنه سيحدث؟!

ـ نعم، هذا الذي نحن فيه أو شيء يشبهه. كنت دائما مؤمنا به.

ـ وهل حاولت أن تستعد له؟

ـ كلا، ما الذي يمكن أن تفعله؟

ـ لا أعرف.

كان الناس دائما مستعدين للغد. أنا لا أؤمن بهذا التوجه، فالغد ليس مستعدا لهم بل إنه لا يعرف أنهم موجودون أصلا.

ـ أعتقد أنه لا يدري بهم.

ـ حتى وإن عرفت ما تفعل فلن تعرف ذلك. لن تدرك ما إذا كنت تود القيام به أم لا. لنفترض أنك آخر إنسان بقي على الأرض ولنفترض أنك فعلت هذا لنفسك.

ـ هل تمنيتك أن يدركك الموت؟

ـ كلا. ولكن ربما أتمناه. عندما تكون على قيد الحياة فإن هذا الأمر يبقى نصب عينيك.

ـ أم تتمنى لو أن أمك لم تلدك؟

ـ ليس للمتسولين المعدمين أن يختاروا.

ـ وهل تعتقد أن هذا مطلب عزيز؟

ـ لقد كان ما كان. وعلى أي حال فإن التماس الترف والرفاهية في أوقات كهذه هو ضرب من الحماقة.

ـ أعتقد ذلك.

ـ لا أحد يريد أن يبقى هنا ولا أحد يرغب في المغادرة. رفع رأسه ونظر إلى الصبي من خلال النار، ثم حول بصره نحو الرجل. رصد الرجل عينيه الصغيرتين وهما تنظران إليه. الله يعلم ما شاهدت هاتان العينان وما مر عليهما. نهض، كوم مزيدا من الحطب فوق النار المضرمة وفصل الجمر عن الأغصان الميتة. كان الشرر الأحمر يتطاير ويرتعد ثم يموت ويغرق في الظلام. شرب العجوز آخر ما تبقى من قهوته ثم مد يديه وأمالهما نحو النار. كان الرجل يراقبه، ثم قال:

ـ كيف لك أن تعرف إن كنت آخر رجل باقٍ على كوكب الأرض؟

ـ ما أظنك قادرا على معرفة هذا الأمر. من الممكن أن تكونه وهذا كل ما في الأمر.

ـ لا أحد قادر على معرفته.

ـ ليس ثمة فرق. عندما تموت أنت كان الناس جميعهم قد ماتوا أيضا.

ـ أعتقد أن الله يعلمه.

ـ أنا لا أفهم كيف أنك مازلت على قيد الحياة. كيف تأكل؟

ـ لا أعرف.

ـ لا تعرف؟

ـ الناس يعطونك أشياء؟

ـ نعم.

ـ كي تأكل.

ـ كي آكل. نعم.

ـ كلا. إنهم لا يفعلون.

ـ أنت فعلتها.

ـ كلا لست أنا. الصبي هو من فعل ذلك.

ـ يوجد أناس آخرون على الطريق. لستما الوحيدين.

ـ هل أنت الشخص الوحيد؟

حدق الرجل به باحتراس وحذر وقال:

ـ ماذا تعني؟

ـ هل معك أناس آخرون؟

ـ أي أناس؟

ـ أناس معك.

ـ لا يوجد أحد معي.

ـ أنا أتحدث عنك. أي نوع من العمل أنت منخرط فيه؟

لم يجب الرجل العجوز.

ـ أظن أنك تود أن تذهب معنا.

ـ أذهب معكما!

ـ نعم.

ـ لن تأخذاني معكما.

ـ لا تريد أن تأتي.

ـ لن أذهب معكما ولم أكن لآتي حتى إلى هذا المكان لو لم أكن جائعا.

ـ الناس الذين أعطوك الطعام. أين هم؟

ـ لا يوجد أحد. لقد اخترعت ما قلته اختراعا.

ـ وماذا اخترعت أيضا؟

ـأنا ـ فقط ـ على الطريق كما أنت عليه، لا أختلف عنك في هذا.

ـ وهل اسمك إيلي حقا؟

ـ كلا.

ـ أنت لا تريد أن تقول اسمك.

ـ لا. لا أريد أن أذكره.

ـ لماذا؟

ــ لم أستطع أن أثق بك فأبوح به. قد تفعل شيئا يتعلق به. لا أريد أن يتحدث أحد عني. كأن يقول: أين كنت وماذا قلت ومتى كنت حيث كنت؟ ما أعنيه هو أنك قد تتحدث عني؛ هذا أمر ممكن لكن لا أحد يستطيع أن يقول: إن من تتحدث عنه هو أنا. يمكن أن أكون أي شخص. أعتقد أنه في أزمنة كالتي نحن فيها الآن كلما اقتصدت في القول كانت النتيجة أفضل. لو حدث أمر وكنا أحياء ثم التقينا على الطريق فلسوف يكون لدينا ما نتحادث بشأنه. لكننا لسنا كذلك ولهذا لن نفعل.

ـ ربما لن يكون هذا.

ـ أنت لا تريد أن تقول أمام الصبي. هذا كل ما في الأمر.

ـ ألست شريكا لقاطعي الطريق؟ أليست مهمتك أن تنصب أفخاخا للناس؛ بغية الإيقاع بهم؟

ـ أنا لست أي شيء. سوف أترككما وأرحل إن أردتني أن أفعل. إني أستطيع أن أجد الطريق.

ـ ليس عليك أن ترحل.

ـ لم أر نارا منذ أمد بعيد. هذا كل ما في الأمر. إنني أعيش كالحيوان. أنت لا ترغب في معرفة الأشياء التي كنت قد أكلتها. عندما رأيت الصبي ظننت أنني كنت قد مت.

ـ فاعتقدت أنه ملاك.

ــ لم أعرف ما الذي كانه. لم أفكر أبدا أنني سأقابل طفلا من جديد. لم أكن أعلم أن ذلك سوف يحدث.

ـ ماذا لو قلت لك: إنه قديس؟

هز الرجل العجوز رأسه.

ـ لقد تجاوزت كل ذلك الآن؛ بل منذ سنين خلت. عندما لا يكون بوسع الرجال أن يعيشوا يصبح القديسون أقل نجاحا وأكثر إخفاقا. سوف ترى. خير للمرء أن يكون وحيدا. أرجو ألا يكون ما قلته أنت صحيحا، فأن تكون على الطريق مع آخر قديس هو أمر مروع. لذلك أرجو ألا يكون صحيحا. سوف تكون الأمور أفضل عندما يرحل الجميع.

ـ وهل سيرحلون؟

ـ حتما سيرحلون.

ـ وبالنسبة لمن ستكون الأمور أفضل؟

ـ بالنسبة للجميع.

ـ لكل الناس.

ـ بكل تأكيد. سوف نكون جميعنا أفضل حالا ولسوف نتنفس بسهولة أكبر.

ـ هذا أمر جدير بأن يكون معلوما.

ـ نعم، هو كذلك. عندما نرحل جميعنا في نهاية المطاف، عندها لن يكون أحد موجودا هنا إلا الموت وبذا تمسي أيامه هو أيضا معدودة. سوف يكون متواجدا على الطريق ولكن ليس لديه ما يفعله فليس ثمة أحياء يميتهم. عندها سيسأل: أين ذهب الناس جميعهم؟ هذا ما سيكون الوضع عليه. ما هو الخطأ في هذا؟

وقفوا على الطريق صباحا. تجادل الرجل والصبي فيما يعطيانه للرجل العجوز. لكنه لم يحصل على الكثير في نهاية المطاف؛ بعض المعلبات التي تحتوي على خضراوات وأخرى فيها فاكهة. أخيرا ذهب الصبي إلى حافة

الطريق وجلس وسط الرماد. وضع الرجل العجوز المعلبات التي حصل عليها في حقيبته وربطها.

قال الرجل:

ـ عليك أن تشكره كما تعرف، فلولا الصبي لما أعطيتك شيئا.

ـ قد يجب علي أن أشكره وقد لا يتعين علي ذلك.

ـ لماذا لا يتعين عليك أن تشكره؟

ـ لو تبادلنا الأدوار لما أعطيته طعاما.

ـ ألا تكترث إن كان هذا يؤذي مشاعره؟

ـ كلا، فهو لم يفعل ما فعل من أجل هذا.

ـ إذاً لماذا أقدم على ما قام به؟

نظر إلى الصبي وإلى الرجل العجوز وقال: ما كان لك أن تفهم. أنا لست متأكدا من ذلك.

ـ قد يكون هو مؤمنا بالله.

ـ إني لا أعرف بماذا يؤمن.

ـ سوف يتغلب على الأمر.

ـ كلا. لن يستطيع أن يفعل ذلك.

لم يجب الرجل العجوز ونظر حوله متفحصا النهار.

قال الرجل:

ـ لن تتمنى لنا التوفيق أيضا. هل ستفعل؟

ـ إنني لا أدرك معنى لهذا. ماذا يشبه التوفيق؟ من يعرف شيئا مثله؟

آنذاك كان كل شيء قد مضى وانقضى. عندما التفت ونظر إلى الوراء كان الرجل العجوز قد بدأ المسير وهو يضرب الأرض بعكازه ضربا خفيفا. كان يتضاءل حجما فيبدو من بعيد وكأنه بائع جوال لكتب تحتوي على قصص؛ بائع قادم من العصور الغابرة. كان مكفهر الوجه، منحني الظهر وضئيلا كأنه العنكبوت. ثم تلاشى بعد مرور وقت قصير مرة واحدة وإلى الأبد. لم ينظر الصبي إلى الوراء قط.

بعيد الظهر مدا الغطاء على الطريق ثم جلسا وتناولا وجبة غداء خفيفة وباردة. كان الرجل يراقبه وقال:

ـ هل تتحدث؟

ـ نعم.

ـ لكنك لست سعيدا.

ـ أنا على ما يرام.

ـ عندما ينفد طعامنا سوف يكون لديك متسع من الوقت للتفكير في الأمر.

ـ لم يحر الصبي جوابا. تناولا طعامهما ثم قال بعد برهة: أدرك ذلك، لكنني لن أتذكر الأمر بالطريقة التي تتذكره فيها أنت.

ـ من المحتمل ألا تفعل.

ـ أنا لم أقل: إنك على خطأ.

ـ حتى وإن ظننت أنني على خطأ.

ـ حسنا.

قال الرجل:

ـ نعم، حسنا. ليس ثمة الكثير من الأخبار الطيبة على الطريق في أوقات كالتي نحن فيها.

ـ لا يحق لك أن تهزأ به.

ـ حسنا.

ـ إنه موشك على الموت.

ـ أعرف.

ـ هل نستطيع أن نذهب الآن؟

قال الرجل:

ـ نعم. نستطيع أن نذهب.

صحا ليلا. كان الجو مظلما وباردا. انتابه السعال فسعل حتى أدمى السعال صدره. مال نحو النار، نفخ في الجمر ووضع فوقه مزيدا من الحطب. نهض ومشى بعيدا عن الخيمة إلى الحد الذي أعانه الضوء على الوصول إليه. جثا على ركبتيه فوق الرماد وبين الأغصان اليابسة وقد لف بطانية حول كتفيه. بعد زمن قصير بدأ سعاله يهمد. فكر في الرجل العجوز الموجود الآن في مكان ما في العراء. التفت ونظر إلى الخيمة عبر سياج من الأشجار المتفحمة. أمل أن يكون الصبي قد عاد إلى النوم. جثا حيث هو وقد وضع يديه على ركبتيه. كان يتنفس بصعوبة وتنطلق مع أنفاسه أصوات صفير خافتة. قال: لقد أوشكت أن أموت. أخبرني: كيف علي أن أفعل ذلك.

في اليوم اللاحق شقا طريقهما ببطء ومشقة إلى أن بدأ الظلام يرخي سدوله. لم يستطع أن يعثر على مكان آمن يضرم فيه نارا. سحب خزان الموقد من العربة. جلس وأدار الصمام لكنه كان مفتوحا. أدار مفتاح المضرم الصغير فلم يتغير شيء. اتكأ وأنصت. جرب الصمامين معا وفي وقت واحد فأدرك أن خزان الوقود فارغ. جلس القرفصاء، أغمض عينيه، قبض أصابع كفيه ووضعهما على جبهته. بعد برهة من الوقت رفع رأسه وحدق بالغابات التي يلفها الظلام ويضنيها البرد. تناولا عشاء خفيفا باردا مكونا من خبز الذرة والفاصوليا. سأله الصبي:

ـ كيف فرغ خزان الوقود بهذه السرعة الكبيرة؟

ـ قد فرغ وكفى.

ـ لكنك قلت: إنه سيكفي لأسابيع.

ـ أعرف.

ـ لكن لم يمر سوى أيام قليلة.

ـ لقد كنت مخطئا.

تناولا عشاءهما في صمت. قال الصبي بعد وقت قصير:

ـ لقد نسيت أن أغلق الصمام. أليس كذلك؟

ـ ليس الذنب ذنبك. كان علي أن أفحصه؛ كي أتأكد أنه مغلق.

وضع الصبي صحنه على الغطاء وأشاح بوجهه عنه. ليس الذنب ذنبك. عليك أن تغلق الصمامين معا. كان علي أن أسد المضرمين سدا محكما؛ منعا للتسرب ولم أفعل. هي غلطتي إذاً وأنا لم أخبرك.

ـ مع أنه لم يكن لدينا أي لاصق. أليس كذلك؟

ـ ليس الذنب ذنبك.

سارا ببطء وتثاقل نحيلين وقذرين كمن أدمن العيش في الشوارع، جاعلين من البطانيات قلنسوتين؛ كي تقيهما من البرد. يزفران فأنفاسهما تتلون بلون الدخان. كانا يجران أقدامهما جرا فوق أراضٍ زلقة سوداء تعج بالغبار والرماد الذي تذروه الرياح. يجتازان السهول الساحلية الشاسعة وتعصف بهما الرياح المحملة بسحب من الرماد فتسوقهما إلى حيث يبحثان عن ملجأ ما استطاعا إلى ذلك سبيلا. يبحثان عنه في بيوت أو مخازن أو في خندق قابع على جانب الطريق وقد غطيا رأسيهما بالبطانيات. سماء الظهيرة متشحة باللون الأسود وكأنها الدرك الأسفل من جهنم. قال له:

ـ يجب ألا تفقد شجاعتك وألا تلين عزيمتك ولسوف نكون بخير.

امتلأت الأرض بالأخاديد وتآكلت التربة بفعل الحت فيها فأمست قاحلة جرداء. انتشرت عظام المخلوقات الميتة في المستنقعات كما انتشرت المزابل وغصت بالقاذورات المتراكمة والمجهولة المحتوى. أما البيوت المبنية في المزارع وسط الحقول فقد تفسخ وزال عنها طلاؤها الخارجي. الألواح الخشبية التي تكسو الجدران الخارجية؛ كل شيء أضحى بلا ظلال وبلا ملامح. كان الطريق ينحدر عبر دغل من شجر الكودزو الوردي الميت. أدغال من القصب الميت الطافي فوق المياه. خلف نهاية الحقول تعلق الضباب السديمي الكئيب بين السماء والأرض.

بدأ الثلج يهطل في وقت متأخر من النهار. تابعا سيرهما وقد جعلا

الغطاء فوق رأسيهما ورقاقات الثلج الرطبة تنهمر على الغطاء فيسمع لها صوت خفيف.

لم ينم منذ أسابيع خلت إلا قليلا. عندما استيقظ في الصباح لم يجد الصبي. جلس مستويا والمسدس في يده ثم نهض وبحث عنه لكنه لم يعثر عليه في مدى البصر. انتعل حذاءه وهرع حتى وصل إلى نهاية الأشجار. لاح الفجر من جهة الشرق، أما الشمس الغريبة فقد بدأت رحلة عبورها البارد. لمح الصبي قادما يعدو عبر الحقول وهتف به من بعيد:

ـ أبي يوجد قطار في الغابات.

ـ قطار!

ـ نعم.

ـ قطار حقيقي؟

ـ نعم. تعال.

ـ لم تصعد إليه. هل صعدت؟

ـ كلا. قليلا فقط. هيا.

ـ ألا يوجد أحد فيه؟

ـ لا. لا أعتقد ذلك. أتيت كي أصطحبك إلى هناك.

ـ هل يوجد فيه محرك؟

ـ نعم. محرك كبير يعمل على الديزل.

جازا الحقول ودخلا الغابات من جانبها البعيد. خط السكك الحديدية ينحدر من الريف، يمر وسط أكوام الركام ثم يخترق الغابات. القاطرة

مزودة بمحرك ديزل كهربائي وتقطر خلفها ثماني عربات ركاب مصنوعة من الفولاذ الصامد المقاوم للصدأ. أمسك يد الصبي وقال:

ـ دعنا نجلس ونراقب.

جلسا وانتظرا فلم يتحرك شيء. ناول الصبي المسدس وقال له:

ـ خذه.

قال الصبي:

ـ أبي.

ـ كلا. ليست هذه هي الصفقة. خذه.

أخذ المسدس ثم جلس ووضعه في حضنه. مضى الرجل من جهة اليمين ثم توقف وأخذ ينظر إلى القطار. اجتاز السكك الحديدية إلى الجهة الأخرى ثم مشى محاذيا للعربات وعلى طولها. عندما خرج من تحت العربة الأخيرة لوح الصبي بيده؛ كي يأتي إليه. نهض الصبي ووضع المسدس في الحزام.

كل شيء مغطى بالرماد. الممرات التي تفصل بين المقاعد داخل العربات مليئة بالفضلات المتراكمة والمبعثرة. الحقائب مسحوبة من الأرض المخصصة لها، مفتوحة ومرمية على المقاعد بعد أن تم نهبها منذ عهد بعيد. وجد في عربة الخدمة حزمة من الصحون الورقية؛ نفض الغبار عنها ووضعها في حقيبته. وكان هذا كل ما عثر عليه.

ـ كيف وصل القطار إلى هنا يا أبي؟

ـ لست أدري. أعتقد أن شخصا ما كان يقوده متجها إلى الجنوب. أعني

مجموعـة مـن الناس. ومن المحتمل أن يكون قـد توقف هنا عندما نفد الوقود الذي كان فيه.

ـ وهل هو متوقف هنا منذ أمد بعيد؟

ـ نعم. أعتقد ذلك. بل إنه هنا منذ أمد بعيد جدا.

فتشـا العربـات الأخيرة بدقة. سـارا بمحاذاة خط السـكة الحديدية وصـولا إلى القاطرة ثم رقيا المرقاة الضـيقة الصدئة والمقشورة الطلاء. دلفا إلى حجرة القيادة. نفض الغبار عن مقعد المهندس وأجلس الصـبي حيث أجهزة القيادة والتحكم. تلك الأجهزة كانت بسيطة للغاية. المطلوب عمله قليل ومحدود ويقتصـر على دفع ذراع الصـمام الخانق الذي يعيق تدفـق البخار إلى الأمام. أصـدر أصـواتا تحاكي صـوت محـرك القطار وأخرى تشـبه أصـوات بوق التنبيه التحذيري، لكنه لم يكـن واثقا من أن هذا يعني شيئا بالنسبة للصبي. بعد وقت قصير نظرا من خلال الزجاج المغطـى بالرماد والغبار إلى حيث ينعطف خط السـكك الحديدية ليغيب بين نفايات الأعشـاب الطفيلية الضـارة. إن قدر لهما أن يشـاهدا عوالم مختلفة فإنهما سيخلصان إلى النتيجة ذاتها. ذلك أن القطار سوف يقبع حيـث هـو إلى الأبد ليتفكك ببـطء وأنه لن يدور محرك قطـار على وجه الأرض مرة أخرى.

ـ هل نستطيع أن نذهب يا أبي؟

ـ نعم. طبعا يمكننا ذلك.

كانـا يمـران من حـين لآخر بأكوام صـغيرة مـن الصـخر على جانب الطريق. إنها إشـارات بلغة الغجر لكنها أضـحت نماذج منسية. رآها أول

ما رآها في الشمال حيث كانت شائعة هناك ومنتشرة في المدن المقهورة والمنهكة والتي تعرضت للسلب والنهب. رسائل يائسة لأحبة مفقودين أمسوا في عداد الموتى.

في ذلك الحين كانت كل مخازن الأغذية قد فرغت ونفدت محتوياتها وانتشرت الجريمة وعمت كل بقاع الأرض. إن العالم سيكون في وقت قريب مأهولا وعلى نطاق واسع برجال سيأكلون أطفالكم ويلتهمونهم أمام أعينكم. حتى المدن عينها ستصبح معقلا لعناصر السلب والنهب المتفحمين الذين سيزحفون من بين الخرائب محملين بعلب طعام مغلفة بالقصدير ومجهولة التركيب والمحتوى؛ طعام ملفوف بشبكات من النيلون. كأنهم متسوقون يتبضعون من مخازن تموين قابعة في جهنم. كانت الريح تعصف مثيرة ذرات سوداء من معدن الطلق الطري فتزحف عبر الشوارع كأنها حبر الحبار الذي ينفثه في قاع البحر. كان البرد قارسا ينسل إلى العظم والظلام يهبط باكرا. أما أولئك الذين يقتاتون بالقمامة فقد كانوا يهبطون الوديان الضيقة والشديدة الانحدار يحملون فوانيسهم ويضعونها على الرماد الذي تذروه الرياح فتخلف فوق الرماد ثقوبا حريرية تقتفي أثرهم كأنها عيون. كما كان الحجيج المهجرون المشردون ينهارون على الطرق ثم يسقطون موتى. أما الأرض الجرداء المحجوبة والمغطاة بما يشبه الكفن فقد أخذت تتدحرج إلى ما وراء الشمس ثم تعود ثانية دون أن تخلف أثرا أو تترك علامة كأنها مجاز لا اسم له يفضي إلى عالم الظلمات الذي ينتمي إلى الأزمنة الغابرة. قبل أن يصلا إلى الساحل كان قد نفد كل ما لديهما من مؤن. أما الريف فقد تعرض للسلب والنهب منذ سنوات خلت فلم يجدا شيئا في البيوت والأبنية المتاخمة للطريق. وجد دليل هاتف

في محطـة تعبئـة فكتب اسـم البلدة علـى الخارطة التي كانـت بحوزتهما مستعملا قلم رصاص. جلسا فوق حاجز حجري محيط ببناء وأكلا حبات من البسكويت ثم بحثا عن البلدة فلم يجداها.

أعاد ترتيب أجزاء الخارطة ونظر إليها من جديد. أخيرا أطلع الصبي عليها. كانا موجودين في مكان يبعد نحو خمسين ميلا إلى الغرب من المكان الـذي يعتقد أنهما موجودان فيه. رسـم رسـوما توضـيحية على الخارطة وقال: نحن موجودان هنا. تتبع الصـبي بإصـبعه الخط المؤدي إلى البحر وقال: كم من الوقت سيستغرق وصولنا إلى هناك؟

ـ أسبوعان. ثلاثة.

ـ ألونه أزرق؟

ـ البحر! لست أدري. هو أزرق اللون عادة.

هز الصبي رأسه وجلس ينظر إلى الخارطة. كان الرجل يراقبه. اعتقد أنه يدرك ما الذي كان يفكر فيه؛ كان مستغرقا بالنظر إلى الخارطة يتأمل فيها بطريقة تلائم طفلا واضعا إحدى أصابعه على البلدة التي عاش فيها. كان ينظر في صفحات دليل الهاتف إلى اسم عائلته بين الآخرين. لقد كان كل شيء في مكانه وله ما يبرره في العالم. قال له:

ـ تعال، يجب أن نذهب.

بدأ المطر ينهمر في وقت متأخر بعد الظهر. تحولا عن الطريق إلى حقل عبر طريق قذرة حيث أمضيا ليلتهما تحت سقيفة فيه وفوق أرض مفروشة بالإسـمنت. في الطرف البعيد من السـقيفة يوجد براميل معدنية فارغة. أغلق الفتحات بالبراميل الفارغة جاعلا منها بديلا عن الأبواب ثم أضرم

نـارا فوق الأرض. سـطح على الأرض بعضـ العلب الكرتونية سـطحا كي يتخـذا منها فراشـا لهما. ظل صـوت المطر المنهمر على السـقف المعدني الذي يعلوهما مسـموعا طوال الليل. عندما استيقظ كانت النار قد خمدت وكان الجو شديد البرودة. ألفى الصبي جالسا ملتفا ببطانية.

ـ ماذا في الأمر؟

ـ لا شيء. لقد حلمت حلما مزعجا.

ـ بماذا حلمت؟

ـ لا شيء.

ـ هل أنت على ما يرام؟

ـ لا.

لف ذراعيه حوله وعانقه، وقال:

ـ لا بأس عليك.

ـ كنت أبكي لكنك لم تستيقظ

ـ أنا آسف. لقد كنت شديد التعب.

ـ أعني. هذا ما حدث بالحلم.

عندما اسـتيقظ صـباحا كان قد توقف هطل المطر. جلس ينصت إلى صـوت الماء المتسـرب الذي تجمع من الأمطار. سـحب وركه فـوق الأرض الإسـمنتية القاسـية ونظر إلى الخـارج حيث يمتد الريـف الرمادي. كان الصـبي مـا يزال نائما. تجمعـت مياه الأمطـار فوق الأرض مشـكلة بركا صغيرة جدا موحلة وقذرة. ثمة فقاعات صغيرة تتشكل فوق صفحات الماء،

تنزلق ثم ما تلبث أن تتلاشى. سبق لهما أن ناما في بلدة قابعة عند سفوح أحد الجبال في مكان مماثل وقد أصغيا يومها إلى صوت المطر. كان ثمة مخزن لبيع الأدوية إضافة إلى أشياء ومواد أخرى وهو ذو طراز عتيق. يوجد فيه طاولة طويلة مغطاة بالرخام الأسود، إضافة إلى كراسي من الكروم لها مقاعد من البلاستيك المتكسر وقد رقعت وغطيت بأشرطة كهربائية. أما الصيدلية فقد تعرضت للسلب والنهب وأما المخزن نفسه فقد بقي على حاله ولم تمس محتوياته.

وهو يحتوي على معدات إلكترونية باهظة الثمن معروضة على الرفوف ولم تتعرض للسرقة. وقف يفحص المكان بعناية؛ نثريات، بضائع متنوعة وأدوات صغيرة مختلفة. ما هذه الأشياء؟ أمسك يد الصبي متجها إلى الخارج، لكن الصبي كان قد رآه: إنه رأس بشري موضوع أسفل وعاء جرسي الشكل عند نهاية الطاولة. الرأس مغطى بقبعة مستديرة وهو جاف. العينان ذابلتان ومنكفئتان نحو الداخل بحزن. هل كان يحلم؟ كلا إنه لم يكن يحلم. نهض، جثا على ركبتيه، نفخ بالجمر، سحب أطراف الخشب المحترقة فعادت الحياة إلى النار.

ـ يوجد أناس آخرون صالحون. لقد قلت لي ذلك.

ـ نعم.

ـ فأين هم إذاً؟

ـ إنهم مختبئون.

ـ مختبئون ممَّن؟

ـ إنهم مختبئون بعضهم من بعض.

ـ أكثير عددهم؟

ـ لا ندري.

ـ ولكن تقريبا.

ـ تقريبا. نعم.

ـ هل هذا صحيح؟

ـ نعم. إن هذا صحيح.

ـ ولكن يمكن ألا يكون صحيحا.

ـ أعتقد أنه صحيح.

ـ حسنا.

ـ أنت لا تصدقني.

ـ بل أصدقك.

ـ حسنا.

ـ إني أصدقك دائما.

ـ أنا لا أعتقد ذلك.

ـ نعم أنا أصدقك. علي أن أفعل ذلك.

خاضا بالوحل متجهين إلى الطريق السريع. كان السير عبر الوحول مجهدا وشاقا. جعلت الأمطار الجو مفعما برائحة التراب والرماد المبلل. المياه العكرة تملأ المسارب على جانب الطريق وتمر عبر مجاري المياه القذرة الموجودة تحت الطريق ثم تتجمع مشكلة مستنقعا. يوجد في الفناء أيل بلاستيكي. في وقت متأخر من اليوم اللاحق دخلا بلدة صغيرة. اندفع

ثلاثة رجال من خلف شاحنة واعترضوا طريقهما. انطلقوا فجأة وهم يرتدون أسمالا بالية وأثوابا ممزقة ويحملون بأيديهم مواسير مقطعة. ماذا تحملون بالسلة؟ أشهر المسدس وصوبه نحوهم. توقفوا. تشبث الصبي بمعطفه. لم ينبس ببنت شفة. دفع العربة من جديد واتجها إلى جانب الطريق. جعل الصبي يتولى أمر العربة وتراجع إلى الوراء مصوبا المسدس نحوهم. حاول أن يتصرف كأي مقاتل عادي مهاجر لكن قلبه كان يدق فأدرك أنه على وشك أن تنتابه نوبة سعال. تراجعوا على الطريق إلى الوراء ومكثوا ينظرون. وضع المسدس في حزامه، استدار وأمسك العربة. عندما بلغا قمة المرتفع على الطريق توقف ونظر إلى الوراء. كانوا ما يزالون واقفين حيث هم. طلب من الصبي أن يدفع العربة وذهب إلى فناء خارج الطريق يستطيع من خلاله أن يشرف على المنحدر لكنهم كانوا قد رحلوا. كان الصبي مذعورا. وضع المسدس فوق الغطاء، تولى هو دفع العربة وتابعا المسير.

جلسا في حقل يراقبان الطريق إلى أن هبط الظلام ولكن لم يأت أحد. كان الجو شديد البرودة. عندما اشتدت ظلمة الليل وأمست الرؤية متعذرة دفعا العربة أمامهما عائدين إلى الطريق وهما يمشيان مشية المضطرب. أخرج البطانيات، التفا بها ثم تابعا المسير وهما يتحسسان الأرض بأقدامهما. إحدى عجلات العربة كانت تصر صريرا متكررا ولكن لا سبيل لإصلاحها. استمرا بالمسير وهما يشقان طريقهما بصعوبة وجهد كبير وذلك لعدة ساعات ثم دلفا متعثرين إلى دغل موجود بجانب الطريق، حيث اضطجعا على الأرض الباردة وهما يرتجفان وترتعد أوصالهما من البرد وشدة الإعياء.

ناما حتى الصباح. عندما استيقظ كان مريضا.

أصابته حمى فاضطجعا في الغابات كالمشردين الهائمين على وجوههم. لا يوجد مكان مناسب لإضرام النار. لا يوجد مكان آمن. جلس الصبي بين الأغصان يراقبه. عيناه طافحتان. قال له:

ـ هل أنت على وشك أن تموت يا أبي؟ هل أنت موشك على الموت؟

ـ كلا، أنا مريض. هذا كل ما في الأمر.

ـ أنا خائف حقا.

ـ أعرف ذلك، سوف تكون الأمور على ما يرام وسوف أتماثل للشفاء ولسوف ترى.

أشرقت أحلامه. ها قد عاد العالم الذي تلاشى. أقرباؤه الذين ماتوا منذ أمد بعيد قد غسلوا وجوههم وأيديهم وأخذوا ينظرون إليه بأطراف عيونهم دون أن ينبس أحدهم ببنت شفة. فكر في حياته وعاد بالذاكرة إلى ماضٍ سحيق. كان ذات يوم رمادي في مدينة غريبة واقفا قرب نافذة يشرف من خلالها على الطريق. خلفه منضدة خشبية، مضاءة بمصباح صغير وعلى المنضدة كتب وأوراق. كان المطر قد بدأ ينهمر وثمة قطة في الزاوية استدارت وعبرت الممر الجانبي لتجلس تحت طاولة معدة لشرب القهوة. وكانت توجد هناك امرأة جالسة إلى منضدة وقد جعلت رأسها بين كفيها. بعد سنوات وقف على أطلال مكتبة محترقة منقلبة رأسا على عقب. التقط واحدا من آلاف الكتب المكدسة بعضها فوق بعض في صفوف. قلب بإبهامه صفحاته المفعمة برائحة الدخان. لم يفكر بأصغر شيء يمكن إسناده إلى العالم الذي سيأتي. أصيب بالدهشة. ذلك أن الفراغ الذي

تشــغله هذه الأشــياء كان هو نفسه شــيئا متوقعا. ترك الكتاب يسقط من يــده، ألقى نظرة أخــيرة حوله ثم خرج إلى حيث كان الجو باردا والضــوء رماديا وباهتا.

لم ينم طيلة ثلاثة أو أربعة أيام إلا قليلا حيث كان السعال المسبب لآلام مبرحة يوقظه. ســعاله مترافق مع صــفير وأصوات خشنة تثير الأعصاب. قال للظلام الذي لا يعرف الشفقة:

ـ أنا آسف.

رد الصبي:

ـ لا بأس.

أضــاء الفانوس الصــغير الذي يعمل على الزيت، وضــعه فوق صخرة، ونهضــ ملتفــا بالبطانيات. خرج جــارا قدميه بين الأغصــان جرا. همس الصبي له طالبا منه ألا يذهب. قال له: سأمشي مسافة قصيرة فقط، لن أذهب بعيدا وسوف يكون بوسعي أن أسمعك إن ناديتني. إن انطفأ الفانوس فسيضــل طريقه ولن يســتطيع أن يهتــدي لطريق العــودة. جلس على قمة هضــبة بين الأغصــان ونظر إلى الظلام الذي يحيط به؛ لا شــيء يرى. لا يوجد رياح. عندما كان يخرج في الماضي ـ كما فعل الآن ـ لينظر ويستطلع الريــف الهاجع وســط ظلمة لا تــكاد توفر الحد الأدنى مــن الرؤية، وحيث كان القمــر المتواري يتعقب آثار الأراضــي المقفرة لدرجة تثير الســخرية. كان أحيانا يرى ضــوءا. عالم يلفه الضباب ويسبح بالظلمات؛ لقد ضاعت معالمــه. كان يعود بين وقت وآخر صــباحا وبيده المنظــار فينظر من خلاله إلى الريف بحثا عن أي أثر لدخان ولكن عبثا كان يفعل.

كان واقفا على حافة حقل شتوي بين مجموعة من الفتيان الفلاظ. كانوا في مثل عمر الصبي أو أكبر منه سنا. وقف يراقبهم بينما كانوا ينبشون أرضا صخرية واقعة في منحدر تل مستخدمين لهذه الغاية معولا وفأسا. فإذا هم يكشفون عن مجموعة من صغار الأفاعي يقدر عددها بمئة أفعى صغيرة. كانت قد تجمعت التماسا للدفء الاعتيادي. بدأت تتحرك ببطء شديد بعد أن انكشفت للضوء القاسي البارد. إنها تشبه أحشاء وحش ضخم تعرضت لضوء النهار. صب الفتية شيئا من البنزين فوقها وأحرقوها حية. لم يكن الفتيان ذوي دوافع شريرة لكنهم فعلوا ما فعلوا من أجل متعة النظر أو هكذا كانوا يتخيلون. تلوت الأفاعي على نحو رهيب وبعضها زحف محترقا في كهفه لينير بناره المواضع الأكثر ظلمة التي كان متواجدا فيها. حيث إن الأفاعي كانت خرساء لذا لم يكن ثمة صرخات ألم. ظل الفتيان يراقبونها وهي تحترق وتتلوى وتتفحم وبادلوها صمتا بصمت ثم تفرقوا مع ظلمة أول الليل متوجهين إلى بيوتهم لتناول طعام العشاء وكل منهم يحمل أفكاره الخاصة به.

استيقظ الصبي في إحدى الليالي من حلم لكنه لم يحدثه عنه.

قال الرجل:

ـ ليس عليك أن تخبرني عن الحلم. لا بأس عليك.

ـ أنا خائف.

ـ ستكون على ما يرام.

ـ كلا. لن يكون ذلك.

ـ إنه مجرد حلم.

ـ إني خائف حقا.

ـ أعرف.

أشاح الصبي بوجهه عنه. عانقه الرجل وقال له:

ـ أصغ إلي.

ـ ماذا؟

ـ عندما تكون أحلامك من عالم لم يكن له وجود أو من عالم لن يكون له وجود وبعدها تكون سعيدا من جديد لا ينبغي لك أن تستسلم. هل تفهم؟ إنك لا تستطيع أن تيأس وتستسلم. لن أدعك تفعل ذلك.

عندما استأنفا مسيرهما كان شديد الضعف لدرجة لم يصل إليها منذ سنوات وقد تجلى ذلك من خلال نطقه وكلامه. أصبح قذرا ومصابا بإسهال وأخذ يتكئ على ممسك العربة. صار ينظر إلى الصبي بعينين غائرتين منهكتين. اتسعت المسافة التي باتت تفصل بينهما في أثناء المسير وقد استطاع أن يستشعر ذلك. في غضون يومين اثنين مرا بريف كانت قد أتت عليه عواصف محملة بالحرائق وخلفته محترقا وعلى نطاق واسع. الطريق مغطى بكتلة صلبة متراصة من الرماد تبلغ سماكتها عدة إنشات ويصعب دفع العربة فوقها. لقد تغضن أسفلت الطريق بفعل الحرائق وتثنى فأضحى معوقا للسير عليه. اتكأ على ممسك العربة وألقى نظرة على طول الطريق المنحدر أمامه؛ الأشجار النحيلة، المجاري المائية الرمادية الموحلة والأرض المتفحمة.

في الأرض الجرداء المقفرة وخلف تقاطعات الطرق شرعا يمران بممتلكات وأمتعة شخصية لمسافرين وهي ملقاة على قارعة الطريق منذ

سنوات. علب وحقائب كلها مذوبة ومتفحمة. حقائب بلاستيكية قديمة أتت عليها النار فشوهتها وأفسدت أشكالها. لقد تناثرت هنا وهناك آثار أشياء تم سحبها وكنسها عن الأسفلت. بعد أن قطعا ميلا إضافيا سيرا على الطريق فوجئا برؤية الموتى. جثث نصفها غائص ومغروز بالزفت؛ جثث كان أصحابها قد حاولوا التعلق أو التشبث بأي شيء. أفواه أصحابها مفتوحة تصرخ. قال:

ـ خذ يدي لا ينبغي لك أن ترى هذا المشهد.

ـ ما تضعه في رأسك يبقى فيه إلى الأبد؟

ـ نعم.

ـ حسنا يا أبي.

ـ حسنا!

ـ إنهم موجودون هناك الآن.

ـ لا أريدك أن تنظر.

ـ وسيبقون حيث هم.

توقف واتكأ على العربة. نظر إلى أسفل الطريق ثم نظر إلى الصبي، ومن الغريب جدا أنه لم تظهر على الصبي علامات اضطراب.

قال الصبي:

ـ لماذا لا نستمر في مسيرنا وكفى؟

ـ أجل، حسنا.

ـ لقد كانوا يحاولون أن ينجوا بأنفسهم. أليس الأمر كذلك يا أبي؟

ـ نعم، لقد حاولوا.

ـ لماذا لم يبتعدوا عن الطريق؟

ـ لم يتمكنوا. فقد كان كل شيء يحترق.

شقا طريقهما وسط الجثث الجافة المتغضنة. الجلد المتمطط فوق العظام والوجوه الممزقة المنقبضة ذعرا وألما والغائرة في جماجمها. كأنهم ضحايا انفجار فراغي شنيع. مرا بهم بصمت وصولا إلى مجاز صامت وسط الرماد الذي راكمته الرياح. لقد كان عليهما دائما أن يكافحا برد الطريق وإلى الأبد.

اجتازا موقعا في قرية صغيرة تقع على جانب الطريق، كان قد أتى عليه الحريق فلم يبقِ ولم يذر. بضعة صهاريج تخزين معدنية وبعض المداخن القرميدية المتفحمة التي ما تزال منتصبة. يوجد مخلفات فاسدة رمادية لزجاج مذوب وهي تملأ الحفر. إضافة إلى لفات من الأسلاك الكهربائية غير المستعملة صدئة ملقاة على جانب الطريق ومنتشرة على طول عدة أميال. كان في تلك المنطقة ينتابه السعال مع كل خطوة يخطوها. لقد رأى الصبي كيف كان ينظر إليه. إنه على الحال التي ظن الصبي أنه عليها.

جلسا على الطريق وأكلا آخر ما تبقى لديهما من خبز مقلي، لقد كان يابسا كأنه بسكويت. ثم أكلا آخر علبة من سمك التونة. فتح علبة خوخ مجفف ومررها أحدهما إلى الآخر. أخذ الصبي العلبة وشرب السائل الموجود فيها حتى آخر قطرة. وضع العلبة في حضنه وأخذ يمرر سبابته على محيط العلبة من الداخل ثم يلعقها.

قال الرجل:

ـ لا تقطع إصبعك.

ـ أنت دائما تقول هذا الكلام.

ـ أعرف.

كان ينظر إليه وهو يلعق غطاء العلبة باهتمام بالغ كأنه هرة تلعق ظلها المنعكس على الزجاج. قال له:

ـ كف عن النظر إلي.

ـ حسنا.

طوى غطاء العلبة ووضعه على الطريق أمامه. قال:

ـ ماذا؟ ما هذا؟

ـ لا شيء

ـ أخبرني.

ـ أعتقد أن ثمة شخصا يتتبعنا.

ـ هذا ما دار في خلدي.

ـ أهذا ما دار في خلدك؟

ـ نعم. هذا ما أعتقد أنك ستقوله. ماذا تريد أن تفعل؟

ـ لا أدري.

ـ ماذا تعتقد؟

ـ دعنا نذهب وكفى. علينا أن نخفي القمامة التي خلفناها.

ـ لأنهم سيظنون أن لدينا الكثير من الطعام.

ـ نعم

ـ ولسوف يحاولون قتلنا.

ـ لن يقتلونا.

ـ لكن من الممكن أن يحاولوا فعل ذلك.

ـ نحن على ما يرام.

ـ حسنا.

ـ أعتقد أن علينا أن نضطجع بين الأعشاب؛ كي نتبين هيئتهم التي هم عليها.

ـ وعددهم.

ـ وعددهم. نعم.

ـ حسنا.

ـ إذا استطعنا أن نجتاز النهر الصغير فسنتمكن من اعتلاء الجروف العالية ومن هناك نشرف على الطريق ونراقبه.

ـ حسنا.

ـ سوف نجد مكانا.

نهضا وكوما البطانيات في العربة. قال الرجل:

ـ خذ العلبة.

أمسى الغروب وشيكاً قبل أن يصلا إلى الجسر الذي يعلو النهر الصغير. دارا فوق الجسر ودفعا العربة بين الغابات؛ بحثا عن مكان يتركانها فيه بحيث تتعذر رؤيتها. وقفا ينظران إلى الطريق خلفهما وقد بدأت تتسدل عليه ظلمة أول الليل.

قال الصبي:

ـ ماذا لو وضعناها أسفل الجسر؟

ـ وماذا لو ذهبوا إلى هناك طلبا للماء؟

ـ كم تظنهم يبعدون عنا؟

ـ لا أدري.

ـ إن الظلام يشتد.

ـ أعرف.

ـ ماذا لو مروا بقربنا تحت جنح الظلام؟

ـ دعنا فقط نجد مكانا يمكننا من المراقبة. لمّا يهبط الظلام بعد.

أخفيا العربة وتسلقا المنحدر عبر الصخور حاملين بطانياتهما وأقحما نفسيهما في مكان يمكنهما من رؤية الطريق خلفهما عبر الأشجار. ربما يستطيعان رؤية مسافة تصل إلى نصف الميل. ربضا في مكان يقيهما من الرياح، التفا بالبطانيات وتناوبا على المراقبة، لكن الصبي استسلم إلى النوم بعد برهة. كاد هو نفسه أن ينام، لكنه رأى شخصا يظهر من أعلى الطريق ثم يتوقف عند القمة. ظهر سريعا شخصان آخران ثم انضم إليهم رابع. وقفوا وتجمعوا ثم تقدموا. لقد تمكن من رصدهم وتمييزهم كأشكال بشرية في عتمة الغسق المستحكمة. توقعهم أن يتوقفوا سريعا وتمنى لو أنه وجد مكانا أكثر بعدا عن الطريق. إن توقفوا عند الجسر فسوف تكون ليلة طويلة وباردة. انحدروا مع الطريق ثم عبروا الجسر. ثلاثة رجال وامرأة كانت تتهادى في مشيتها، وفيما كانت تقترب منه اكتشف أنها حامل. الرجال يحملون حقائب خلف ظهورهم والمرأة تمسك

بيدها حقيبة صغيرة مصنوعة من قماش. كان البؤس باديا عليهم جميعا لدرجة يعجز الكلام عن وصفها. كانت أنفاسهم تطلق بخارا ناعما في الهواء. عبروا الجسر وتابعوا السير إلى أن غابوا عن النظر الواحد تلو الآخر وغاصوا في لجة الظلام المقيم.

كانت ليلة طويلة على كل حال. عندما احتشد من الضوء ما يسمح بالرؤية انتعل حذاءه ونهض ملتفا بإحدى البطانيات ثم خرج وألقى نظرة على الطريق المنحدر أمامه: أشجار عارية مصطبغة بلون الحديد والحقول خلفها. أشكال متموجة ومتجعدة لحاويات قديمة لا تكاد ترى، ربما كانت مستوعبات قطن. كان الصبي نائما. نزل إلى حيث توجد العربة، أخرج الخارطة وقارورة ماء، إضافة إلى علبة فاكهة من مخازنها الصغيرة ثم قفل عائدا وجلس على البطانيات وشرع يتفحص الخارطة.

ـ أنت تعتقد دائما أن لدينا أكثر مما هو موجود بالفعل.

حرك إصبعه. هنا إذاً.

ـ أكثر.

ـ هنا.

ـ حسنا.

طوى الصفحات الرخوة والعفنة وقال: حسنا.

جلسا ينظران إلى الطريق من خلال الأشجار.

هل تظن أن آباءك يراقبون؟ وهل يَزِنُونَكَ بموازين كتابهم؟ بماذا يزنون؟ ليس ثمة كتاب. آباؤك موتى في الأرض. ويمتد الريف بين شجرة

صنوبر وشجرة بلوط وشجرة صنوبر أخرى. نباتات المغنولية. أشجار ميتة كغيرها. التقط أحد الأغصان الثقيلة، سحقه بيده ثم ترك المسحوق ينخل بين أصابعه.

كانا على الطريق في وقت مبكر من صباح اليوم اللاحق، ولم يكونا قد ذهبا بعيدا عندما أمسك الصبي كم الرجل وشده. توقفا. ثمة عمود رفيع من الدخان يرتفع بين الغابات الممتدة أمامهما. وقفا يراقبانه.

ـ ما الذي ينبغي علينا عمله يا أبي؟

ـ ربما يجب علينا أن نلقي نظرة.

ـ بل دعنا نستمر بالمسير.

ـ وماذا لو كانوا يسلكون الطريق ذاتها التي نسلكها؟

قال الصبي:

ـ وماذا في ذلك؟

ـ سوف نجعلهم يسيرون خلفنا.

ـ وماذا لو كانوا جيشا؟

ـ إنها مجرد نار صغيرة.

ـ لماذا لا نكتفي بالانتظار؟

ـ لا نستطيع أن ننتظر. فقد نفد طعامنا أو كاد. علينا أن نستمر بالمسير.

تركا العربة في الغابات وفحصا دوران الطلقات الموجودة في الأسطوانة الخشبية منها والحقيقية ثم وقفا ينصتان. كان الدخان عموديا، إذ إن الهواء هادئ وساكن ولا يوجد صوت من أي نوع. الأغصان طرية، فقد

تشبعت بالأمطار التي هطلت مؤخرا ولم تكن تصدر أصواتا عند وطئها. التفت ونظر إلى الصبي. الوجه الصغير القذر قد اتسع وكبر خوفا. دارا حول النار من مسافة بعيدة. الصبي متشبث بيده. انحنى نحوه ولف ذراعه حوله.

مكثا منصتين ردحا طويلا من الزمن. قال هامسا:

ـ أظن أنهم ذهبوا.

ـ ماذا؟

ـ أعتقد أنهم ذهبوا. ربما يقومون الآن بجولة حراسة ومراقبة.

ـ ربما يكونون قد نصبوا لنا فخا يا أبي.

ـ حسنا. دعنا ننتظر وقتا قصيرا.

ـ انتظرا. تمكنا من رؤية الدخان من خلال الأشجار. بدأ هبوب الريح فاضطرب عمود الدخان عند الذروة فتحرك واستطاعا أن يشما رائحته. شما رائحة شيء ما يُطّبخ. قال الرجل:

ـ دعنا ندر دورة حول المكان.

ـ هل أستطيع أن أمسك يدك.

ـ نعم. طبعا يمكنك ذلك.

كانت الغابات قد أضحت جذوع أشجار محروقة. لا يوجد شيء يرى. قال الرجل:

ـ أعتقد أنهم رأونا فهربوا. لقد شاهدوا المسدس.

ـ وتركوا طعامهم يُطّبخ.

ـ نعم.

ـ دعنا نلق نظرة.

ـ إن الوضع مخيف حقا يا أبي.

ـ لا يوجد أحد هنا. كل شيء على ما يرام.

سارا عبر أرض صغيرة مقطوعة الشجر. الصبي متشبث بيده. لقد أخذوا معهم كل الأشياء باستثناء شيء أسود متفحم مثبت على سيخ وموضوع فوق الجمر. كان يراقب محيط المكان ويتفحصه عندما استدار الصبي ودفن رأسه في جسد الرجل. نظر بسرعة؛ كي يرى ما حصل، وقال:

ـ ماذا في الأمر؟ ماذا في الأمر؟

هز الصبي رأسه وقال:

ـ أوه يا أبي.

التفت ونظر من جديد. ما رآه الصبي كان طفلا بشريا مقطوع الرأس، منزوع الأحشاء وقد أضرمت النار تحته حتى تفحم. انحنى، التقط الصبي، سار به نحو الطريق وهو يضمه ويعانقه وهمس قائلا:

ـ أنا آسف. أنا آسف.

لم يكن يعلم إن كان سيتكلم بعدها. خيما قرب نهر وجلسا حول النار يصغيان إلى أصوات المياه الجارية تحت جنح الظلام. لم يكن المكان آمنا، فصوت النهر كان طاغيا على ما سواه من أصوات، لكنه قال في نفسه: إن المكان سينعش الصبي. أكلا آخر ما تبقى لديهما من مؤن وطعام وجلسا

يتفحصـان الخارطة. قاس الطريق بقطعة من سـلك ونظـر إليه ثم أعاد قياسـه. مازالت المسافة التي تفصلهما عن الساحل بعيدة إنه لا يعلم ماذا سـيجدان عندما يصـلان إليه. جمع أجزاء الخارطة، أعادها إلى الكيس البلاستيكي وجلس يحدق بالجمر.

في اليـوم اللاحـق اجتازا النهر عبر جسـر حديدي ضـيق ودخلا بلدة صـغيرة فيها طاحون قديمة. سـارا بين البيوت الخشـبية لكنهما لم يعثرا على شـيء. رجل جالس في مدخل مبنى مسقوف بثيابه كان قد مضى على موته سـنوات. لقد بدا وكأنه يتأهب لإعلان عن عطلة ما. سـارا بمحاذاة حائـط المطحنـة الطويل والمعتـم. أطر نوافذهـا محاطـة بالقرميد. كان السخام الأسود الناعم يهب وينطلق أمامهما على طول الطريق.

توجد أشياء مبعثرة على جانب الطريق. أدوات كهربائية، أثاث وعدد. أشـياء خلفهـا مهاجرون علـى الطريق منذ أمـد بعيد بعـد أن ماتوا موتا جماعيا وبأشكال مختلفة.

حتى سنة مضت كان الصبي يلتقط أحيانا شيئا ما ويحتفظ به مدة من الزمن لكنه لم يعد يفعل ذلك. جلسا ليستريحا وشربا آخر ما تبقى معهما من ماء عذب وتركا العبوة البلاسـتيكية على قارعة الطريق. قال الصبي: لو حصلنا على ذاك الطفل الصغير لكان بإمكانه أن يذهب معنا.

ـ نعم، كان يمكنه ذلك.

ـ أين وجدوه؟

لم يجب.

ـ هل من المحتمل وجود طفل آخر في مكان ما؟

ـ لا أعرف. لكن هذا ممكن.

ـ أنا آسف لما قلته عن أولئك الناس.

ـ أي أناس؟

ـ أولئك الملقون على قارعة الطريق الذين أحرقوا.

ـ إن ما أعرفه أنك لم تقل شيئا سيئا بحقهم.

ـ لم يكن ما قلته سيئا. هل نستطيع أن نذهب الآن؟

ـ حسنا. هل تريد أن تركب العربة الآن؟

ـ حسنا.

ـ لماذا لا تركب برهة من الزمن؟

ـ لا أريد ذلك. يلائمني ألا أفعل.

مياه راكدة في الريف الشاسع. المستنقعات والأراضي الموحلة على جانب الطريق رمادية اللون ولا حراك فيها. أنهار ساحلية رديئة، بطيئة الحركة وتثير الكآبة تمر عبر أراضٍ خربة. استمرا في المسير. يوجد على الطريق أمامهما منحدر وأجمة قصب. قال:

ـ أعتقد أن جسرا موجوداً هناك. جدول ماء ربما.

ـ هل نستطيع أن نشرب من الماء؟

ـ لا خيار لنا.

ـ ألن تجعلنا المياه نصاب بمرض؟

ـ لا أظن. من الممكن أن تكون جافة.

ـ هل أستطيع أن أمضي قدما؟

ـ طبعا، لك ذلك.

بدأ الصبي بالنزول عن الطريق. لم يره يعدو منذ زمن بعيد. كان يشق طريقه بمرفقيه ويضرب الأرض بحذاء التنس الذي ينتعله؛ حذاء أكبر حجما مما يلائم قدميه. توقف ينظر فيما حوله وهو يعض على شفته.

الماء يزيد قليلا عن جدول صغير. رآه يتدفق خفيفا ثم يتسرب تحت الطريق عبر مكعب إسمنتي. شرع يضرب صفحة الماء بيده وينظر ليرى إن كان الماء يتحرك. أخرج قطعة قماش وإناء بلاستيكيا من العربة ثم رجع ولف القماش على فوهة الإناء وغمره بالماء وهو ينظر إليه إلى أن امتلأ. أخرجه والماء يقطر منه. أمسك به ودفعه حيث الضوء. لا يبدو أنه شديد السوء. أزاح القماش وناول الإناء للصبي، قائلا:

ـ هيا.

شرب الصبي وأعاد الإناء.

ـ اشرب المزيد.

ـ اشرب أنت شيئا من الماء يا أبي.

ـ حسنا.

جلسا يصفيان الماء من الرماد ويشربان حتى لم يعودا يطيقان شرب المزيد. استلقى الصبي على ظهره فوق العشب.

ـ علينا أن نرحل.

ـ أنا تعب حقا.

ـ أعرف.

جلس ينظر إليه. لم يذوقا طعاما منذ يومين. يومان آخران دونما طعام كفيلان بإضعافهما. تسلق الضفة عبر القصب؛ ليتفحص الطريق. الريف المفتوح على مدى البصر معتم ومتفحم ولا أثر لمخلوق فيه. كانت الريح قد كنست الرماد والغبار من على السطح. أراضٍ كانت يوما غنية خصبة أما الآن فليس ثمة مؤشر على وجود حياة في أي مكان. ليس هذا هو الريف الذي عرفه. أسماء البلدات والأنهار. قال:

ـ هيا، علينا أن نذهب.

ناما زمنا طويلا، بيد أنهما أفاقا غير مرة ليجدا نفسيهما متمددين على الأرض وباسطين ذراعيهما وقدميهما كأنهما ضحيتان من ضحايا حوادث السير. إنه نوم الموت. جلس منتصبا وتحسس المكان حوله بيده؛ بحثا عن المسدس. وقف وقت المساء الثقيل المرهق مسندا مرفقيه إلى ممسك العربة ومجيلا النظر عبر الحقول. شاهد بيتا يبعد عنه مسافة الميل تقريبا. كان الصبي هو الذي رآه. كان يتنقل من خلف سيارة إلى الأمام في بيت يشبه السخام؛ لقد كان ذلك حلما مشكوكا فيه وغير مؤكد الحدوث. اتكأ على العربة ونظر إليه، إن الوصول إلى البيت يتطلب منهما جهدا. أخذا البطانيات وأخفيا العربة في مكان على الطريق. وصلا إلى بيت قبل الظلام لكنهما لم يتمكنا من العودة.

ـ علينا أن نلقي نظرة فليس لنا خيار.

ـ لا أريد أن أفعل.

ـ لم نأكل منذ أيام.

ـ لست جائعا.

ـ لا لست جائعا بيد أنك تعاني من مجاعة.

ـ لا أريد أن أذهب إلى هناك يا أبي.

ـ لا يوجد أحد هناك. أنا أعد بهذا.

ـ وكيف لك أن تعرف؟

ـ أعرف وكفى.

ـ من المحتمل أن يكونوا في الداخل.

ـ لا، ليسوا في الداخل. سوف تكون الأمور على ما يرام.

عبرا الحقول ملتحفين بالبطانيات وهما يحملان المسدس وقارورة ماء فقط. كان الحقل قد حرث وقلبت تربته مرة أخيرة. لذا كان يوجد فيه بذيرات وسويقات نبات باقية من مخلفات الزرع بعد الحصاد وقد نتأت من التربة. مازال يرى أثر ضعيف خلفه المحراث على الأرض وهو يمتد من الشرق إلى الغرب. كانت قد أمطرت مؤخرا فالتربة مازالت رطبة وطرية. أبقى عينه على الأرض ولم يكن قد مضى وقت طويل حين توقف والتقط رأس سهم من الأرض. نقر عليه، أزال عنه ما كان عالقا به، مسحه ونظفه ثم أعطاه للصبي. إنه مصنوع من معدن الكوارتز الأبيض وهو في حالة ممتازة كالتي كان عليها يوم صناعته. قال:

ـ يوجد المزيد. انظر إلى الأرض وسوف ترى.

وجد اثنين آخرين. صوان رمادي اللون. ثم وجد قطعة معدنية أو هي عبارة عن زر. يوجد على القطعة قشرة سميكة من الصدأ الذي يتشكل على النحاس عادة. أزال ما عليها بظفر إبهامه. أخرج سكينه ونظف نقشها مما علق به بعناية. الكتابة التي عليها منقوشة بأحرف إسبانية.

شرع ينادي الصبي وهو يمشي مجهدا ويجر قدميه جرا إلى الأمام. أجال نظره في الريف الرمادي وفي السماء الرمادية ورمى القطعة النقدية المعدنية أرضا ثم حث الخطى؛ حتى لا يدركه الوقت.

وقفا قبالة البيت ينظران إليه. يوجد درب مفروش بالحصى يصل بين الطريق الرئيسة والبيت وهو ينعطف جنوبا. غرفة مفتوحة الجانب ومبنية من القرميد وسلم مزدوج يؤدي إلى الرواق الذي يرتفع سقفه على أعمدة عند مدخل البيت. في المؤخرة يوجد مبنى صغير مبني من القرميد وهو ملحق بالمبنى الرئيس ربما كان فيما مضى مطبخا. خلف الملحق يوجد كوخ من خشب. همَّ بصعود السلم إلا أن الصبي سحبه من كمه.

ـ هل نستطيع أن ننتظر برهة من الوقت؟

ـ حسنا. لكن الظلام بدأ يخيم.

ـ أعرف.

ـ حسنا.

جلسا على درجات السلم، وهما ينظران إلى الريف الممتد أمامهما.

قال الرجل:

ـ لا يوجد أحد هنا.

ـ حسنا.

ـ أما زلت خائفا؟

ـ نعم.

ـ نحن بخير.

ـ حسنا.

اعتليا السلم إلى الرواق العريض المسقوف والمرصوف بالقرميد. كان الباب مفتوحا وهو مطلي باللون الأسود وتكسوه طبقة رمادية. خلف الباب يوجد أغصان يابسة وأعشاب جافة كانت قد كنستها الرياح فجمعتها هناك. قبض الصبي على يده وتشبث بها بإحكام وقال: لماذا ترك الباب مفتوحا يا أبي؟

ـ إنه مفتوح. هذا كل ما في الأمر. من الممكن أن يكون مفتوحا هكذا منذ سنوات. ربما تركه آخر من كان هنا من الناس مفتوحا؛ كي يخرجوا أمتعتهم.

ـ أعتقد أن علينا الانتظار حتى يوم الغد.

ـ تعال. سوف نلقي نظرة خاطفة قبل أن يشتد الظلام وتستحكم العتمة. إن استطعنا أن نؤمن المكان وأن نطمئن إليه فسيكون بوسعنا أن نضرم فيه نارا.

ـ لكننا لن نمكث داخل البيت. أليس كذلك؟

ـ ليس علينا أن نبقى في البيت.

ـ حسنا.

ـ دعنا نشرب جرعة ماء.

ـ حسنا.

تناول القارورة من جيب حقيبته الجانبي، فتح غطاءها ووقف ينظر إلى الصبي، وهو يشرب ثم شرب هو نفسه وأعاد لها الغطاء. أمسك يد الصبي ودلفا إلى القاعة المعتمة؛ سقف عالٍ وثريا مستوردة. عند منبسط السلم توجد نافذة طويلة إغريقية الطراز. كان ظلها الباهت الذي شكله آخر ضوء النهار منعكسا على بيت السلم. همس الصبي:

ـ لا يتحتم علينا أن نصعد إلى الدور العلوي. أيجب علينا أن نفعل؟

ـ كلا، ربما يوم غد.

ـ بعد أن نؤمن المكان ونطمئن إليه.

ـ نعم.

ـ حسنا.

دخلا غرفة الاستقبال. يوجد على الأرض سجادة ضاعت معالمها، حيث غطتها طبقة الرماد الذي أصبح طميا. الأثاث مغطى بأغطية معدة لهذا الغرض. الجدران مغطاة برقع توحي بأنها كانت فيما مضى مطلية. في الجانب الآخر من الغرفة يوجد بيانو ضخم. أشكال الأشياء منعكسة على زجاج النافذة الرقيق. دخلا ثم وقفا صامتين. طافا حول الغرف وجالا فيها وتفحصاها كما يفعل الراغبون في شراء بيت. وقفا ينظران إلى خارج المنزل من خلال النوافذ المشرعة؛ إلى حيث الأرض التي تبتلعها العتمة.

يوجد في المطبخ سكاكين مائدة وقدور طبخ وآنية من الخزف الإنكليزي الفاخر. كما يوجد غرفة صغيرة بين المطبخ وحجرة الطعام، حيث الباب أغلق برفق خلفهما. أرض مكسوة بالقرميد وصفوف من الأرفف عليها عدة دزينات من المرطبانات التي يتسع كل منها لربع غالون. اجتاز الغرفة، التقط الفلفل الأحمر بين الصفوف المرتبة بشكل منظم. طماطم، ذرة، بطاطس طازجة وبامية. كان الصبي ينظر إليه. مسح الرجل الغبار الذي يعلو أغطية المرطبانات وضغطها بإبهامه. الظلام يشتد سريعا. أخذ مرطبانين، مشى بهما صوب النافذة، رفعهما إلى أعلى وأدارهما. نظر إلى الصبي وقال:

ـ يمكن أن يكونا مسـمومين. يجب أن نطهو كل شـيء بشكل جيد حقا. هل يستقيم الأمر هكذا؟

ـ لا أعرف.

ـ ماذا تريد أن تفعل؟

ـ أنت من يجب عليه أن يقول.

ـ علينا كلينا أن نقول.

ـ هل تظن أنه لا بأس فيهما.

ـ أعتقد إن طهوناهما بشكل جيد فعلا، فلا ضير منهما.

ـ حسنا. لماذا لم يقدم أحد على تناول هذه الأطعمة حسب رأيك؟

ـ أظن أن أحدا لم يعثر عليها. لا يمكنك رؤية البيت من الطريق.

ـ نحن رأيناه.

ـ أنت الذي رأيته.

تفحص الصبي المرطبانات.

قال الرجل:

ـ ما رأيك؟

ـ أعتقد أن لا خيار لنا.

ـ وأنـا أعتقد أنـك علـى حـق. فلنحتطب شـيئا من الحطـب قبل أن تستحكم العتمة.

حمـلا ما اسـتطاعا حمله من الأغصـان الميتة واعتليا السـلم الخلفي مرورا بالمطبخ ووصولا إلى حجرة الطعام. كسرا الأغصان، بحيث جملاها

بأطوال مناسبة ثم وضعاها في الموقد حتى امتلأ. أشعل النار فتصاعد منها الدخان ملتفا حول عتبة الخشب المطلية وصولا إلى السقف ثم عاد وهبط من جديد. هوّى اللهب مستخدما مجلة لهذا الغرض وسرعان ما بدأت المدخنة تشرق الدخان. اشتعلت النار فعلا حسيسها في الغرفة وأضاءت الجدران والسقف والسطوح الصغيرة لمكونات الثريا التي لا تعد ولا تحصى. أضاءت النار زجاج النافذة المعتم حيث كان الصبي واقفا مغطى بقلنسوة تستر الرأس والعنق ومظللا، إنه يشبه قزما خرافيا تمخض الليل عنه. بدا مصعوقا ومذهولا بالحرارة كأنما فقد صوابه. سحب الرجل الأغطية عن الطاولة الإمبراطورية الطويلة الموضوعة في وسط الغرفة. نفض الغبار عنها ومدها على الأرض قبالة الموقد جاعلا منها مستراحا يتلمس عليه الدفء. أجلس الصبي على الأرض وخلع نعليه عن قدميه ونزع الأسمال البالية القذرة التي كانت حولهما. همس الصبي قائلا:

ـ كل شيء على ما يرام. كل شيء على ما يرام.

وجد في أحد أدراج المطبخ شموعا. أضاء اثنتين منها، أذاب شيئا من الشمع فوق الطاولة و ثبت الشمعتين فوق الشمع المذوب. خرج واحتطب المزيد ثم كوم ما جمع من حطب قرب الموقد. تسمر الصبي في مكانه ولم يتحرك. يوجد في المطبخ قدور وأوعية تستعمل للقلي. أخذ واحدة منها، مسحها ووضعها على الطاولة ثم حاول أن يفتح أحد المرطبانات فلم يفلح. حمل مرطبانا يحتوي على فاصوليا خضراء وآخر على بطاطس وتوجه بهما صوب الباب الأمامي مستعينا بضوء شمعة منتصبة في كأس. جثا على ركبتيه، أزاح أحد المرطبانين جانبا ووضعه بين الباب وعضادته ثم سحب الباب. بعد ذلك جلس على أرض البهو، مد رجله وثبت قدمه فوق

حافة الباب الخارجي ثم سحبها ضد الغطاء وحرك المرطبان بكلتا يديه حركة دائرية. انعطف الغطاء المنعقد فدخل في الخشب مزيلا عنه طبقة الطلاء. أمسك زجاج المرطبان بقوة وبإحكام، سحب الباب وشده ثم أعاد المحاولة. انزلق الغطاء في الخشب قليلا وتوقف. أدار المرطبان ببطء بكلتا يديه وتناوله من حيث كان عند عضادة الباب؛ نزع عنه الحلقة المحيطة بالغطاء و وضعه على الأرض. فتح المرطبان الثاني، التقطهما معا، نهض وعاد بهما إلى المطبخ حاملا بيده الأخرى الشمعة الموضوعة في الكأس. حاول أن يفتح غطاءي المرطبانين نقفا بإبهامه لكنهما كانا محكمي الإغلاق فقال في نفسه: إن هذا مؤشر جيد. ثبت الغطاء على حافة الطاولة وضغط عند أعلى المرطبان بشدة مستخدما قبضة يده. انقذف الغطاء وسقط على الأرض وقد أحدث ارتطامه عليها صوتا قويا. رفع المرطبان وشم ما بداخله؛ رائحته شهية. سكب حبات البطاطا والفاصوليا في مقلاة، حمل المقلاة إلى حجرة الطعام ووضعها على النار.

سكبا الطعام في زبادٍ صينية مصنوعة من العاج وأكلا بأناة بعد أن جلسا حول الطاولة متقابلين وبينهما شمعة واحدة مضاءة. كان المسدس موضوعا على الطاولة وفي متناول اليد وكأنه من أدوات العشاء. أمسى البيت الذي بدأ ينعم بالدفء يئن كأنما هو مخلوق يجري استدعاؤه واستعادته من سبات عميق طويل. تداعى الصبي للسقوط وانحنى فوق زبديته نعاسا ونوما وارتمت ملعقته على الأرض فقعقعت عليها. نهض الرجل، دار حول الطاولة، حمل الصبي ووضعه قرب الموقد فوق أغطية كانت على الأرض وغطاه بالبطانيات.

لا بد أنه كان قد عاد إلى الطاولة، إذ إنه أفاق ليلا فوجد نفسه مضطجعا ومستندا إليها وقد جعل وجهه بين ذراعيه المتصالبتين. كان الجو باردا في الغرفة كما كانت الريح تعصف في الخارج. النوافذ تهتز اهتزازا خفيفا ضمن أطرها فتسمع أصوات احتكاكها بها. انطفأت الشمعة و استحالت النار جمرا. نهض، بنى النار من جديد وعززها ثم جلس قرب الصبي، سحب البطانيات فوقه وغطاه بها ومس شعره المتسخ بأصابعه مسا رفيقا وقال: أعتقد أنهم ربما كانوا يراقبون. إنهم يراقبون؛ كي يتبينوا أمرا لا يستطيع حتى الموت أن يفسده وما لم يتمكنوا من رؤيته فلسوف ينصرفون عنا ويرحلون إلى غير رجعة.

تمنى الصبي عليه ألا يصعد إلى الدور العلوي فحاول أن يقنعه بالحجة والمنطق. قال له:

ـ من المحتمل أن نجد بطانيات في الدور العلوي. يتعين علينا إلقاء نظرة.

ـ لا أريدك أن تصعد إلى الدور العلوي.

ـ لا يوجد أحد هنا.

ـ يحتمل وجود أحد.

ـ لا يوجد أحد هنا. أولا تعتقد أنه لو كان يوجد أحد لكان قد نزل إلينا؟

ـ ربما هم خائفون.

ـ سأخبرهم بأننا لن نصيبهم بأذى.

ـ ربما يكونون في عداد الموتى.

ـ عندها لن يمانعوا إن نحن حصلنا على أشياء قليلة. انظر، مهما يكن من أمر في الدور العلوي فإنه خير لنا أن نعلم عنه من ألا نعلم.

ـ لماذا؟

ـ لماذا؟ حسنا، لأننا لا نحب المفاجآت فالمفاجآت مخيفة ونحن لا نريد أن ينتابنا الذعر. من الجائز أيضا أن نجد أشياء في الدور العلوي نحن بحاجة إليها. ينبغي علينا أن نلقي نظرة.

ـ حسنا.

ـ حسنا؟ أهكذا فقط؟

ـ حسنا، أنت لا تنوي الاستماع إلي.

ـ أنا كنت مصغيا إليك.

ـ ليس على النحو الذي ينبغي.

ـ لا يوجد أحد هنا الآن ولم يكن أحد موجودا هنا لسنوات خلت. لا يوجد آثار فوق الرماد ولم يتم العبث بأي من الأشياء الموجودة هنا. لا يوجد أي شيء من الأثاث محترق في الموقد. كما أنه يوجد طعام هنا.

ـ الآثار لا تعمر ولا تصمد بالرماد. أنت نفسك من قلت هذا فالرياح تطمس الآثار.

ـ أنا ذاهب إلى الطابق العلوي.

مكثا في البيت أربعة أيام يأكلان وينامان. وجد في الدور العلوي المزيد من البطانيات. سحبا إلى داخل البيت أكداسا كبيرة من الحطب وكوماها في زاوية الغرفة؛ كي تجف. وجد منشار خشب قديما وسلكا فاستعملهما في نشر حطب الأشجار الميتة وجعلها بأطوال مناسبة. أسنان المنشار كانت صدئة ومتثلمة فجلس قبالة النار يشحذها بواسطة مبرد شحذا خفيفا؛ لأنه يريد استعمال المنشار لغرض بسيط ومحدد. يوجد جدول ماء في مكان

يبعد بضـع مئات من الأمتار عن المنزل. جر كميات كبيرة من المياه معبأة في دلاء عبر الحقول الموحلة إلى المنزل. سخنا ماء واستحما في حوض قائم جانب غرفة النوم الخلفية في الطابق السـفلي. قص شـعر الصبي وشعره وحلق ذقنه. أحضـرا ملابس وبطانيات ووسائد من غرف الطابق العلوي. لبسـا ملابس جديـدة تلائم جسـديهما وقص بسـكينه بنطال الصـبي، بحيـث جعـل طوله مناسـبا. هيأ مسـتراحا مقابل الموقد بـأن قلب خزانة ملابس جاعلا منها سـريرا من ناحية وحاجزا يحفظ الحرارة من ناحية أخرى. كان المطر يهطل طوال الوقت وبشكل مستمر. وزع دلاء وجعلها عند زوايا البيت تحت المزاريب؛ كي يجمع ماء عذبا من الذي يقطر من السقف المعدني. كان يسمع ليلا صوت قطرات المطر المتساقطة فوق غرف الطابق العلوي وأصواتها، وهي تقطر سائلة عبر المنزل.

فتشا المباني الملحقة بالمنزل تفتيشا دقيقا وفحصاها بدقة؛ بحثا عن أي شـيء يكون ذا نفع. عثر على عجلة يد، سـحبها وأمالها. أدار العجلة برفق وأناة وفحصـ إطارها فوجد مطاطه معطوبا لكنه مـال إلى الاعتقاد بأنه مـن الممكن أن يحجز الهواء وأن يحتفظ بـه. بحث في العلب القديمة وبين العدد المختلطة والمبعثرة بغير انتظام فوجد مضخة هواء خاصة بالعجلات الهوائية. ثبت نهاية الخرطوم فوق صـمام إطار العجلة وبدأ يضـخ الهواء فتسـرب الهواء من حول الصمام. قلب العجلة وطلب من الصبي أن يثبت العجلة بإحكام وضخ فيها هواء. نزع الخرطوم عن الصمام ثم قلب العجلة وجعلها تستوي على الأرض. دحرجها إلى الأمام و جذبها إلى الخلف. بعد ذلك دفع بها إلى الخارج، موكلا إلى المطر مهمة تنظيفها.

عندما رحلا عن البيت بعد يومين كان الجو صـــحوا. سارا عبر الطريق الموحلة يدفعـــان العجلة أمامهما وقد تزودا ببطانيات جديدة وارتديا ثيابا إضافية وأخذا زادا من الأطعمة المعلبة والمعبأة في مرطبانات. كان قد عثر علـــى حذاءين من أحذية العمل بينما كان الصـــبي ينتعل حذاء تنس أزرق اللون بعد أن لف طبقات من القماش حول أصابع قدميه. أحضرا من البيت قماشـــا جديدا اتخذا منه لثامين لوجهيهما. عندما بلغا الطريق المســـفلتة كان عليهما أن يســـلكاها رجوعا؛ كي يبحثا عن العربة إلا أن المسافة كانت دون الميل. سار الصبي على طول الطريق واضعا إحدى يديه على العربة.

قال:

ـ لقد أبلينا بلاء حسنا. ما رأيك يا أبي؟

ـ نعم، حسنا فعلنا.

كانا يأكلان بشكل جيد، لكن المسافة التي تفصلهما عن الساحل مازالت طويلـــة. لقد أدرك أنه يمني النفس بآمال ليســـ لها ما يبررها. كان يتمنى أن تصبح الأيام أكثر إشراقا وهو مدرك أنها تمسي أشد ظلمة. وجد ذات مرة جهازا لقياس شـــدة الضوء في مخزن لبيع كاميرات التصوير وأمل أن يســـتخدمه لقياس متوسط شدة الضوء عدة أشهر. احتفظ به زمنا طويلا علـــى أمل أن يعثر على بعض البطاريات لتشـــغيله، لكنه لم يتمكن من ذلك أبدا. عندما أيقظته نوبة ســـعال انتابته ليلا ضـــغط بيده على رأسه وجلس مســـتقبلا العتمـــة كأنه رجـــل أفاق في مقـــبرة. مثله مثل الموتـــى الخارجين مـــن قبورهم. منذ نعومة أظفاره أعيد تموضـــعه ليقيـــم على قارعة طريق ســـريعة. لقد أجهزت جائحة الكوليرا على الكثيرين، فدفنوا على عجل في

صـناديق خشبية. تلك الصـناديق كانت عفنة ففتحت. انكشف الموتى إلى الضوء فبانوا مضطجعين على جنوبهم وقد سحبت أرجلهم إلى أعلى وكان بعضـهم ممددين على بطونهم. النحاس القديم الأخضر الباهت منسكب من محاجر عيونهم على أرضيات الأكفان العفنة والملطخة.

توقفـا بمخـزن للبقالة في بلدة صـغيرة حيث كان رأسـ أيل معلقا على الجـدار. وقف الصـبي ينظر إليـه زمنا طويـلا. ثمة زجاج متكسـر على الأرض. طلب الرجل من الصبي أن ينتظر عند الباب، بينما شق هو طريقه وسـط النفايات وهو يبعدها بواسطة حذاء العمل الذي كان قد انتعله. بيد أنه لم يعثر على شيء. مضختا بنزين كانتا قائمتين في الخارج. جلسا على الغطاء الإسـمنتي ودليا علبة صـغيرة مقصـدرة، كانا قد ربطاها بسلك، إلى قـاع الخزان الموجود تحـت الأرض ثم سـحباها إلى الأعلى فإذا فيها ملء كوب من البنزين؛ فرغاه في وعاء بلاستيكي ثم دليا العلبة من جديد. ربطا قطعة صـغيرة من ماسـورة بالعلبة؛ كي تغرقها بالبنزين. جثما فوق الخزان قرابة سـاعة من الزمن كأنهما قردان يصيدان بالعصي في كثيب تنشـئه النمل عند حفر مسـاكن لها إلى أن امتلأ الوعـاء بالبنزين. أغلقا الوعاء بسدادته ووضعاه في قاع العربة ثم مضيا إلى سبيلهما.

أيـام طويلة، ريف مفتوح وعواصـف محملة بالرماد تهب على الطريق. جلس الصـبي قـرب النار ليلا وقد وضـع أجـزاء الخارطـة الممزقة فوق ركبتيه. لقد حفظ أسماء البلدات الصغيرة وأسماء الأنهار عن ظهر قلب. كان يقيس التقدم الذي يحرزانه يوميا.

باتا يأكلان باقتصـاد شديد فقد نفد ما لديهما من طعام أو كاد. وقف الصـبي في الطريق ممسـكا الخارطة. ما انفك يرى أمامـه ريفا مفتوحا

لجهة الشرق وقد أضحى الهواء مختلفا. أطلا على الريف فجأة من منعطف على الطريق فتوقفا وإذا بالرياح المالحة تعصف بشعرهما. تحرر كل منهما من القلنسوة التي تغطي رأسه ووقفا منصتين. شاهدا الشاطئ الرمادي وموجات طويلة بطيئة ومتكسرة ولا بريق لها؛ موجات باهتة تثير الكآبة في النفس، وكان صوت الموج يتناهى إلى سمعهما من مكانه البعيد. كبحر غريب منفر أصابه التوحد. أمواجه تتكسر على شواطئ في عالم لم يسمع باسمه أحد من قبل. على السطوح الشاسعة القائمة بين المد والجزر تقبع سفينة مائلة ونصف غارقة. وخلفها يمتد المحيط الفسيح واسع المدى باردا ومتثاقلا كأنه وعاء ضخم مترع بمخلفات قذرة جاءت بها الرياح العاصفة المحملة بالثلوج والأمطار. أما في الأفق فقد ارتسم خط عريض بلون الرماد. استطاع أن يرصد الخيبة جلية على وجه الصبي. قال: أنا آسف. إنه ليس ذا لون أزرق.

قال الصبي: لا بأس.

بعد ساعة من الزمن كانا جالسين على الشاطئ يحدقان بجدار الدخان الضبابي الذي يسد الأفق. جلسا وقد غاصت أقدامهما في الرمال يشاهدان البحر الأجرد المكشوف والشديد البرودة، بينما كانت مياهه تغسل أقدامهما. بحر بارد مقفر هجرته الطيور. كان قد ترك العربة بين نباتات السرخس خلف كثبان رملية. أخذا معهما البطانيات وجلسا ملتفين بها في ظل جذع شجرة ضخمة جرفته المياه إلى الشاطئ؛ اتخذا منه صادا للرياح حيث مكثا زمنا طويلا. على طول شاطئ الخليج الصغير الذي يمتد دونهما شاهدا عظاما صغيرة راكمتها الرياح فوق الأرض الخربة فجعلت منها أكواما. خلفها يوجد أضلاع وعظام على شكل أقفاص بيضتها مياه

البحر المالحة. ربما كانت يوما قطيع ماشـية. قشرة من الملح رمادية اللون تكسـو الصـخور. الريح تعصـف فتجفـف الأخاديد المحفـورة بين حبات الرمال. تتهادى، تتوقف ثم تستأنف هبوبها من جديد.

ـ هل تعتقد أن ثمة سفنا موجودة هناك؟

ـ لا أظن.

ـ لن يتمكنوا من الرؤية لمسافات بعيدة.

ـ كلا، لا يمكنهم ذلك.

ـ ماذا يوجد على الشاطئ الآخر؟

ـ لا يوجد شيء.

ـ لا بد أن يكون ثمة شيء.

ـ ربما يوجد شيء ما؛ أب وابنه الصغير وهما جالسان على الشاطئ.

ـ حبذا لو كان الأمر كذلك.

ـ نعم. هذا أمر مستحسن.

ـ ومن الممكن أن يكونا يحملان النار أيضا.

ـ هذا ممكن. نعم.

ـ لكننا لا ندري.

ـ نعم، نحن لا نعلم.

ـ لذا يجب أن نكون حذرين ويقظين.

ـ نعم. يجب أن نكون حذرين ويقظين.

ـ كم من الوقت نستطيع أن نمكث هنا؟

ـ لا أعرف. ليس لدينا الكثير من الطعام.

ـ أعرف.

ـ هل أحببت المكان؟

ـ نعم.

ـ وأنا أيضا.

ـ هل أستطيع أن أسبح؟

ـ تسبح!

ـ نعم.

ـ سوف تتجمد من البرد.

ـ أعرف.

ـ البرد قارس حقا. إن الحال أسوأ مما تظن.

ـ لا بأس في ذلك.

ـ لن يتعين علي أن أتبعك.

ـ إنك تعتقد أنه لا ينبغي لي أن أذهب.

ـ تستطيع الذهاب.

ـ لكنك تظن أنه لا ينبغي لي فعل ذلك.

ـ كلا. أعتقد أن عليك أن تذهب.

ـ أحقا ما تقول؟

ـ نعم، حقا.

ـ حسنا.

نهض وترك البطانية تسقط أرضا على الرمال ثم خلع عنه معطفه وحذاءه وملابسه.وقف عاريا محاولا أن يثبت نفسه وهو يرقص ثم أخذ يعدو باتجاه الشاطئ. بشرته ناصعة البياض. عظام عموده الفقري ناتئة ومستدقة الأطراف. العظام الكتفية كأنها شفرات موسى الحلاقة وقد غلفت بجلده الشاحب. كان يعدو عاريا ويثب متنقلا، يصرخ ويقهقه مبتهجا تلفه أمواج بطيئة سرعان ما تتكسر على الشاطئ.

حين خرج من مياه البحر كان قد أصابه البرد وأضحى أزرق اللون بينما بدأت أسنانه تصطك من شدة البرد. هرع إليه فوجده يرتعد بردا. لفه بالبطانية وضمه إلى صدره إلى أن توقف عن اللهاث. عندما نظر إليه كان الصبي يبكي. قال له:

ـ ما الذي يبكيك؟

ـ لا شيء.

ـ كلا، أخبرني ما الذي يبكيك؟

ـ لا شيء. لاشيء.

عندما هبط الظلام أضرما نارا خلف جذع الشجرة وجلسا يأكلان أطباقا من البامية والفاصوليا وآخر ما تبقى لديهما من البطاطس المعلبة. أما الحلوى فكانت قد نفدت منذ وقت بعيد. شربا شايا وجلسا قرب النار ثم ناما وهما ينصتان إلى أصوات الأمواج القادمة من الخليج. صوت الموجة يهدر طويلا ثم يتلاشى شيئا فشيئا. نهض ليلا، سار باتجاه الشاطئ ثم وقف عنده ملتفا بالبطانيات. العتمة حالكة لدرجة تمنع الرؤية. طعم الملح على شفتيه. انتظار يجتر انتظارا ثم يخبو هدير الأمواج البطيئة عندما

تتكسـر على الشاطئ؛ تغسل رماله فيخفت صـوتها المضطرب ثم تنسحب نحـو البحـر من جديد. دار في خلده أنه ربما يوجد سـفن للموت حتى الآن في الأعمـاق. موتى بأثواب رثـة بالية على متن سـفينة تتلاعب بها الرياح والتيـارات المائية، أو ثمة حياة في المحيط لحيوانات رخوية كالحبار تندفع في قـاع البحر وسـط البرد والظلام تروح وتغدو في رحـلات مكوكية كأنها القطارات. عيونها بحجم صـحون فناجين القهوة. أو ربما يوجد خلف هذه الأمواج الطويلة التي تحجب الرؤية رجل آخر مع صـبي آخر يسـيران فوق الرمـال الرمادية الميتة. ربما يكونان نائمـين ولكن على الجانب الآخر من شـاطئ البحر وسـط رماد العالم القاسـي. أو ربما يكونان قد وقفا تائهين تحت سماء الشمس ذاتها التي لا تأبه ولا تكترث.

تذكر أنه كان ذات مرة سـاهرا في ليلـة كهذه، وكان يوجد مجموعة من السـلاطعين تحدث جلبة في مقلاة حيث كان قد ترك فيها عظام شـريحة لحـم مـن الليلة السـابقة. أشـعل في الحطب الـذي ركمته الريـاح نارا ثم أضـحى النار جمرا ضـعيف الاتقـاد لكن الحيـاة مازالت تـدب فيه بفعل الرياح التي تهب على الشـاطئ. كان مضـطجعا تحت سماء مسكونة بكم لا يعد ولا يحصـى من النجوم. أفق البحر المظلم. نهض ومشى ثم توقف فوق الرمال حافي القدمين وتأمل بالأمواج المتكسرة والشاحبة كيف كانت تظهر عند الشاطئ، تتموج وتتكسر ثم تخبو من جديد. بينما كان عائدا نحو النار جثا على ركبتيه وملس شعرها، بينما كانت هي نائمة وقال: لو كان إلها إذاً لكان قد صنع العالم على هذه الشاكلة تماما وليس على نحو مختلف.

عندما قفل عائدا كان الصـبي مستيقظا وخائفا. كان قد ناداه بصوت عالٍ، ولكن ليس إلى الحد الذي يمكنه سماعه. طوقه الرجل بذراعيه وقال

له: لم أستطع أن أسمعك. لم أستطع سماع صوتك بسبب أصوات الأمواج. وضع حطبا فوق النار ونفخ فيها إلى أن دبت الحياة فيها من جديد. جلسا ملتحفين بالبطانيات يشاهدان ألسنة اللهب وهي تتمايل وتتلوى مع حركة الرياح ثم ناما.

أضرم النار من جديد صباحا. تناولا طعامهما وجلسا ينظران إلى الشاطئ. المشهد الماطر والجو البارد ليسا شديدي الاختلاف عما هو الحال عليه في عالم الشمال. لا يوجد طيور نورس ولا طيور شاطئية. أشياء متفحمة لا معنى لها ولا فائدة منها ملقاة على طول الشاطئ أو محمولة على الأمواج. جمعا حطبا مما ركمت الرياح، كوّماه وغطياه بالغطاء البلاستيكي ثم شرعا بالسير على الشاطئ. قال:

ـ نحن متسكعان من متسكعي الشواطئ.

ـ ماذا تعني؟

ـ متسكعو الشواطئ هم أناس يسيرون على طول الشاطئ؛ بحثا عن أشياء لها قيمة.

ـ أشياء. من أي نوع؟

ـ أشياء من كل الأنواع؛ أي شيء يمكنك استعماله.

ـ هل تظن أننا سنجد شيئا؟

ـ لا أعرف. سوف نلقي نظرة.

قال الصبي:

ـ ألقِ نظرة.

وقفا عند حاجز مياه صخري، ونظرا جهة الجنوب. زبد مالح متموج يتوانى موجه ويضعف تدريجيا في طريقه نحو المياه الهادئة.

الشاطئ ينعطف خلفهما انعطافة طويلة. الرمال رمادية اللون كأنها حمم قذفتها البراكين. الرياح التي تهب من البحر مشبعة برائحة اليود لدرجة تكاد معها تصيب المرء بالإغماء أين منها رائحة البحر المعهودة. يوجد على الصخور بقايا من بعض الطحالب داكنة اللون. هذا كل ما في الأمر. مرا واستمرا بالمسير. عند نهاية الشاطئ كان الطريق مسدودا بنتوء أرضي داخل في البحر. تحولا عن طريق الشاطئ إلى طريق قديمة سلكاها صعودا بين الخرائب وبين نباتات الشوفان الميتة إلى أن وصلا إلى نتوء جبلي داخل البحر. دونهما كانت الأرض محجوبة بهبات من الرياح ومن الضباب الخفيف المعتم الذي كان مهيمنا على الشاطئ. تراءى لهما خلف الضباب هيكل سفينة إبحار نصفها مرتفع إلى أعلى. شقا طريقهما عبر الأعشاب الجافة والميتة وهما ينظران حولهما. قال الصبي:

ـ ماذا علينا أن نعمل؟

ـ دعنا نراقب المكان برهة من الزمن. هذا كل شيء.

ـ إنني أشعر بالبرد.

ـ أعرف. دعنا ننزل قليلا إلى الأسفل؛ كي نتجنب الرياح.

جلس، وضع الصبي أمامه وضمه. العشب الميت يهتز اهتزازا خفيفا. الأراضي خربة، مقفرة، مهجورة و يطغى عليها اللون الرمادي. وبحر خضم لا حدود له. قال الصبي:

ـ كم من الوقت يتعين علينا أن نمكث هنا؟

ـ لن يكون وقتا طويلا.

ـ هل تظن أن ثمة أناسا في السفينة؟

ـ لا أعتقد ذلك.

ـ من الجائز أن يكونوا قد قضوا في معركة مائية.

ـ هذا ممكن.

ـ هل ترى آثارا تدل على وجود أحد هناك؟

ـ دعنا ننتظر برهة من الزمن.

ـ أشعر بالبرد.

شقا طريقهما ببطء ومشقة فوق المخلفات المتراكمة على الشاطئ، محاولين السير على الرمال الأكثر تماسكا ورسوخا عند خط انكسار المد البحري. توقفا. ثيابهما تصطفق اصطفاقا خفيفا. زجاج عائم مغطى بطبقة رمادية من التراب، عظام طيور بحرية. عند خط المد البحري امتد بساط منسوج من الطحالب البحرية وهياكل من حسك الأسماك وعظامها الدقيقة. إنها تعد بالملايين وتمتد على طول الشاطئ وعلى مدى البصر كأنها مطية الموت المحدبة التي يشبه بعضها بعضا. قبر واحد كبير فسيح ومالح. غير معقول. غير معقول!

تقدر المسافة الفاصلة بين نهاية اللسان الأرضي والسفينة بنحو مئة قدم من المياه المفتوحة. وقفا ينظران إليها. يبلغ طولها نحو ستين قدما. يفترض أن تكون هذه السفينة ثنائية الصواري. بيد أن صواريها الآن مكسورة ومرمية على متنها. أما الشيء الوحيد المتبقي في الأعلى فهو بعض مرابط و مقابض حبال السفينة النحاسية وقليل من دعائمها العمودية

التي تشكل حاجزا عند حافة السفينة. هذا إضافة إلى طوق فولاذي لإطار مثبت قرب مؤخرها. التفت وتفحص الشاطئ والخرائب الموجودة خلفه، ثم ناول الصبي المسدس وجلس فوق الرمال يفك رباط حذائه.

ـ ماذا أنت فاعل يا أبي؟

ـ سألقي نظرة.

ـ هل أستطيع أن أذهب معك؟

ـ كلا، أريدك أن تبقى هنا.

ـ أريد أن أذهب معك.

ـ يجب أن تقف هنا؛ كي تتولى شؤون الحراسة. علاوة على أن المياه عميقة.

ـ هل سأكون قادرا على رؤيتك؟

ـ نعم، سوف أبقي عيني عليك؛ كي أتأكد أن كل شيء يسير على ما يرام.

ـ أريد أن أذهب معك.

توقف وقال له:

ـ لن تتمكن من ذلك. سوف تذهب الرياح بألبستنا يجب أن يبقى أحد؛ كي يعتني بها.

طوى كل الأشياء وكومها. يا إلهي الجو بارد. انحنى وطبع قبلة على جبهة الصبي وقال له: دع عنك القلق وكن حذرا. خاض في المياه عاريا ثم نهض منها وقد بلل جسده. خرج من المياه بجهد، وقطرات الماء تتناثر منه وتترشش حوله ثم غاص في البحر مبتدئا برأسه أولا.

سبح مسافة تساوي طول السفينة ثم التفت وهو يدفع الماء برجليه ويلهث تعبا وبردا. عمود منتصف السفينة كان مغمورا بالمياه. أمسك بالرافدة المستعرضة الموجودة وسطها وسحب جسده نحو الأعلى. كان لون الفولاذ رماديا وممسوحا بالماء المالح، لكنه استطاع أن يتبين الأحرف المذهبة المتآكلة:

Pajaro de Esperanza. Tenerife

ذراعا تعليق قاربي نجاة فارغان. تشبث بالممسك المحيط بالسفينة ونهض ممتليا متنها وجثم على ظهرها الخشبي وهو يرتجف. قطع قليلة من الحبل المفتول منتزعة من مرابطها. هنالك ثقوب وفجوات في خشب السفينة تدل على أن ثمة خردوات وأدوات قد انتزعت بعنف من أمكنتها. لا بد أنها قوة عاتية وعارمة تلك التي أزالت كل الأشياء عن ظهرها. لوّح للصبي بكلتا يديه إلا أن الصبي لم يلوح استجابة.

كانت قمرة القيادة منخفضة، يعلوها سقف مقنطر وهي مزودة بفتحات على طول جانبها. انحنى، مسح الملح الرمادي، نظر إلى الداخل لكنه لم يستطع أن يرى شيئا. حاول أن يفتح الباب السفلي المصنوع من خشب الساج إلا أنه كان مقفلا. دفعه دفعة عنيفة بكتفه التي نتأت عظامها. نظر حوله؛ بحثا عن أي شيء يخلع الباب بواسطته. كان جسمه يرتجف وأسنانه تصطك وقد تعذر عليه التحكم بجسده وضبطه. فكر بركل الباب بباطن قدمه إلا أنه أقلع عن الفكرة؛ لأنه وجدها غير صائبة. أمسك مرفقه بيده وضرب الباب بشدة من جديد فأحس بأن الباب قد تخلخل ولكن بقدر طفيف جدا. واظب على دفعه فإذا بعضادة الباب تنفلق من داخلها ثم دفع الباب ففُتِح ثم هبط الدرج المؤدي إلى قمرة القيادة.

مياه راكدة وآسنة متجمعة في جوف السفينة السفلي وقد امتلأ بالنفايات والأوراق المبللة. رائحة نتنة وفاسدة تنبعث من الأشياء كلها. كل شيء بارد ودبق. ظن أنها كانت قد تعرضت للنهب والسرقة. لكن قد أصابها ما أصابها بسبب البحر. انتصبت في وسط الصالون طاولة من خشب الماهوغاني الصلب مع حواجز وأدوات مثبتة عليها، وذلك لوقاية الصحون من الانزلاق. أبواب الخزائن الموجودة في الغرفة مفتوحة. أما الأشفال النحاسية التي عليها فقد كانت ذات لون أخضر قاتم. سار متجها إلى القمرات الأمامية ومجتازا المطبخ.

يوجد في أرض السفينة دقيق وبن، إضافة إلى معلبات أطعمة نصف ممزقة وصدئة. كما يوجد في مقدمها حمام وحوض مغسلة مصنوعان من فولاذ مقاوم للصدأ. ضوء البحر الضعيف والباهت تسلل إليها عبر المناور المصممة لإضاءة أجزائها الداخلية. ملابس وعدد مبعثرة في كل مكان ورداء يستعمل طوقا للنجاة عائم في المياه المتسربة إلى السفينة. كان يتوقع - إلى حد ما - أن يصادف ما يثير الخوف، لكنه لم يجد شيئا من هذا القبيل. الوسائد الرقيقة والأدثرة التي تستعمل لتغطية الفراش كانت مرمية على الأرض أما البطانيات والملابس فقد كانت مكومة قرب الحائط. كان كل شيء مبللا. رأى بابا مفتوحا عند مقدم السفينة، لكن المكان كان شديد الظلام تتعذر فيه الرؤية. أخفض رأسه ودلف وهو يتحسس بيديه ما في الداخل؛ صناديق عميقة مغطاة بأغطية خشبية متمفصلة معها. ألبسة بحرية مكومة على الأرض. بدأ يسحب كل شيء من الداخل ويكومه على السرير المغطى: بطانيات وملابس خاصة بالأجواء القاسية. وجد سترة مبللة فوضعها فوق رأسه. عثر على حذاءين بحريين مصنوعين من المطاط

ولونهما أصفر كما وجد سترة مصنوعة من النايلون فلبسها وأغلق زمامها المنزلق وارتدى بنطالا أصفر اللون ووضع حمالتيه على كتفيه ثم انتعل الحذاء. صعد إلى ظهر السفينة. كان الصبي ما يزال جالسا على الحال التي تركه عليها وهو ينظر إلى السفينة. وقف وقد تملكه الرعب فأدرك الرجل أنه وبسبب من ملابسه الجديدة لم يكن الصبي متأكدا من أنه هو. صاح قائلا: هذا أنا. لكن الصبي اكتفى بالوقوف في مكانه ولوح له بيديه، ثم جلس على الأرض من جديد.

في الحجرة الخاصة الثانية من السفينة يوجد أدراج تحت السرير. كانت ما تزال في مكانها. رفع الأدراج، حررها من مكانها ثم سحبها. كتيبات وأوراق مكتوبة باللغة الإسبانية. ألواح صابون. حقيبة مصنوعة من الجلد الطبيعي بلون أسود فيها شيء من العفن وبداخلها أوراق. وضع الصابون في جيبه وانتصب واقفا. يوجد كتب مكتوبة بالإسبانية مبعثرة على السرير، منتفخة بفعل الرطوبة ومشوهة. ثمة كتاب واحد فقط محشور على الرف المثبت على الحاجز الفاصل بين هذه الحجرة والتي تعقبها.

عثر على حقيبة بحرية مصنوعة من قماش القنب المطط. طاف بحذائه في باقي أقسام السفينة متنقلا بين حجراتها ومجتازا الحواجز التي تفصل بينها. المعطف الأصفر الواقي من المياه يخشخش من شدة البرد. ملأ الحقيبة بنثريات وبقايا ألبسة. وجد حذاء نسائيا خفيفا ذا نعل مطاطي وقماش خشن ربما يكون ملائما ومنطبقا على مقاس قدمي الصبي. كما وجد سكينا قابلة للطي ذات مقبض خشبي، إضافة إلى نظارات شمسية. مازال العيب والنقص يعتريان بحثه وتنقيبه. من أضاع

شيئا فعليه أن يفرغ كليا من البحث عنه في الأماكن التي يقل احتمال وجوده فيها أولا. أخيرا دلف إلى المطبخ. أضرم الموقد ثم أطفأه.حرر باب حجرة المحرك ثم رفعه. نصف المحرك طافٍ ونصفه الآخر غارق وهو ذو لون أدكن وقاتم. لا يوجد رائحة بنزين أو نفط.

أغلق المحرك من جديد. يوجد مقاعد طويلة على متن السفينة تحتوي على أدراج وجد فيها وسائد وأشرعة مصنوعة من قماش القنب وعدة صيد. كما يوجد خزانة قائمة خلف عمود العجلة. لفات من خيوط النايلون وعبوات غاز معدنية وصندوق عدة مصنوع من زجاج مغزول ليفي الشكل. جلس على الأرض وشرع يفرز ويصنف محتويات صندوق العدة، نهض وتطلع إلى الصبي. كان جاثيا فوق الرمال، نائما وقد أسند رأسه إلى كومة الألبسة.

حمل صندوق العدة وإحدى عبوات الغاز إلى المطبخ ومضى إلى الأمام جائلا جولة أخيرة على الحجرات الخاصة. شرع يفحص بعناية محتويات الخزائن والأدراج الموجودة في الصالون وأخذ يدقق بالملفات والأوراق المحفوظة بعلب بلاستيكية. حاول أن يعثر على سجل السفينة الذي يدون فيه عادة تقدمها اليومي وسرعتها. وجد مجموعة من الأواني الخزفية الصينية الراقية. إنها غير مستعملة وموضوعة في صندوق خشبي مملوء بالنجارة؛ كان أكثر الأواني متكسرا. خدمة لثمانية، تحمل اسم السفينة. ظن أنها هدية. رفع كوب الشاي، وضعه على راحة يده، أداره ثم أعاده إلى حيث كان. آخر شيء وجده كان صندوقا مربعا مصنوعا من خشب السنديان ذا زوايا متعاشقة وصحن نحاسي مثبت على الغطاء. ظنه صندوقا لحفظ السجائر رطبة لكنه لم يكن كذلك. عندما رفعه واستشعر

وزنه عرف ما هو. فك مزاليجه المتآكلة الصدئة وفتحه. كان في داخله آلة السدس المصنوعة من النحاس التي تستخدم في السفن عادة لقياس ارتفاع الأجرام السماوية. من المحتمل أن تكون قد صنعت من قبل نحو مئة عام. رفعها من مكانها ووضعها في يده. لقد فتنه سحرها وجمالها. كان النحاس باهتا ومعتما وعليها آثار وبقع ليد كانت قد أمسكت بها ذات يوم، أما ما دون ذلك فقد كانت مثالا للكمال. مسح الصدأ عن الصحن الموجود في قاعدتها، فإذا هي مكتوب عليها هزانينث، لندن (Hezzaninth,London). قربه نحو عينه وأدار العجلة. إنه أول شيء يراه منذ أمد بعيد ويكون قادرا على تحريكه وإثارته. وضعه على يده ثم أعاده إلى مكانه في الصندوق، حيث وضعه فوق نسيج البيز الأزرق اللون وأغلق غطاء الصندوق والمزاليج. أعاده إلى الخزانة وأغلق الباب.

عندما اعتلى ظهر السفينة من جديد كي يتطلع إلى الصبي لم يره حيث تركه. مرت عليه لحظة ذعر تحبس الأنفاس قبل أن يراه وهو يسير على الشاطئ مطرقا والمسدس في يده. في تلك اللحظة أحس حيث كان واقفا ببدن السفينة يعلو ثم ينخفض ولكن بشكل طفيف. المد البحري يقترب ثم يُصفع على طول الصخور التي تشكل حاجزا مائيا عند الشاطئ. عاد ونزل إلى قمرة القيادة.

أحضر معه لفتّي الخيوط من الخزانة وقاس قطريهما، مستخدما كف يده لهذه الغاية فكان القطر مساويا لثلاثة أشبار. ثم عد اللفات؛ خيوط تساوي خمسين قدما. علقهما على مربط حبال السفينة الرمادي اللون المصنوع من خشب الساج المثبت على ظهرها، ثم قفل عائدا إلى قمرة القيادة. جمع الأشياء كلها وكدسها ورتبها فوق الطاولة. في الخزانة

الموجودة جانب المطبخ وجد بعضا من عبوات الماء البلاستيكية كلها فارغة باستثناء واحدة. التقط إحدى العبوات الفارغة، لاحظ وجود شقوق في البلاستيك مما أدى إلى تسرب الماء منها وخمن أن مياهها قد تكون متجمدة الآن في مكان ما، وأنه قد حدث ذلك في أثناء رحلات السفينة العبثية. ربما حدث ذلك مرات عديدة. أمسك العبوة الممتلئة حتى نصفها، وضعها على الطاولة، فك غطاءها، شم الماء الموجود بداخلها رفعها بكلتا يديه وشرب، ثم شرب ثانية.

يبدو أن العبوات الملقاة في أرض المطبخ غير صالحة للاستهلاك بأي شكل من الأشكال. حتى تلك الموجودة في الخزانة كانت صدئة إلى أبعد حد؛ بعضها منتفخ وشكلها ينذر بالسوء. جميع ملصقاتها منزوعة منها. أما محتوياتها فقد كتبت باللغة الإسبانية وبقلم أسود. لا يعرف هو معاني كل الكلمات المكتوبة عليها. صنف كل المعلبات، رجها وعصرها في يده، كدسها على الطاولة فوق ثلاجة المطبخ الصغيرة. فكر أنه لا بد من وجود صناديق من المواد الغذائية مكدسة في مكان ما من المستودع، لكن لن يكون أي منها صالحا للأكل. على أي حال هنالك حد لما يستطيعان أن يأخذا بالعربة. جال في خاطره أن هذا الذي حصل عليه من السفينة كان نتيجة حظ غير مرتقب وهو كسب غير منتظر. لكنه مازال يردد ما كان قد قاله ذات يوم: وهو أن الحظ لا يمكن أن يكون شيئا مماثلا. فقد مر عليه بضع ليالٍ كان يضطجع فيها تحت جنح الظلام في حال لا يحسد معها الموتى.

وجد علبة زيت زيتون وبعض علب الحليب وشايا في علبة معدنية صدئة. وجد أيضا وعاء بلاستيكيا فيه نوع من المعدن لم يستطع أن يميزه أو أن يدرك ماهيته. نصف علبة من القهوة. تفحص محتويات أرفف

الخزانة بشكل منهجي وأخذ يفصل بين ما يود أخذه وما يريد تركه. أخذ كل الأشياء التي جمعها وحملها ثم كدسها قبالة الدرج الذي يصل بين الحجرات وظهر السفينة. عاد إلى المطبخ ثانية وفتح صندوق العدة وشرع يفك أحد المضارم المثبتة على الموقد الصغير. فك الوصلة المفتولة من نقطة انثنائها. نزع الرؤوس المصنوعة من الألمنيوم عن المضارم ووضع أحدها في جيب معطفه. حل التجهيزات النحاسية باستخدام مفتاح ربط وحرر المضارم في مواضعها ثم فكها ووصل الخرطوم بماسورة الوصل من طرف، بينما جعل طرفه الآخر متصلا بأسطوانة الغاز ثم حمل الأسطوانة ووضعها في الصالون. أخيرا كوّم فوق الغطاء البلاستيكي بعض معلبات العصير والخضراوات والفواكه ثم ربطه بحبل بعد أن تعرى من ثيابه وجعلها فوق الأشياء التي كدسها. اعتلى ظهر السفينة عاريا ثم انزلق نحو الدرابزين ومعه الغطاء البلاستيكي. تمايل وتأرجح على جانب السفينة ثم ألقى بنفسه في البحر المتجمد الرمادي.

جر قدميه مجهدا عبر الشاطئ مستنيرا بآخر خيوط الضوء وترك الغطاء البلاستيكي يتدلى على الأرض. مسح المياه العالقة على ذراعيه وصدره براحتي كفيه وذهب ليرتدي ملابسه والصبي يتبعه. ما انفك يسأله عما أصاب كتفه حيث رآها زرقاء اللون وممتقعة، جراء دفعه باب القمرة دفعا عنيفا.

قال الرجل: لا بأس علي. إن هذا لا يؤلمني. لقد حظينا بالكثير من الطعام. انتظر حتى ترى. أسرعا بالسير على الشاطئ قبل أن يحل الظلام. قال الصبي:

ـ ماذا لو أن المياه جرفت السفينة؟

ـ لن تجرف.

ـ من الممكن أن تجرف.

ـ كلا، لن يحصل ذلك. تعالَ، هل أنت جائع؟

ـ نعم.

ـ سوف نأكل الليلة طعاما جيدا. لكن يجب أن نحث الخطى.

ـ إني أسرع في السير يا أبي.

ـ ومن المحتمل أن تهطل الأمطار.

ـ وما يدريك؟

ـ إنني أستطيع أن أشم رائحة المطر قبل أن ينهمر.

ـ وكيف تكون رائحته؟

ـ إنها تشبه رائحة الرماد الرطب. تعالَ.

ثم توقف وقال:

ـ أين المسدس؟

تسمر الصبي في مكانه وبدا مذعورا.

ناداه الرجل:

ـ فالتفت ونظر إلى الشاطئ. كانت قد حجبت السفينة ولم يعودا متمكنين من رؤيتها. نظر إلى الصبي. كان الصبي قد وضع يديه فوق قمة رأسه وأوشك أن يبكي. قال:

ـ أنا آسف. أنا آسف حقا.

أنزل الغطاء البلاستيكي إلى الأرض وكان فيه الأطعمة المعلبة وقال:

ـ علينا أن نرجع.

ـ أنا آسف يا أبي.

ـ لا بأس، سوف نجده حيث تركته.

توقف الصبي وقد هبطت كتفاه فجأة، ثم بدأ ينشج ويبكي متنهدا. جثا الرجل على ركبتيه وحضنه ثم قال:

ـ سيكون كل شيء على ما يرام. كان يجب علي أنا أن أتأكد من وجود المسدس معنا بيد أني لم أفعل. لقد نسيت.

ـ أنا آسف يا أبي.

ـ هيا نحن بخير وكل شيء سيكون على ما يرام.

كان المسدس موجودا بين الرمال حيث تركه. التقطه الرجل، هزه، سحب دبوس الأمان من حجرة الطلقات، أعطاه للصبي وقال له: أمسك هذا.

ـ حسنا يا أبي.

ـ طبعا حسنا.

فك حجرة الطلقات، وضعها في راحة يده، أفرغ منها الرمل وأعطاها للصبي. نفخ في أسطوانة المسدس ونفخ الرمال عن الإطار. أخذ أجزاء المسدس من الصبي وأعاد تركيبها. لقم المسدس، أخفض الزناد ثم لقمه من جديد. أدار حجرة الطلقات ورتبها بحيث جعل الرصاصة الحقيقية جاهزة للإطلاق. أبقى الزناد منخفضا، وضع المسدس في سترته ونهض، ثم قال:

ـ نحن بخير.هيا.

ـ هل سيدركنا الظلام؟

ـ لا أعرف.

ـ سوف يفعل. أ ليس كذلك؟

ـ هيا. سوف نحث الخطى.

لقد أدركهما الظلام. عندما وصلا إلى ممر الرأس البحري كان قد حل الظلام وتمكن لدرجة لم يعد ممكنا معها رؤية أي شيء. وقفا في مهب الريح على الشاطئ قرب مياه البحر. كانت الرياح تهب على الأعشاب اليابسة فيسمعان حفيفها من حولهما. تشبث الصبي بيد أبيه. قال الرجل:

ـ كل ما علينا القيام به هو أن نستمر بالمسير، هيا.

ـ لا أستطيع أن أرى.

ـ أعرف. سوف نخطو في كل مرة خطوة واحدة.

ـ حسنا.

ـ يجب أن يبقى الذهن حاضرا.

ـ حسنا.

ـ مهما يكن من أمر.

ـ مهما يكن من أمر.

استمرا في المسير يلفهما ظلام دامس ولا يريان شيئا كأنهما أعميان. مد ذراعه أمامه برغم أنه لا يوجد شيء فوق تلك الأرض الجرداء المقفرة يمكن أن يصطدم به المرء. كان صوت الأمواج المتكسرة على الشاطئ يوحي

بأن مكانها بعيد، مع ذلك كان يعتمد على الرياح في تحديد مكانه واتجاهه. استمرا يتخبطان ويتداعيان على الأرض قرابة ساعة من الزمن. بعد ذلك نهضا من بين الأعشاب البحرية ووقفا على أقدامهما من جديد فوق رمال الشاطئ الجافة. أمست الرياح أشد برودة. قرب الصبي منه وجعل جسده حاجبا بينه وبين الرياح. فجأة ظهر الشاطئ أمامهما كأنه يرتعد في غمرة ضوء ساطع ثم اختفى من جديد.

ـ ما هذا الذي حدث يا أبي؟

ـ لا عليك. إنه لمعان البرق. هيا.

حمل الغطاء المملوء بالمواد ووضعه على كتفه، ثم أمسك يد الصبي وتابعا مسيرهما يجران أقدامهما بين الرمال جرا فيتعثران ويتمايلان وتزل بهما أقدامهما كأنهما حصانان يستعرضان مهارتيهما فوق خشب طاف على سطح الماء أو فوق الأعشاب البحرية. سطع ضوء رمادي عجيب غريب فوق الشاطئ من جديد وسمعا هزيم الرعد يسعى إلى سمعهما من بعيد وصوت صاعقة ضعيفا، بينما كانت الدنيا تغرق في ظلام دامس. قال:

ـ أعتقد أنني قد رأيت آثارنا.

ـ إذاً فنحن سائران في الطريق الصحيح.

ـ نعم، في الطريق الصحيح.

ـ إنني أشعر بالبرد حقا يا أبي.

ـ أعرف. صلِّ؛ كي يلمع البرق من جديد.

تابعا سيرهما. عندما سطع ضوء البرق من جديد رأى الصبي محنيا يهمس. بحث عن آثارهما على الشاطئ لكنه لم يرها. كانت الريح قد

اشـتدت، أما هو فقد كان بانتظار انهمار المطر. إن هبت عليهما العاصـفة المحملة بالأمطار وهما على الشـاطئ ليلا فسـوف يكونان في وضع صعب. أشـاحا بوجهيهمـا عن الرياح متقلنسـين بقلنسـوتي سـترتيهما. الرمال تصـطدم بأرجلهما وتتابع هبوبها بسـرعة فائقة تحت جنح الظلام. دوت صـاعقة قرب الشـاطئ، انهمـر المطر غزيـرا ومائلا بفعل الريـاح، فإذا قطرات المطر تلسع وجهيهما لسعا. سحب الصبي نحوه وضمه.

وقفـا في غمـرة المطـر المنهمـر عليهما غزيرا وشـديدا. تـرى كم من المسافة كانا قد قطعا وإلى أي مدى أصبحا قريبين من المكان الذي يسعيان إليه. انتظر لمعان البرق، لكن ضـوءه كان يتضـاءل تدريجيا. عندما أضاء البرق مرة تلو الأخرى أيقن أن العاصـفة كانت قد أتت على آثار أقدامهما فمحتهـا. شـقا طريقهما مجهدين عبر الرمال وبمحاذاة طرف الشـاطئ العلـوي، آملين أن يريا شـبح جذع الشـجرة الذي ضـربا مخيمهما عنده. سرعان ما تلاشى البرق ثم هبت رياح خفيفة فسمع صوت طقطقة ضعيفا آتيا من مكان بعيد توقف وقال:

ـ أنصت.

ـ ماذا في الأمر؟

ـ أنصت.

ـ إني لا أسمع شيئا.

ـ هيا.

ـ ما هذا يا أبي؟

ـ إنه الغطاء. هي الأمطار تهطل على الغطاء.

تابعا سيرهما يخبطان خبط عشواء، يتعثران وتزل بهما أقدامهما وسط الرمال والنفايات وبمحاذاة خط المد البحري. فجأة وخلال وقت قصير وجدا نفسيهما عند الغطاء. جثا على ركبتيه أسقط الحزمة عن كتفه وتلمس المكان حوله بيديه؛ بحثا عن الصخور التي كان قد وضعها فوق الغطاء البلاستيكي. دفعها عنه وحرره منها. رفع الغطاء إلى أعلى وجعله فوقهما ثم استعمل الصخور لتثبيته من الداخل وذلك بوضعها على حوافه. نزع المعطف المبلل عن الصبي وغطاه معه بالبطانيات. كانت مياه الأمطار تتدفق عليهما من خلال البلاستيك دونما انقطاع. نزع عنه معطفه، أدنى الصبي منه وضمه وسرعان ما استغرقا في النوم.

توقف هطل المطر ليلا. استيقظ وتمدد منصتا. هدأت الريح، خف اندفاع الموج واصطخابه كما تلاشت الأمواج التي كانت تتكسر على الشاطئ. نهض مع بزوغ أول خيط من خيوط ضوء الفجر الشحيح ثم مشى على الشاطئ. كانت العاصفة قد كست الشاطئ بأشياء بعثرتها في كل مكان. مشى محاذيا لخط المد البحري؛ بحثا عن أي شيء قد يكون ذا نفع. شاهد خلف الجدار الذي يقي الشاطئ من عزم المياه جثة كان قد مضى عليها زمن طويل. شاهدها تعلو وتهبط في المياه الضحلة وسط الأخشاب التي دفعت بها الأمواج نحو الشاطئ. ودَّ لو كان يستطيع أن يخفيها عن الصبي. لكن الصبي كان على حق؛ فما من مشهد إلا وكان قد رأى أفظع منه.

عندما قفل عائدا وجد الصبي مستيقظا وجالسا وسط الرمال ينظر إليه. كان ملتفا بالبطانيات بعد أن بسط ونشر معطفيهما المبللين فوق الأعشاب والطحالب البحرية اليابسة والميتة، وذلك بغية تجفيفهما من

الماء. سار إلى أن بلغ مكان الصبي فجلس مسترخيا بجانبه ينظر إلى البحر الرمادي الذي يثير منظره الكآبة في النفس. كان البحر يعلو ثم ينخفض خلف كاسرات الأمواج.

أمضيا وقت الصباح معظمه وهما يفرغان من سطح السفينة ما كان قد جمعه. أضرم نارا وأبقى عليها متقدة وهو يخوض في الوحل عاريا ومرتجفا من شدة البرد. أرخى حبل السحب ووقف يلتمس الدفء قرب لهب النار ووهجها. أما الصبي فقد أمسك حبلا مربوطا بكيس البحار وشده نحو الشاطئ عبر الأمواج الطويلة والبطيئة. فرّغا الكيس من محتوياته ونشرا البطانيات والألبسة فوق الرمال الدافئة؛ كي تجف قرب النار. يوجد من الأشياء على ظهر السفينة ما يفوق قدرتهما على الحمل والنقل. جال في خاطره أن يمكثا بضعة أيام على الشاطئ؛ كي يأكلا أكبر قدر ممكن من الطعام إلا أن ذلك ينطوي على خطر. ناما ليلتهما تلك فوق رمال الشاطئ. كانت النار متقدة على مسافة منهما تدرأ عنهما البرد وأشياؤهما مبعثرة حولهما.

أيقظته نوبة سعال انتابته فنهض وشرب من الماء ثم جر مزيدا من الحطب وألقى به فوق النار و مدها بجذوع أشجار كاملة مما جعل الشرر يتطاير من النار كثيفا ثم يتساقط غزيرا كأنه شلال ضخم والحطب المالح يحترق مخلفا وسط النار لهبا ملونا باللونين البرتقالي والأزرق. جلس ينظر إلى اللهب زمنا طويلا. سار بعد ذلك على طول الشاطئ يسبقه ظله الطويل على الرمال أمامه ويتحرك حوله تبعا لتلاعب الرياح بألسنة اللهب. انتابه السعال؛ نوبة تلو أخرى. انحنى واضعا يديه فوق ركبتيه. أحس بطعم الدم في حلقه. الموج البطيء يزحف باتجاه الشاطئ و يتكسر

عنده مهتاجا فيرغي ويزبد تحت جنح الظلام. فكر في حياته لكن ليس ثمة حياة يفكر فيها. بعد برهة قفل عائدا.

التقط علبة دراق من الكيس، فتحها وجلس قبالة النار يأكل الدراق ببطء مستخدما ملعقته بينما كان الصبي نائما. توهجت النار فجأة بفعل الرياح فأطلقت ألوانا مبهرة وتطاير منها الشرر ثم تساقط بعيدا فوق الرمال. وضع علبة القصدير الفارغة بين قدميه وقال: كل يوم هو كذبة لكنك تحتضر وهذه ليست كذبة.

حملا مؤنهما الجديدة، وحزماها بالأغطية والبطانيات فوق رمال الشاطئ ثم وضعا كل الأشياء في العربة. حاول الصبي أن يحمل أشياء كثيرة جدا. عندما توقفا طلبا للراحة أخذ قسما منها ووضعها فوق حمله. تبدل مكان السفينة بشكل طفيف وذلك بفعل العاصفة. وقف ينظر إليها بينما كان الصبي يراقبه. قال له:

ـ هل أنت عازم على العودة إلى السفينة؟

ـ أعتقد ذلك. أريد أن ألقي نظرة واحدة وأخيرة.

ـ أنا خائف بعض الشيء.

ـ نحن على ما يرام. عليك أن تستمر بالمراقبة ليس إلا.

ـ صار لدينا حتى الآن ما لا طاقة لنا بحمله.

ـ أعرف. أريد فقط أن ألقي نظرة.

ـ حسنا.

اعتلى ظهر السفينة من مقدمها وصولا إلى مؤخرها من جديد. تَوَقَّفْ، فَكِّرْ. جلس في الصالون على الأرض. كان ينتعل حذاء مطاطيا. أسند

قدميه إلى عمود الطاولة. بدأ الظلام يرخي سدوله. حاول أن يستدعي من مخزون ذاكرته ما عرفه عن السفن. نهض واعتلى ظهر السفينة مجددا. الصبي جالس قرب النار ينتظره. نزل إلى السفينة وجلس على مقعد طويل في إحدى حجيراتها وقد أسند ظهره إلى الحاجز الذي يفصلها عن الحجيرة الأخرى ورفع قدميه فجعلهما على مستوى نظره. لم يكن يرتدي إلا سترة قصيرة وأخرى بحرية طويلة مصنوعة من المشمع فوقها. لكن هذا اللباس لم يوفر له إلا القليل من الدفء. لذلك كان يرتجف من شدة البرد ولم يستطع أن يتمالك نفسه. أوشك أن ينهض من جديد عندما أدرك أنه ينظر إلى الطرف الآخر من الحجيرة حيث يوجد أربعة مرابط تثبيت مصنوعة من فولاذ غير قابل للصدأ. كانت المقاعد فيما مضى مزودة بوسائد مخففة للصدمات ولا تزال موجودة حتى الآن آثار من أربطتها على أطراف المقاعد وهو ما تبقى منها بعد أن مزقت وانتزعت من أمكنتها.

في الجزء السفلي من وسط الحجرة وفوق المقعد تماما هنالك شريط ناتئ من النايلون مطوي عند نهايته ومخيط بقطب متصالبة. نظر إلى المرابط من جديد. بدت من النوع الذي يدور حول محور ومزودة بمقابض لوضع الإبهام فيها. نهض وجثا على ركبتيه فوق المقعد وأدار كلا من المرابط الأربعة المزودة بنوابض إلى الجهة اليسرى وفكها. أمسك الشريط الموجود في منتصف الغطاء وسحبه فانزلق الغطاء وتحرر من مكانه. وجد تحته فراغا فيه بعض الأشرعة المطوية وزورقا مطاطيا مطويا ومربوطا يتسع لشخصين، وفيه مجدافان صغيران مصنوعان من البلاستيك إضافة إلى علبة تحتوي على أجهزة إضاءة تحذيرية. يوجد في الخلف صندوق عدد متنوعة مغطى ومختوم بلاصق كهربائي أسود اللون. فك اللاصق وأزاله

عن أطراف الصندوق ثم فتح الأبازيم المصنوعة من مادة الكروم وفتح الغطاء. وجد في داخله مصباحا بلاستيكيا أصفر اللون يصدر ضوءا ومضيا متفاوت اللمعان وجهاز إشارة يعمل على البطارية الجافة، إضافة إلى جهاز بث لاسلكي أصفر اللون يستعمل في حالات الطوارئ. هنالك علبة بلاستيكية سوداء اللون بحجم كتاب تقريبا فك أبازيمها وفتحها فوجد فيها مسدس إشارة برونزيا قديما من عيار 37 مم؛ رفعه من العلبة بكلتا يديه، ثم أداره ونظر إليه. ضغط عليه وفتح قفله. كانت حجرة الطلقات فارغة لكنه وجد ثماني طلقات إشارة موضوعة في علبة بلاستيكية. الطلقات قصيرة وثخينة لكن تبدو جديدة. أعاد المسدس إلى علبته وأغلقها.

خاض في المياه وتقدم نحو الشاطئ بجهد وصعوبة. ارتجف بردا وانتابته نوبة سعال. التف ببطانية وجلس فوق الرمال الدافئة قبالة النار ووضع الصناديق والعلب جانبا. انحنى الصبي نحوه وحاول أن يلفه بذراعيه مما جعله يبتسم. قال له:

ـ ماذا وجدت يا أبي؟

ـ عدة إسعاف أولي ومسدس إشارة.

ـ وما هو؟

ـ سوف أريك. إنه يستعمل لإطلاق إشارات تنبيه.

ـ هل هذا ما كنت تبحث عنه؟

ـ نعم.

ـ وكيف عرفت أنه موجود هناك؟

ـ حسنا، كنت أرجو أن أجده هناك. إنها ضربة حظ بالمقام الأول.

فتح العلبة وأدارها نحو الصبي، حتى يرى.

ـ إنه مسدس.

ـ مسدس إشارة. يطلق شيئا في الهواء يحدث ضوءا كبيرا.

ـ هل أستطيع النظر إليه؟

ـ بكل تأكيد. لك ذلك.

ـ رفع الصبي المسدس من العلبة وأمسك به، وقال:

ـ هل تستطيع أن تطلق النار بواسطته على أحد؟

ـ تستطيع.

ـ وبذلك يقتلون؟

ـ كلا ولكن ربما يسبب هذا لهم احتراقا.

ـ ألهذا السبب أحضرته؟

ـ نعم.

ـ لأنه لا يوجد أحد يمكن أن تطلق له طلقة إشارة. أليس كذلك؟

ـ كلا، لا يوجد أحد.

ـ أود أن أراه.

ـ تعني أنك تريد أن تستعمله لإطلاق طلقة؟

ـ نعم.

ـ نستطيع أن نطلق بواسطته.

ـ أحقا؟

ـ بكل تأكيد.

ـ وقت الظلام.

ـ نعم. عندما يحل الظلام.

ـ ويكون ذلك بمنزلة احتفال.

ـ نعم. بمنزلة احتفال.

ـ هل نستطيع أن نطلق بواسطته الليلة؟

ـ لم لا؟

ـ هل هو ملقم؟

ـ كلا، لكننا نستطيع تلقيمه.

وقف الصبي ممسكا بالمسدس، وجهه نحو البحر، وهو يصيح مبتهجا: واو.

ارتدى ثيابا وشرعا بالمشي على الشاطئ وهما يحملان آخر شيء تمكنا من نهبه. قال له:

ـ إلى أين تعتقد أن الناس قد ذهبوا يا أبي؟

ـ الذين كانوا على متن السفينة؟

ـ نعم.

ـ لا أعرف.

ـ هل تعتقد أنهم قد ماتوا؟

ـ لا أعرف.

ـ لكن الظروف ليست في صالحهم.

ابتسم الرجل.

ـ الظروف ليست في صالحهم؟

ـ كلا. هل هي في صالحهم؟

ـ كلا. من المرجح أنها ليست كذلك.

ـ أعتقد أنهم قد ماتوا.

ـ من الممكن أن يكونوا قد ماتوا.

ـ أعتقد أن هذا ما حصل لهم.

قال الرجل:

ـ من الممكن أن يكونوا أحياء يسعون في مكان ما. هذا جائز.

لم يجب الصبي. استأنفا سيرهما. كانا قد لفا حول أقدامهما قماشا اقتطعاه من الأشرعة، ثم أحاطا القماش بشيء من البلاستيك الأزرق كانا قد مزقاه من الغطاء. تبعا لذلك كانت الآثار التي خلفتها أقدامهما على الشاطئ غريبة الشكل. كان يفكر في الصبي واهتماماته. قال له بعد برهة:

ـ من الممكن أن تكون محقا فيما ذهبت إليه. من الممكن أن يكونوا قد ماتوا.

ـ لأنهم لو كانوا أحياء، هذا يعني أننا استولينا على ممتلكاتهم.

ـ ونحن لم نستولِ على ممتلكاتهم.

ـ أعرف.

ـ حسنا.

ـ كم تعتقد عدد الناس الباقين على قيد الحياة؟

ـ في العالم؟

ـ في العالم. نعم.

ـ لا أعرف. دعنا نتوقف؛ كي نستريح.

ـ حسنا.

ـ إنك ترهقني.

ـ حسنا.

جلسا بين الحزم.

ـ كم سنمكث هنا يا أبي؟

ـ لقد سألتني عن ذلك.

ـ أعرف.

ـ سوف نرى.

ـ هذا يعني أننا لن نبقى هنا زمنا طويلا جدا.

ـ محتمل.

أحدث الصبي ثقوبا وفتحات في الرمال بواسطة أصابعه إلى أن شكلت الثقوب دائرة. كان الرجل يراقبه ثم قال:

ـ لست أدري كم هو عدد البشر الموجودين. لا أعتقد أنه يوجد الكثير منهم.

ـ أعرف.

سحب البطانية نحو كتفيه ونظر نحو الشاطئ القاحل والرمادي.

قال الرجل:

ـ ما هذا؟

ـ لا شيء.

ـ كلا. أخبرني.

ـ من المحتمل وجود أناس أحياء في مكان آخر.

ـ أين ذاك المكان الآخر؟

ـ لست أدري في أي مكان.

ـ هل تعني على الأرض؟

ـ نعم.

ـ لا أعتقد ذلك. لا يستطيعون أن يعيشوا في مكان آخر.

ـ ولا حتى إن استطاعوا أن يذهبوا بعيدا؟

ـ كلا.

أشاح الصبي ببصره عنه.

قال الرجل:

ـ ماذا؟

هز رأسه. وقال: لست أدري ماذا نحن فاعلان.

هم الرجل بالإجابة لكنه لم يفعل. قال بعد برهة: يوجد بشر، وسوف نلتقي بهم ولسوف ترى.

شرع في تهيئة العشاء، بينما كان الصبي يلعب بالرمل. كان معه قطعة معدنية مبسطة أخذها من علبة طعام. بنى بواسطتها قرية صغيرة في الرمل وجعل فيها شبكة من الطرق المتصالبة. اقترب الرجل منه، جلس القرفصاء ونظر إليها. رفع الصبي بصره إلى أعلى وقال:

ـ سوف يأتي البحر عليها. أليس كذلك؟

ـ نعم.

ـ حسنا.

ـ هل تستطيع أن تكتب أحرف الأبجدية؟

ـ نعم. أستطيع كتابتها.

ـ لم نعد نشتغل على دروسك.

ـأعرف.

ـ هل تستطيع كتابة أي شيء على الرمال؟

ـ ربما نستطيع أن نكتب رسالة للناس الطيبين حتى إذا ما مروا من هنا، فلسوف يعلمون أننا كنا في هذا المكان. نستطيع أن نكتبها هناك، بحيث لا تصل إليها مياه البحر فتمحوها.

ـ وماذا لو رأتها عصبة الأشرار؟

ـ نعم.

ـ لم يكن ينبغي لي قول ذلك. باستطاعتنا أن نترك لهم رسالة. هز الصبي رأسه وقال:

ـ هذا أمر مستحسن.

لقم مسدس الإشارة وما إن حل الظلام حتى شرعا بالمسير على الشاطئ مبتعدين عن النار وسأل الصبي إن كان يرغب بإطلاق النار.

ـ أطلق الطلقة أنت يا أبي، فأنت تعرف كيف تفعل.

ـ حسنا.

جهز المسدس استعدادا للرمي، وجهه نحو الخليج وضغط على الزند. انطلقت الرصاصة متخذة مسارا منحنيا، اخترقت الظلام محدثة دويا طويلا ثم انفجرت في مكان ما فوق المياه في ظل الضوء الملبد بالغيوم وتوقفت حين بلغت مداها. ذرات المغنسيوم الحارة والمتوهجة تطايرت في السماء ثم هبطت رويدا رويدا وابتلعتها العتمة. خط المد البحري عند مقدم الشاطئ توهج فجأة بفعل نور يبهر الأبصار ثم تضاءل الضوء شيئا فشيئا إلى أن عاد وغاص في الظلام. أخفض بصره ونظر إلى وجه الصبي الذي تملكته الدهشة.

ـ لا يستطيعون أن يروه من مسافات بعيدة. هل يقدرون على ذلك يا أبي؟

ـ من؟

ـ أي مكان.

ـ لا. ليس من مكان بعيد.

ـ إن أردت أن تشير إلى مكان وجودك.

ـ أتعني أن تشير إلى الناس الطيبين مثلا؟

ـ نعم. أو لنقل أي أناس ترغب في أن يروك ويحددوا مكانك.

ـ مثل من؟

ـ لا أعرف.

أضرم نارا في الصباح ومشى على الشاطئ، بينما كان الصبي نائما. لم يكن قد ذهب بعيدا عندما راوده شعور غريب مشوب بعدم الارتياح. قفل عائدا ليجد الصبي واقفا على الشاطئ، ملتفا بالبطانيات ينتظر، فأسرع في العودة. لدى وصوله كان الصبي قد جلس على الأرض.

قال له:

ـ ماذا في الأمر؟ ماذا في الأمر؟

ـ أشعر بعدم الارتياح يا أبي؟

مس جبينه براحة كفه، فإذا به يكاد يحترق من شدة ارتفاع حرارته. حمله وذهب به إلى مكان قريب من النار وقال:

ـ لا بأس عليك. سوف تكون على ما يرام.

ـ أعتقد أنني سوف أمرض.

ـ هون عليك.

جلس معه فوق الرمال ووضع يده على جبينه في حين كان الصبي يتقيأ وهو ينحني. مسح بيده فم الصبي. قال الصبي:

ـ أنا آسف.

ـ اصمت. إنك لم ترتكب أي خطأ يوجب الاعتذار.

حمله وعاد به إلى الخيمة ثم غطاه بالبطانيات. حاول أن يحمله على شرب شيء من الماء. مد النار بمزيد من الحطب. جثا على ركبتيه واضعا يده على جبين الصبي، قال له:

ـ سوف تكون بخير.

كان مذعورا. قال الصبي:

ـ لا تذهب بعيدا.

ـ لن أذهب بعيدا، لا ريب في ذلك.

ـ ولا حتى لبرهة قصيرة.

ـ كلا. أنا هنا ولن أبرح هذا المكان.

ـ حسنا، حسنا يا أبي.

سهر عليه طوال الليل. كان ينام نوما خفيفا، ثم يستيقظ مذعورا فيتحسس قلب الصبي. لم يكن في الصباح أحسن حالا. حاول أن يحمله على شرب شيء من العصير لكنه أبى. ضغط بيده على جبينه مناشدا البرد أن يحل محل الحرارة، لكن هيهات أن يكون له ما أراد.

مسح فمه الأبيض، بينما كان الصبي نائما وهمس: سوف أفي بوعدي مهما كلف الأمر و لن أدعك تذهب إلى الظلام وحيدا.

فتح حقيبة الإسعافات الأولية التي أحضرها من السفينة وفتش فيها لكنه لم يعثر على الكثير مما يمكن استعماله. أسبرين، ضمادات، مواد مطهرة ومضادات حيوية لمقاومة الجراثيم لكنها ذات مدة صلاحية محدودة وقصيرة. كل ما استطاع عمله هو أنه أعان الصبي على الشرب ووضع إحدى الكبسولات على لسانه. تصبب عرقا. أزاح البطانيات عنه وخلع عنه معطفه وملابسه وحركه بعيدا عن النار. رفع الصبي بصره ونظر إليه قائلا:

ـ إنني أشعر ببرد شديد.

ـ أعرف. لكنك تعاني من ارتفاع حاد في الحرارة، وعلينا أن نجعل حرارة جسمك تنخفض.

ـ هل لي أن أحصل على بطانية أخرى؟

ـ نعم، طبعا.

ـ لن تذهب بعيدا.

ـ لا، لن أذهب بعيدا.

حمل ثياب الصبي القذرة وشرع يغسلها بمياه البحر عند خط انكسار الموج. وقف وسط المياه المالحة والباردة عاريا من خصره حتى أخمص قدميه وجسمه يرتعد من شدة البرد. أخذ يغمر الثياب بالماء ثم يرفعها بقوة. فرد الثياب ونشرها فوق عصي ضربت في الرمال. كوّم مزيدا من الأخشاب ثم ذهب وجلس قرب الصبي من جديد وأخذ يلمس شعره الناعم. في المساء فتح علبة حساء ووضعها فوق الجمر. جلس يأكل مراقبا الظلام وهو يحتشد. استيقظ، كان مضطجعا فوق الرمال و هو يرتجف فالنار خامدة وقد أمست رمادا وليل شديد الظلام. جلس مغضبا يتحسس الصبي وهمس: نعم. نعم.

أضرم النار من جديد. أحضر قطعة قماش، بللها ووضعها على جبين الصبي. أوشك الفجر الشتوي البارد أن يبزغ. عندما تجمع من الضوء ما يكفي للرؤية ذهب إلى الغابات المنتشرة خلف الخرائب وعاد يجر وراءه كمًّا ضخما من الأغصان الكبيرة والصغيرة الميتة. كسرها وكدسها قرب النار. سحق بعضا من حبوب الأسبرين، وضعها في كوب، صب عليها ماء، ذوبها ووضع فوقها شيئا من السكر. جلس، رفع رأس الصبي، أمسك له الكوب فشرب ما فيه.

مشى على الشاطئ بطيئا مسترخيا وأخذ يسعل. وقف ينظر إلى أمواج البحر الطويلة والمعتمة. كان يتمايل من شدة التعب. رجع وجلس قرب

الصبي. طوى القماش ومسح وجهه ثم فرد القماش من جديد ووضعه على جبينه. قال: عليك أن تبقى قريبا وأن تكون سريعا، بحيث تستطيع أن تكون معه آخر يوم في الأرض.

نام الصبي طوال اليوم وواظب هو على إيقاظه؛ كي يشرب الماء المحلى بالسكر. كانت حنجرة الصبي الجافة تهتز وتصدر أصواتا خافتة. قال له: عليك أن تشرب. قال الصبي: حسنا وهو يتنفس محدثا صوتا كالصفير. حرك الكوب بجانبه حركة دائرية فوق الرمال. وسّد البطانية تحت رأسه الذي كان يتصبب عرقا وغطاه. قال له: هل تشعر بالبرد؟ بيد أن الصبي كان قد استغرق بالنوم.

حاول أن يبقى مستيقظا طوال الليل لكنه لم يستطع. استيقظ مرات كثيرة وجلس وصفع نفسه، أو أنه نهض ليمد النار بالمزيد من الحطب. ضم الصبي إليه وانحنى عليه؛ كي يستمع إلى صوت الهواء في أثناء تنفسه. وضع يده على أضلاعه المتدرجة والنحيلة. سار على الشاطئ إلى حيث نهاية الضوء الذي ترسله النار. توقف ووضع قبضتيه فوق جمجمته وسقط على ركبتيه وهو يبكي ويتنهد بأنفاس سريعة وقد تملكه غيظ عارم وغضب شديد.

هطلت الأمطار ليلا خفيفة واستمرت زمنا قصيرا وكانت تربت على الغطاء البلاستيكي ربتا خفيفا. سحب الغطاء فوقهما، استدار وعانق الصبي. شاهد ألسنة اللهب الزرقاء عبر البلاستيك. غط في نوم عميق لا يعرف الحلم إليه سبيلا.

عندما استيقظ من جديد لم يكد يدرك أين هو موجود. النار أخمدت

وتوقف هطل المطر. أبعد الغطاء وسحب نفسه متكئا على مرفقيه. ضوء النهار رمادي. راقبه الصبي، وقال:

ـ أبي.

ـ نعم، أنا هنا.

ـ هل أستطيع أن أشرب ماء؟

ـ نعم. نعم يمكنك ذلك بالتأكيد. كيف تشعر الآن؟

ـ أشعر أنني في وضع غير اعتيادي وغريب نوعا ما.

ـ هل أنت جائع؟

ـ أشعر بعطش شديد حقا.

ـ دعني أحضر لك الماء.

دفع عنه البطانيات ونهض ومشى مارا بجانب النار التي خمدت. أحضر كوب الصبي وملأه بالماء من عبوة بلاستيكية. عاد، جثا على ركبتيه، قدم له الكوب وقال: سوف تكون على ما يرام. شرب الصبي، هز رأسه ونظر إلى أبيه. شرب بقية الماء و قال: أريد المزيد.

أضرم نارا، علق ملابس الصبي المبللة على سناد وأحضر له علبة عصير تفاح وقال:

ـ هل تتذكر أي شيء؟

ـ حول ماذا؟

ـ فيما يتعلق بكونك مريضا.

ـ أتذكر إطلاق الرصاصة بمسدس الإشارة.

ـ هل تتذكر إحضار الأطعمة من السفينة؟

جلس يرشف العصير رشفا. نظر إلى أعلى وقال:

ـ لست معوقا.

ـ أعرف.

ـ حلمت أحلاما عجيبة غريبة.

ـ حول ماذا؟

ـ لا أريد أن أخبرك.

ـ حسنا. أريدك أن تنظف أسنانك بفرشاة الأسنان.

ـ بفرشاة أسنان حقيقية.

ـ نعم.

ـ حسنا.

فحص كل معلبات الأطعمة، فلم يجد بينها شيئا يمكن أن يشك بصلاحيته. لكنه رمى قليلا منها كانت صدئة جدا. جلسا تلك الليلة قرب النار وشرب الصبي حساء ساخنا. أما الرجل فكان يقلب الألبسة التي يتصاعد منها البخار وجلس ينظر إلى الصبي إلى حد أربكه، فقال:

ـ كف عن النظر إلي يا أبي.

ـ حسنا.

لكنه لم يفعل.

في غضون يومين أصبحا يمشيان على الشاطئ وصولا إلى الرأس

البحري ثم يعودان. كانا يسـيران بحذاءيهما القصـيرين المصنوعين من البلاستيك مجهدين.

أكلا وجبات مشبعة. نصب شراعا مائلا وربطه بحبال إلى أعمدة؛ كي يصـد الرياح عنهما. خففا من أحمالهما لدرجة تصبح معها العربة طيعة سـهلة الحركة وفكر في احتمال مغادرتهما خـلال يومين. عندما عادا إلى المخيم في وقت متأخر من النهار رأى آثار حذاء فوق الرمال.

قال:

ـ ما الخطب يا أبي؟

سحب المسدس من الحزام وقال:

ـ تعالَ بسرعة.

لم يجد شـيئا. كل شيء قد سـرق؛ بطانياتهما، عبوة الماء ومخزونهما من الطعام الذي كان في المكان الذي خيما فيه.كان الشراع ممزقا ومبعثرا بين الخرائب ولم يجد حتى أحذيتهما. هرع مسرعا خائضا إلى حيث ترك العربة. حتى العربة سرقت. كل الأشياء. قال:

ـ إنك حمار أحمق. إنك حمار أحمق.

كان الصبي متسمرا في مكانه فاغر العينين مشدوها.

ـ ماذا حصل يا أبي؟

ـ لقد أخذوا كل شيء. تعالَ.

رفع الصبي بصره ونظر إليه. كان قد بدأ بالبكاء.

قال الرجل:

ـ ابقَ معي، ابقَ ملاصقا لي.

استطاع أن يلحظ آثار العربة، فحيث تدحرجت كانت قد أبعدت التراب وأبقت تحته الرمال مهلهلة. آثار أحذية. كم عددها؟ لقد أضاع الأثر الذي يقتفيه حين أصبحت الأرض أكثر صلابة وأحسن حالا ثم عاد ورأى الآثار من جديد. عندما وصلا إلى الطريق أمسك الصبي بيده وأوقفه. كان الطريق معرضا لهبوب الرياح من جهة البحر وقد كنست الريح الرماد عنه باستثناء مساحات صغيرة توزعت هنا وهناك. قال: لا تدس على الطريق وكف عن البكاء. يجب أن ننظف أقدامنا من الرمال تماما. اجلس.

فك الأربطة ونفض عنها الرمال ثم ربطها من جديد. قال: أريدك أن تمد لي يد العون. نحن نبحث عن الرمال؛ رمال على الطريق، حتى وإن كانت كمية ضئيلة. يجب أن نتبين أي طرق سلكوا. قال: هل هذا واضح؟

ـ نعم.

شرعا يمشيان باتجاهات متعاكسة انطلاقا من الطريق المغلقة. لم يكونا قد ذهبا بعيدا عندما رفع الصبي صوته قائلا: هي ذي يا أبي. لقد سلكوا هذه الطريق. عندما وصل حيث أشار له كان الصبي رابضا على الطريق وقال: إنها هنا تحديدا. ما رآه يعادل ما حجمه نصف ملعقة شاي تساقط من مكان ما أسفل العربة. وقف الرجل ونظر نحو أسفل الطريق، وقال: حسنا فعلت. دعنا نذهب.

انطلقا مهرولين بسرعة، ظن أنه قادر عليها لكنه لم يستطع. يجب عليه

أن يتوقف. توقف وانحنى وهو يسعل. رفع بصره ونظر إلى الصبي وهو يتنفس بصعوبة، وقال:

ـ علينا أن نمشي بهدوء فإنهم سيختبئون على جانب الطريق إن سمعوا صوتنا. هيا.

ـ كم عددهم يا أبي؟

ـ لا أعرف. ربما هو واحد فقط.

ـ أسوف نقتلهم؟

ـ لا أعرف.

استأنفا سيرهما، وذلك في ساعة متأخرة من النهار. إن هي إلا ساعة أخرى ويكون الليل قد أرخى سدوله واستحكمت العتمة قبل أن يلحقا باللص ويدركاه. كان اللص متكئا على العربة المحملة وهو يدحرجها أمامهما. عندما التفت إلى الوراء حاول أن يفر هاربا بالعربة ولكن لم تكن محاولة الهروب مجدية. أخيرا توقف ووقف خلف العربة حاملا بيده سكين جزار. عندما رأى المسدس تراجع إلى الوراء، لكنه لم يلقِ السكين من يده. قال الرجل:

ـ ابتعد عن العربة.

نظر إليهما. نظر إلى الصبي. كان واحدا من عامة الناس، منبوذا ومشردا. أصابع يده اليمنى مقطوعة، فحاول أن يخفيها خلفه. العربة ممتلئة عن آخرها؛ لأنه أخذ كل شيء ولم يبقِ ولم يذر.

ـ ابتعد عن العربة وألقِ السكين.

تلفت حوله كما لو كان يوجد من يمد له يد العون في مكان ما. مهزول،

مقطب الجبين، متجهم الوجه، ملتحٍ وقذر. يرتدي معطفا بلاستيكيا قديما ممزقا وقد جمعت قطعه الممزقة بعضها إلى بعض بواسطة شريط لاصق. المسدس من النوع المزدوج الأداء لكنه لقمه على كل حال. أحدث تلقيم المسدس صوتين عاليين. عدا عن ذلك كانت تلك الأرض المالحة غارقة في صمت لا تخترقه إلا أصوات أنفاسهما. استطاعا أن يشما الرائحة النتنة الكريهة المنبعثة من أسماله البالية. قال الرجل:

ـ ما لم تلقِ السكين وتبتعد عن العربة، فسأفجر دماغك وأخرجه من رأسك.

وضع السكين فوق البطانيات، ابتعد إلى الوراء وتوقف.

ـ ارجع، أكثر.

رجع إلى الوراء.

قال الصبي:

ـ أبي.

ـ الزم الصمت.

أبقى عينيه على اللص يراقبه وقال: لعنك الله.

ـ أبي أرجوك لا تقتل الرجل.

دارت عينا اللص بطريقة وحشية. الصبي يبكي.

ـ هيا أيها الرجل. استمع إلى الصبي فقد فعلت ما طلبت مني.

ـ اخلع ملابسك.

ـ ماذا؟

ـ اخلع ملابسك كلها لعنها الله.

ـ لا تفعل هذا.

ـ سأقتلك حيث تقف.

ـ لا تفعل هذا أيها الرجل.

ـ لن أعيد ما قلته.

ـ حسنا، حسنا. فقط هوّن عليك.

خلع ملابسه القذرة ببطء وكومها على الطريق.

ـ الحذاء.

ـ يا رجل.

ـ الحذاء.

نظر اللص إلى الصبي. أشاح الصبي بوجهه عنه ووضع يديه على أذنيه قال: حسنا. حسنا. جلس على الطريق عاريا وبدأ يفك قطع الجلد العفنة المربوطة على قدميه، ثم نهض واقفا وقد حملها بإحدى يديه.

ـ ضعها في العربة.

تقدم إلى الأمام ووضع الحذاء فوق البطانيات ثم رجع إلى الوراء حيث وقف عاريا قذرا وهو يتضور جوعا. غطى جسده بيده وبدأ يرتجف.

ـ ضع الألبسة في العربة.

انحنى، وضع أسماله البالية فوق ذراعيه وكومها فوق الحذاء. وقف حيث هو محاولا أن يتماسك.

ـ لا تفعل هذا يا رجل.

ـ أنت لم تكترث عندما فعلت معنا ما فعلت.

ـ إني أتوسل إليك.

قال الصبي:

ـ أبي.

ـ هيا، استمع للصبي.

ـ حاولت أن تقتلنا.

ـ إني أتضور جوعا أيها الرجل، وقد فعلت أنت الشيء عينه.

ـ لقد أخذت كل شيء.

ـ هيا أيها الرجل سوف أموت.

ـ سوف أتركك بالطريقة ذاتها التي تركتنا بها.

ـ هيا. إني أتوسل إليك.

سحب العربة إلى الخلف ثم أدارها ووضع المسدس فوقها. قال للصبي: دعنا نذهب. سارا على الطريق متجهين جنوبا، بينما كان الصبي مستمرا بالبكاء وينظر إلى الوراء؛ إلى ذلك المخلوق العاري المسمر في مكانه كأنه لوح خشبي. إنه يرتجف من شدة البرد وقد لزم مكانه على الطريق. صاح الصبي: أبي، وأجهش بالبكاء.

ـ كف عن هذا.

ـ لا أستطيع.

ـ ما تظن أنه سيحدث لنا لو لم نمسك به. كف عن البكاء وكفى.

ـ إني أحاول.

عندما وصلا إلى منعطف على الطريق كان الرجل ما يزال واقفا حيث كان. ليس ثمة من مكان يأوي إليه. واظب الصبي على النظر إلى الوراء ولمّا لم يعد يتمكن من رؤيته توقف ثم جلس على الأرض وأخذ يبكي ويتنهد بأنفاس سريعة. كبح الرجل جماح نفسه ووقف ينظر إليه. سحب حذاءيهما من العربة. جلس وبدأ يفك الأربطة عن قدمي الصبي، وقال:

ـ عليك أن تكف عن البكاء.

ـ لا أستطيع.

انتعل الحذاء وأنعل الصبي حذاءه ثم نهض ومشى عائدا إلى أعلى الطريق لكنه لم يستطع أن يرى اللص. قفل عائدا ووقف إلى جانب الصبي وقال: لقد ذهب. هيا.

قال الصبي:

ـ لا، إنه لم يذهب. نظر إلى أعلى؛ كان وجهه ملطخا بالسخام. إنه لم يذهب.

ـ ماذا تريد أن تفعل؟

ـ ساعده فقط يا أبي. ساعده هذا كل ما في الأمر.

التفت الرجل ونظر إلى أعلى الطريق.

ـ إنه كان جائعا يا أبي، وقد أوشك أن يموت.

ـ سيموت على أي حال.

ـ إنه مصاب بذعر شديد يا أبي.

جلس الرجل القرفصاء ونظر إليه قائلا:

ـ أنا خائف. هل تفهم؟ أنا مصاب بالذعر.

لم يجب الصبي، بل جلس في مكانه مطرقا وهو يبكي ويتنهد.

ـ لست أنت من يجب أن يقلق حول كل شيء.

قال الصبي، شيئا لكنه لم يستطع أن يفهمه. قال له: ماذا؟

رفع بصره، كان وجهه مبتلا وملطخا بالسخام، وقال: بلى أنا هو.

دفعا العربة المقلقلة راجعين نحو أعلى الطريق ووقفا هناك في جو من البرد والظلام المحتشد يناديان، لكن لم يأتِ أحد.

ـ إنه لا يجيب؛ لأنه خائف يا أبي.

ـ هل هذا هو المكان الذي توقفنا فيه؟

ـ لا أعرف، لكني أعتقد ذلك.

ذهبا باتجاه أعلى الطريق وهما يصيحان مع هبوط ظلمة أول الليل في ذاك المكان الخاوي. ضاعت أصواتهما في طول الأراضي الساحلية وعرضها. توقفا ووقفا وقد جعل كل منهما كلتا يديه على شكل كوب يحيط بفمه وأخذ يصيح وينادي وسط الأراضي المقفرة كمن فقد صوابه. كوَّم أخيرا ثياب الرجل وحذاءه على الطريق ووضع فوقها صخرة وقال:

ـ علينا أن نذهب. علينا أن نذهب.

نصبا مخيما جافا دون أن يضرما نارا. اختار بعض المعلبات من أجل العشاء وسخنها على مضرم الغاز. أكلا ولم ينبس الصبي ببنت شفة. حاول الرجل أن يرى وجهه في ظل ضوء اللهب الأزرق المنبعث من المضرم، وقال: لم أكن عازما على قتله لكن الصبي لم يجب. لفا جسديهما بالبطانيات واضطجعا في مكانهما في كنف الظلام. ظن أنه تمكن من سماع صوت

البحر لكن ربما ما سمعه هو صوت الرياح ليس إلا. استطاع أن يقدر أن الصبي لما ينم بعد، وذلك من خلال استماعه إلى صوت أنفاسه. قال الصبي بعد برهة: لكننا قد قتلناه.

تناولا طعامهما صباحا وشرعا بالمسير. العربة محملة بأكثر مما تستوعب، صار دفعها شاقا ومجهدا علاوة على أن أحد إطاراتها قد تقلقل. كان الطريق ينعطف على طول الساحل. حزم من الأعشاب المملحة تتدلى على الطريق. البحر المصطبغ بلون الرصاص يبدو من مسافة بعيدة بتشكيل متغير ومتبدل. الصمت. استيقظ ليلا في ظل الضوء الكربوني الشحيح للقمر الذي كان يعبر خلف الظلام ملقيا ظلالا للأشجار تمكن رؤيتها. أدار وجهه وبدأ يسعل. هناك رائحة مطر تنبعث من بعيد. كان الصبي مستيقظا. قال له:

ـ عليك أن تتحدث معي.

ـ أنا أحاول.

ـ أنا آسف. فقد كنت سبب استيقاظك.

ـ لا عليك.

نهض ومشى نحو الطريق. الظل الأسود يعدو من عتمة إلى عتمة. سمع هزيم الرعد؛ كان ضعيفا وبعيدا ولم يكن بحجم الصاعقة. تستطيع أن تستشعره تحت قدميك. صوت لا شبيه له ومن ثم لا يمكن وصفه. شيء غير قابل للوزن والتحديد الدقيقين يتنقل في كنف الظلام. الأرض نفسها أبرمت عقدا مع البرد. لم تأتِ من جديد. ترى أي وقت من السنة هو ذا؟ كم بلغ الصبي من العمر؟ مشى نحو الطريق ثم توقف. الصمت. الملح يتجفف في الأرض. أشباح المدن المغمورة والملطخة بالوحل محترقة حتى خط الماء. عند تقاطعات الطرق ثمة أرض عليها حجارة أضرحة تنتمي

لحقبـة مـا قبل التاريـخ، حيث عظام الكهنة مرمية ومتفسـخة. لا صـوت إلا صـوت هزيز الرياح. ماذا سـيقول؟ هل هو إنسـان حـي من نطق بهذه السطور؟ شحذ يراعا بسكينه الصغيرة؛ كي ينقش هذه الأشياء على نبات برقوق شائك أو على سخام الفوانيس في لحظة يحسب لها حساب. إنه آتٍ؛ كي يسرق عيني ولكي يسد فمي بالأقذار سدا محكما.

فحص المعلبات من جديد واحدة فواحدة. كان يمسكها بيده ثم يعصرها كرجل يختبر نضـج فاكهة معروضـة في مكان عرض. رمى معلبتين مشكوكا بصـلاحيتهما. أعاد الباقي إلى العربة وحزمها ثم اسـتأنفا سـيرهما على الطريـق مـن جديد. وصـلا بعد نحو ثلاثة أيـام إلى بلدة مرفئية صـغيرة. أخفيا العربة في مرآب خلف بيت وكوما فوقها علبا كرتونية قديمة ثم جلسـا بعـد ذلك في البيت يراقبان؛ كي يتيقنا من أن أحـدا لن يأتي. لم يأتِ أحد. فتش في الخزائـن فلم يعثر على شـيء. إنـه بحاجة إلى فيتامـين – د من أجل الصـبي، وما لم يحصـل عليه فإنه سيصـاب بمرض كسـاح الأطفال. وقـف عند المغسـلة ونظر إلى الخارج؛ إلى الدرب الذي يصـل ما بين البيت والطريق العامة. مياه الغسيل المتخثرة على ألواح النوافذ الزجاجية القذرة لونها فاتح. جلس الصبي إلى الطاولة متهالكا وقد دفن رأسه بين ذراعيه.

سـارا عبر البلدة ومنها إلى مكان أحواض السـفن. لم يريا أحدا. كان قد وضـع المسـدس في جيب معطفه وأبقى في يده مسـدس الإشـارة. تابعا سيرهما على رصـيف أحواض السـفن. الألواح الغليظة مغطاة بالقطران وقاتمة اللون وهي مثبتة على قاعدة من الخشـب موجودة تحتها بواسـطة مسـامير ضـخمة. ثمـة مرابط مصـنوعة من الخشـب تشـد إليها حبال المراكب. رائحة الملح وسـائل الكريوسـيت الزيتي المستخرج من القطران تسـببان دوارا وتبعثـان على الإغمـاء. هنـاك؛ على جانب الشـاطئ البعيد

يوجد مستودعات وهيكل ناقلة نفط أكسبها الصدأ لونا أحمر. يوجد رافعة متنقلة جسرها عالٍ ومنتصب في الهواء تحت السماء المكفهرة والكئيبة. قال: لا يوجد أحد هنا. لم يجب الصبي.

دفعا العربة عبر الشوارع الخلفية واجتازا قضبان السكك الحديدية. وصلا إلى الشارع الرئيس الموجود عند طرف البلدة البعيد. بينما كانا يمران بجانب آخر الأبنية الخشبية الحزينة. مر شيء صافر بمحاذاة رأسه، تحرك على الأرض بسرعة فائقة محدثا قعقعة ثم ارتطم بجدار البناء على الجانب الآخر. أمسك الصبي وسقط فوقه وأمسك العربة؛ كي يسحبها نحوهما. مالت العربة وانقلبت مبعثرة الغطاء والبطانيات في الشارع. تمكن من رؤية رجل يطل من نافذة البيت العلوية. كان الرجل قد لوى قوسا يستخدم في إطلاق السهام وصوبه نحوهما. دفع رأس الصبي نحو الأسفل وحاول أن يغطيه بجسده. سمع الصوت الكئيب لوتر القوس وشعر بألم حار وحاد في رجله. قال: أنت ابن حرام. ابن حرام. أزاح البطانيات، أمسك بمسدس الإشارة بقوة، لقمه وأراح ذراعه على جانب العربة. كان الصبي يمسكه ويتشبث به. عندما عاد الرجل إلى الوراء؛ ليلقي سهما آخر عبر إطار النافذة أطلق النار. انطلق سهم ناري نحو النافذة مخلفا وراءه خطا طويلا أبيض اللون على شكل قوس. بعد ذلك تمكن من سماع صوت الرجل وهو يصرخ. أمسك بالصبي ودفع به إلى أسفل. سحب البطانيات ووضعها فوقه وقال له: لا تتحرك. لا تتحرك ولا تنظر. نبش البطانيات وبعثرها على الطريق وهو يبحث عن علبة مسدس الإشارة. أخيرا انزلقت العلبة من العربة. انتزعها على عجل، فتحها وأخرج منها الطلقات، وضع ما تبقى من طلقات في جيبه. أجلس الصبي بين البطانيات ورتب له المكان بحركات خفيفة ولطيفة وركض عبر الطريق وهو يعرج.

دخل البيت من بابه الخلفي. مسدس الإشارة في يده على مستوى الخصر منه وقد صوبه إلى الأمام. البيت مجرد من كل شيء حتى الألواح الخشبية التي عادة ما تغطي الجدران. دخل إلى حجرة الجلوس ووقف عند منبسط السلم. أنصت ليستمع إن كان ثمة حركة في غرف الدور العلوي. نظر عبر النافذة إلى حيث تقف العربة من الشارع ثم اعتلى درجات السلم.

رأى امرأة جالسة عند الزاوية وهي تضم إليها رجلا. كانت قد خلعت عنها معطفها؛ لتغطيه به. ما إن رأته حتى بدأت تصب عليه اللعنات. كانت الطلقة قد احترقت على أرض الغرفة مخلفة بقعة من الرماد الأبيض. في الغرفة رائحة خشب محروق خانقة تبعث على الإغماء. مشى متجها نحو النافذة ونظر عبرها. عينا المرأة كانتا تتبعانه. امرأة مهزولة ذات شعر رمادي سبط أملس.

- من يوجد هنا؟ لم تجب. مر بجانبها وذهب كي يفتش الغرف. كانت رجله تنزف على نحو خطير. لقد أحس ببنطاله ملتصقا على جلده. عاد فدخل إلى الغرفة الأمامية، وقال:

- أين القوس؟

- إنه ليس بحوزتي.

- أين هو؟

- لا أعرف.

- لقد تركوك هنا. أليس كذلك؟

- تركت نفسي هنا.

استدار وهبط درجات السلم وهو يعرج. فتح الباب الأمامي وخرج

يمشـــي بشـــكل ارتجاعي وعيناه على البيت يراقبه. عندما بلغ مكان العربة ســحبها وســواها علــى عجلاتها وأعاد وضــع الأشــياء فيها وهمســ: ابقَ ملاصقا لي. ابقَ ملاصقا.

نزلا في بناء فيه مســتودع عند نهاية البلــدة. دفع العربة على عجلاتها وأدخلهــا إلى غرفة خلفية. أغلق الباب وســده بوضــع العربة خلفه بشــكل جانبي. أخرج خزان الوقود والمضرم وأضرم النار فيه ووضعه على الأرض. فك حزامه وخلع عنه بنطاله الملطخ بالدماء. كان الصــبي يراقبه. السهم الذي أصــابه خلف جرحا بالغاً فوق ركبته تماما بطول يبلغ ثلاثة إنشــات. كان ما يزال ينزف وقد امتقع القســم العلوي من رجله كاملا. كان الجرح غائرا وعميقا وقد اســتطاع أن يرى ذلك. ملعقة قديمة. الله يعلم ما هي. نظر إلى الصبي، وقال:

ـ حاول أن تجد لي حقيبة الإسعاف الأولي.

لم يتحرك الصبي.

ـ أحضر حقيبة الإسعاف الأولي، عليها اللعنة. لا تجلس حيث أنت هكذا.

قفز، ذهب نحو الباب وبدأ ينبش تحت الغطاء وبين البطانيات المكومة في العربــة. عــاد وقد أحضــر الحقيبة. مررهــا للرجل الــذي تناولها منه دونما تعليق. وضــعها على الأرض الخرســانية أمامــه. فك أقفالها بحركة خاطفة وفتحها. مد يده وأضــرم النار في المضــرم؛ كي يستضــيء بضوئه. قال: أحضر لي عبوة الماء. أحضر الصبي العبوة. فك غطاءها وصب فوق الجرح ماء. ضم أطراف الجرح بعضها إلى بعض وأغلقه، بينما كان يمسح عنه الدم. مسح الجرح، نظفه وعقمه بمادة مطهرة ومبيدة للجراثيم. فتح مغلفا بلاستيكيا مستخدما أسنانه لهذا الغرض. أخرج إبرة معقوفة ولفة من خيوط الحرير التي تســتخدم في خياطة الجــراح. قرب خيط الحرير

من الضـوء وأدخل طرفه عبر ثقب الإبرة. الجرح. عمل بسـرعة ولم يعانِ مـن آلام مبرحة جراء ذلك. كان الصـبي جاثيا على الأرض. نظر إليه ثم انحنى لينظر ثانية إلى مكان الجرح، وهو يخيطه قال له:

ـ لا ينبغي لك أن تشاهد.

ـ هل تجري الأمور بشكل مناسب؟

ـ نعم.

ـ ألا يؤلمك هذا؟

ـ بلى يؤلمني.

لف الخيط على شكل عقدة أدخل طرفه فيها، شده شدا محكما وقصه بمقص ونظر إلى الصبي. كان الصبي ينظر إلى كل ما كان يفعله.

ـ أنا آسف. لقد صرخت في وجهك.

رفع بصره ونظر إليه قائلاً:

ـ لا عليك يا أبي.

ـ دعنا نبدأ بداية جديدة.

ـ حسناً.

كان المطـر ينهمـر في الصـباح والرياح العاتية ترتطـم بالزجاج خلف البنـاء فيشـتد هزيزها. وقـف ينظر إلى الخارج. صـقالة مصـنوعة من الفولاذ وتسـتخدم في إصلاح السفن مائلة وعلى وشك الانهيار وجزء منها مغمور بمياه الخليج. حجرات إرشاد سفن صيد الأسماك الغارقة منتصبة بعيـدا عن الأمواج الرمادية المتلاطمة. لا شـي يتحرك هناك. فأي شـيء قابـل للحركة لا بد أن تكون الرياح قد عصـفت به ورمتـه بعيدا منذ وقت بعيد. ما انفكت رجله تنبض. فك عنها الضـماد، عقم الجرح ونظر إليها.

مكان الجرح منتفخ ومتورم وممتقع اللون. إنه يعاني من ألم موضعي حاد. ضمد الجرح ولبس بنطاله الذي جف عليه الدم وتيبس.

أمضيا يومهما هناك جالسين وسط العلب والصناديق. قال:

ـ عليك أن تتحدث معي.

ـ أنا أتكلم.

ـ هل أنت أكيد، من هذا؟

ـ إني أتكلم الآن.

ـ هل تريدني أن أقص عليك قصة؟

ـ كلا.

ـ لم لا؟

نظر الصبي إليه وأشاح بوجهه عنه.

ـ لم لا؟

ـ تلك القصص ليست حقيقية.

ـ لا ينبغي أن تكون حقيقية. إنها مجرد قصص.

ـ نعم. لكننا في القصص نمد يد العون للناس دائماً، بينما نحن في الواقع لا نفعل ذلك.

ـ لماذا لا تقص علي أنت قصة؟

ـ لا أريد أن أفعل.

ـ حسنا.

ـ ليس لدي قصص أقصها.

ـ تستطيع أن تخبرني بقصة عنك أنت.

ـ أنت تعرف كل القصص عني، فأنت معي دائما.

ـ يوجد قصص في داخلك لا أعرف شيئا عنها.

ـ هل تعني قصصا كالأحلام؟

ـ كالأحلام أو أي أمور أخرى تفكر فيها.

ـ نعم ولكن من المفترض أن تكون قصصا سعيدة.

ـ لا. لا ينبغي أن تكون كذلك.

ـ أنت دائما تقص قصصا سعيدة.

ـ إنها أقرب ما تكون إلى الحياة الواقعية.

ـ لكن قصصي ليست كذلك.

ـ قصصك ليست كذلك. كلا.

نظر الرجل إليه.

ـ وهل الحياة الواقعية بالغة السوء؟

ـ ما اعتقادك أنت؟

ـ حسنا، أعتقد أننا ما نزال موجودين هنا. لقد وقعت أحداث سيئة، لكننا مازلنا موجودين هنا.

ـ نعم.

ـ ألا تعتقد أن هذا أمر رائع جدا؟

ـ حسنا.

سحبا طاولة عمل نحو النافذة ونشرا عليها البطانيات. تمدد الصبي على بطنه ينظر عبر الخليج، بينما جلس الرجل مادا رجله أمامه. يوجد بينهما بطانية وعليها المسدسان وعلبة الطلقات. قال الرجل بعد برهة:

ـ أعتقد أنها جيدة جدا. إنها قصة جيدة جداً، ويمكن أن يستخلص منها عبرة.

ـ حسنا يا أبي. كل ما أريده هو أن أحظى بوقت فيه شيء من الهدوء.

ـ ماذا عن الأحلام؟ لقد اعتدت أن تحدثني عن الأحلام أحيانا.

ـ لا أريد أن أتحدث عن أي شيء.

ـ حسنا.

ـ على أي حال، ليس لدي أحلام سعيدة. إن أحلامي تدور دائما حول حدث سيئ. لقد قلت: إن هذا أمر جيد؛ لأن الأحلام السعيدة لا تبشر بخير.

ـ ربما. لست أدري.

ـ عندما تستيقظ وقد انتابك السعال وتخرج متجها إلى الطريق أو إلى أي مكان آخر كنت أسمع صوت سعالك.

ـ أنا آسف.

ـ سمعتك مرة تبكي.

ـ أعرف.

ـ لذلك، إن لم يكن ينبغي لي أن أبكي، فلا ينبغي لك أيضا.

ـ حسنا.

ـ هل سيتحسن جرح رجلك؟

ـ نعم.

ـ هذا ليس مجرد كلام تقوله؟

ـ لا.

ـ لأنه يبدو أن الجرح بالغ حقا.

ـ إنه ليس سيئا إلى هذا الحد.

ـ حاول الرجل أن يقتلنا. أليس كذلك؟

ـ نعم لقد فعل.

ـ هل قتلته؟

ـ كلا.

ـ هل ما تقوله هو الحقيقة؟

ـ نعم.

ـ حسنا.

ـ هل هذا يرضيك؟

ـ نعم.

ـ ظننت أنك لا تريد أن تتحدث؟

ـ لا أريد.

غادرا بعد يومين. كان الرجل خلف العربة يعرج على طول الطريق. بينما الصبي يمشي بجانبه ملازما له إلى أن اجتازا ضواحي البلدة وأصبحا خارجها. يمتد الطريق على طول الساحل الرمادي المنبسط. ثمة أكوام من الرمال كانت الريح قد حملتها وألقت بها هناك، الأمر الذي جعل المسير عليه صعبا أحيانا. و قد كانا يضطران إلى تمهيد الطريق باستخدام لوح خشبي أحضراه معهما ووضعاه على المنصب السفلي للعربة. خرجا عن الطريق واتجها نزولا نحو الساحل. أويا إلى مكان بين الخرائب وجلسا فيه ينظران إلى الخارطة. كانا قد أحضرا المضرم معهما. سخنا شيئا من الماء وحضّرا شايا. جلسا ضد الرياح متلفعين بالبطانيات. تحت الشاطئ ثمة أخشاب سفينة قديمة تغير لونها بسبب تعرضها لعوامل الجو. عوارض

خشـبية رمارية اللون هبـت عليها الرمال وعلقت بها. كتل خشـبية قديمة مقطعـة يدويا بشـكل عمـودي. خردوات وأدوات مصـنوعة مـن الحديد، مجوفـة ويغلب عليها اللـون الأرجواني الأدكن. أدوات تم صـهرها في أحد مصـانع الحديد في مدينة قادس الإسبانية أو مدينة بريستول البريطانية وشـكلت على سـندان أسـود؛ أدوات قادرة على الصـمود في البحر مدة ثلاث مئة عام. في اليوم اللاحق مرا عبر منتجع قائم بجانب البحر تحول إلى خرائب ثم سلكا طريقا داخلية تمر عبر غابة صنوبر. الطريق الطويلة المسـتقيمة المزفتة مغطاة بوريقات الصـنوبر الشـديدة النحـول والإبرية الشـكل التي كانت الرياح قد ساقتها إليها وركمتها عليها. الريح تهب على الأشجار الدكناء.

جلس على الطريق وقت الظهيرة، حيث يكون الضوء في أحسن أحواله. قص الخيوط بضربات سريعة متتالية من المقص. أعاد المقص إلى حقيبة العدة وأخرج منها ملزما. بدأ ينزع الخيوط الصغيرة السوداء من الجلد، وذلك بالضغط عليه بواسطة إبهامه. جلس الصبي على الطريق يشاهده. شد الرجل الملزم على نهاية الخيوط وأطبقه عليها ثم سحبها خيطا خيطا. قطرات صغيرة جدا من الدم. عندما انتهى وضع الملزم جانبا، وضع شيئا من الشـاش على الجرح و ثبته. نهض، رفع بنطاله وأعطى العدة للصـبي؛ كي يضعها بعيدا.

قال الصبي:

ـ هذا مؤلم. أليس كذلك؟

ـ نعم. إنه يؤلم.

ـ هل أنت شجاع حقيقي؟

ـ بل أنا بين بين.

ـ ما هو الأمر الأكثر مدعاة للشجاعة الذي أقدمت عليه في حياتك؟

بصق على الأرض بلغما ممزوجا بدم، وقال:

ـ النهوض من النوم هذا الصباح.

ـ أحقا ما تقول؟

ـ كلا لا تصغِ إلي. هيا، دعنا نذهب.

لاحت في المساء ظلال مظلمة لمدينة ساحلية أخرى. مجموعة من الأبنية الشاهقة منحرفة لأسباب غامضة. فكر بأن التشكيلات الحديدية قد لانت بفعل الحرارة، ثم تشكلت من جديد مما جعل الأبنية تأخذ شكلا مغايرا لما ينبغي أن تكون عليه. زجاج النوافذ المذوب معلق على الجدران كأنه المزيج الذي تزين به قوالب الحلوى.

استمرا في المسير. مؤخرا ، صار يصحو من نومه أحيانا في عالم مقفر مظلم متجمد على وقع أحلام ملونة براقة؛ أحلام عن عوالم من الحب الإنساني و تغريد الطيور والشمس.

أسند جبينه إلى ذراعيه المتصالبتين واستند إلى مقود العربة وبدأ يسعل. بصق لعابا ممزوجا بالدم. أصبح مضطرا للتوقف بشكل متزايد؛ طلبا للراحة. كان الصبي ينظر إليه. لكن ليس للصبي خيار كما أن ليس له حياة أخرى. إنه يدرك أن الصبي يصحو دائماً في أثناء الليل وينصت؛ كي يستمع ويتأكد أن أنفاسه لم تنقطع.

تمضي الأيام كأنها تسلخ العمر سلخا ولا سبيل لعدها أو لاستبيانها من خلال تقويم. على طول الطرق السريعة التي تصل بين الولايات المتحدة يوجد أرتال طويلة من السيارات المحترقة، المتفحمة والصدئة. إطارات السيارات المجردة من عجلاتها قابعة على الطريق تحيط بها الوحول

والرواسب الطينية ومطاط العجلات الذائب والمتصلب الذي يكسوه الرماد. حول الإطارات يوجد لفات من الأسلاك المتفحمة. الجثث المحترقة والمتفحمة منكمشة ومتضائلة لدرجة تجعل من يراها يخالها جثث أطفال؛ تلك الجثث مسمرة على مقاعد السيارات المجردة من كل شيء إلا من نوابضها. عشرة آلاف حلم دفنت في القلوب المحطمة لأصحاب الجثث. تابعا سيرهما. يطأان العالم الميت من تحتهما، كما تدوس العجلة على الفئران. ما تزال الليالي مسكونة بالموت حالكة الظلمة وشديدة البرد. نادرا ما كانا يتكلمان. كان دائم السعال وكان الصبي يراه دائما وهو يبصق دما. يسقط فجأة ويمشي متهالكا على طول الطريق. قذر، رث الثياب، يائس وفاقد الأمل. أصبح يتوقف عن المسير ويتكئ على العربة، في حين أن الصبي كان يتقدمه ثم يقف وينظر إلى الوراء رافعا عينيه الدامعتين الباكيتين؛ كي يراه والرجل ينظر إليه من مكانه حيث يقف من خلال مستقبل لا يمكن تخيله أو تصوره فيراه متوهجا وسط الخراب والدمار وكأن الروح متجسدة فيه.

مر الطريق بأماكن مستنقعية موحلة وجافة انتصب فيها الجليد على شكل مواسير متجمدة ناتئة من الوحل كأنها تشكيلات داخل كهف. ثمة مخلفات نار قديمة على جانب الطريق، يمتد خلفها ممر إسمنتي معبد. أرض مستنقعية ميتة، أشجار ميتة منتصبة ومصطفة وسط المياه الرمادية والطحالب. رقاقات من الرماد حريرية الملمس عالقة على الحاجز الحجري القائم عند حافة الطريق. وقف متكئا على الحجر الإسمنتي الرملي. ربما يتيح لك تدمير العالم أن ترى في النهاية كيف تشكل؛ محيطات وجبال. مشهد ممل غير اعتيادي وثقيل الوطأة لأشياء زالت من الوجود وانتهت. أراضٍ مترامية الأطراف مقفرة وخربة يلفها البرد. السكون.

مرا على الطريق بأوراق ميتة أسقطتها الرياح من أشجار الصنوبر وحملتها وطرحتها على الأرض. دمار وخراب وانهيارات رهيبة عبر الأرياف. حطام الأبنية مبعثر فوق الأراضي الريفية. أسلاك الأعمدة الكهربائية مقطعة ومتشابكة ومرمية على الطريق المغطاة بالأنقاض والحطام والمخلفات مما جعل دفع العربة فوقها عملا شاقا. أخيرا جلسا على جانب الطريق وأخذا يحدقان بما هو موجود أمامهما؛ أسطح بيوت وجذوع أشجار وقارب. سماء مفتوحة دونها بحر متجهم كئيب يموج بطيئا ومتوانيا.

⁂ ⁂ ⁂

نبشا بين الحطام المتراكم على طول الطريق وعثر أخيرا على حقيبة مصنوعة من قماش القنب يمكنه حملها على كتفه وحقيبة أخرى صغيرة للصبي. حزما البطانية والغطاء البلاستيكي وما تبقى لديهما من أطعمة معلبة. شرعا بالمسير مجددا محملين بالحقائب وقد خلفا العربة وراءهما. يتقدمان ببطء وجهد ومشقة عبر الركام وبين الخرائب. كان عليه أن يتوقف؛ كي يستريح. جلس على مقعد جانب الطريق عليه وسائد منتفخة بفعل الرطوبة. انحنى وبدأ يسعل. أزاح اللثام المغطى بالدماء من على وجهه. نهض وغسله بماء متجمع في حفرة، عصره من المياه ووقف على الطريق. تلون نفسه بلون أبيض مائل للزرقة. لقد أدركهما الشتاء. نظر إلى الصبي؛ كان واقفا يحمل حقيبته كأنه يتيم ينتظر حافلة.

في غضون يومين وصلا إلى مكان فيه نهر كبير عريض فوقه جسر انهار واستقر في المياه الجارية جريانا بطيئا. جلسا على كتف الطريق؛ في المكان الذي كان يصل بينهما وبين الجسر المنهار، ينظران إلى النهر وهو يلتف حول التعريشة الحديدية المتشابكة. نظر عبر مياه النهر إلى

الريف الممتد خلفه.

قال للصبي:

ـ ماذا سنفعل بابا؟

قال الصبي:

ـ حسنا ماذا سنفعل يا أبي؟

سارا على طول لسان أرضي موحل محاذٍ للبحر. ثمة قارب صغير نصفه مدفون في الرمال. وقفا ينظران إليه؛ مهجور ومهمل. الرياح محملة بالأمطار. شقا طريقهما بصعوبة مبتعدين عن الشاطئ ومثقلين بالحقائب؛ بحثا عن مأوى يأويان إليه لكن عبثا كانا يفعلان.

جر شيئا من الحطب ذي اللون العاجي والمتوافر على طول الشاطئ، كوَّمه وأضرم النار فيه. جلسا بين الخرائب وقد جعلا الغطاء فوقهما ينظران إلى المطر البارد الذي يقترب نحوهما من جهة الشمال. اشتد هطل المطر وتساقط على الرمال محدثا فيها نُقَرَاً تشبه الغمازات. أطلقت النار بخارا ونفثت دخانا التف فوقها متشكلا في حلقات. اندس الصبي تحت الغطاء وسرعان ما استغرق في النوم. رفع الرجل الغطاء البلاستيكي ولفه حول ظهره وفوق رأسه وجلس ينظر إلى البحر الرمادي وهو يحتجب خلف الأمطار ويرى كيف يتكسر الموج على طول الشاطئ ثم ينسحب من جديد مختبئا خلف ستار العتمة منحسرا عن رمال خلَّف عليها نقوشا.

في اليوم اللاحق ابتعدا عن الساحل متجهين نحو الداخل. أراضٍ فسيحة مستنقعية مغطاة بنباتات السرخس والسلحبيات. كان تقدمهما في المسير عذابا محضا. وصلا بعد يومين إلى طريق. وضع الحقيبة على الطريق وجلس فوقها محنيا. شابك يديه، وضعهما على صدره وبدأ يسعل إلى أن

أنهك ولم يعد قادرا على السعال. سارا مدة يومين إضافيين. ربما يكونان قد قطعا مسافة عشرة أميال. عبرا النهر وبعد مسافة قصيرة وصلا إلى مكان تتقاطع عنده الطرق. كانت قد هبت على الريف عواصف فاقتلعت الأشجار المتفحمة والميتة من الشرق إلى الغرب وسوتها بالأرض كأنها أعشاب ضارة وطحالب غارقة في قاع جدول ماء. هنا نصبا لنفسيهما خيمة. عندما اضطجع على الأرض أدرك أنه لن يقوى على المضي أبعد من ذلك، وأيقن أنه سيلقى حتفه في هذا المكان. جلس الصبي ينظر إليه وعيناه مغرورقتان بالدموع وقال: أوه يا أبي.

كان يشاهده قادما عبر الأعشاب. جثا على ركبتيه وبيده كوب من الماء أتى به. توجد هالة من الضوء تحيط به. تناول الكوب، شرب ثم استلقى على ظهره. كان طعامهما علبة من الدراق إلا أنه جعل الصبي يأكلها، أما هو فلم يأكل شيئا. قال:

ـ لا أستطيع. هكذا أفضل.

ـ سوف أحتفظ لك بنصف العلبة؛ نصيبك منها.

ـ حسنا، احتفظ به حتى يوم الغد.

أخذ الكوب و مشى بعيدا فإذا بهالة الضوء تمشي معه. أراد أن يجعل الغطاء خيمة، لكن الرجل لم يتركه يفعل. قال: إنه لا يريد أن يكون فوقه أي غطاء. اضطجع ينظر إلى الصبي عند النار. ودّ أن يكون قادرا على الرؤية. قال: انظر حولك. لا يوجد نبي عبر تاريخ الأرض وعمرها المديد إلا وقد بلغ مراتب الشرف هنا اليوم. كل ما يشكلك ويتكلم عنك هو على حق.

ظن الصبي أنه شم رائحة رماد رطب تحملها الريح. ذهب نحو الطريق وعاد منه يجر لوحا خشبيا أخرجه من بين النفايات المتراكمة على جانبه

ويدحرج دفعا بقدمه بعض القضبان وصخرة صغيرة على الأرض. صنع منها جميعا كوخا منحدر السطح متداعيا ومخلع الأوصال لكن في النهاية لم يهطل المطر. ترك مسدس الإشارة وأخذ معه المسدس الآخر وطاف بالريف؛ بحثا عن أي شيء يؤكل، لكنه عاد صفر اليدين. أمسك بيده وقال بصوت متقطع ومتعب بسبب صعوبة التنفس:

ـ يجب عليك أن تستمر. أنا لا أستطيع أن أذهب معك. عليك أن تتابع المسير. إنك لا تعرف ماذا يمكن أن يكون في أدنى الطريق. لقد كنا دائما محظوظين. سوف يبقى الحظ إلى جانبك ولسوف ترى. ما هو مطلوب منك هو أن تستمر وكل الأمور ستكون على ما يرام.

ـ لا أستطيع.

ـ حسنا. لقد أمضينا وقتا طويلا في مسيرتنا وها نحن الآن قد وصلنا إلى هنا. استمر في الذهاب جنوبا. أفعل كل شيء على النحو الذي فعلناه معا.

ـ سوف تكون بخير يا أبي. يجب عليك أن تكون كذلك.

ـ كلا لن يكون هذا. احتفظ بالمسدس معك دائما. عليك أن تجد الناس الطيبين، ولكن ليس لديك فرصة للمخاطرة. يجب ألا تخاطر. هل تسمع؟

ـ أريد أن أكون معك.

ـ لا تستطيع.

ـ أرجوك؟

ـ لا تستطيع. عليك أن تحمل النار.

ـ لا أعرف كيف أفعل.

ـ بل أنت تعرف.

ـ هل هي حقيقية؟ النار؟

ـ نعم إنها حقيقية.

ـ أين هي؟

ـ لا أعرف أين هي.

ـ بل تعرف.

ـ إنها في داخلك. كانت دائما هناك. أستطيع أن أراها.

ـ فقط خذني معك. أرجوك.

ـ لا أستطيع.

ـ أرجوك يا أبي.

ـ لا أستطيع. لا أستطيع أن أحضن ولدي بين ذراعي ميتا. كنت أظن أنني أقدر، لكني لا أستطيع.

ـ قلت: إنك لن تتركني أبدا.

ـ أعرف. أنا آسف، لك قلبي؛ كل قلبي. دائما كان قلبي لك. أنت خير صديق، وقد كنت دائما كذلك. حتى إن لم أكن موجودا بإمكانك أن تحدثني. تستطيع أن تكلمني وأنا سوف أكلمك. سوف ترى.

ـ وهل أستطيع أن أسمعك؟

ـ نعم سوف تتمكن من ذلك. عليك أن تفعل هذا تبعا للمحادثة التي تتخيلها، وسوف تسمعني. يجب أن تتمرن. المهم ألا تستسلم. ما رأيك؟

ـ حسنا.

ـ حسنا.

ـ أنا خائف حقا يا أبي.

ـ أعرف لكنك سوف تكون بخير. سيحالفك الحظ، فأنا على يقين أنك محظوظ. يجب أن أكف عن الكلام، فقد انتابني السعال.

ـ حسنا يا أبي. لا ينبغي أن تتكلم. حسنا.

سار على الطريق نزولا ما أسعفته الجرأة أن يفعل ثم قفل عائدا. كان أبوه نائما. جلس تحت اللوح الخشبي ينظر إليه. أغمض عينيه وتحدث إليه. أبقى عينيه مغمضتين وأنصت ثم كرر المحاولة.

استيقظ في كنف الظلام وبدأ يسعل بهدوء. اضطجع منصتا. جلس الصبي قرب النار متلفعا ببطانية يراقبه. صوت ماء يقطر وضوء شحيح آخذ بالتلاشي وأحلام قديمة تتسلل خلسة إلى عالم اليقظة. أما الماء الذي كان يقطر فقد كان في الكهف، وأما الضوء فقد كان القنديل الذي حمله الصبي بواسطة عصا منتهية بحلقة من النحاس المستطرق. تساقط الشمع على الأحجار على شكل قطرات. في الرواسب الطينية آثار أقدام لمخلوقات مجهولة. وصلا في الرواق البارد إلى نقطة اللاعودة؛ تلك النقطة التي قيست اعتبارا من أثر القدم الأول، وذلك بواسطة الضوء الذي كانا يحملان.

ـ هل تتذكر الصبي الصغير يا أبي؟

ـ نعم. أتذكره.

ـ هل تظن أن ذاك الصبي الصغير هو بخير الآن؟

ـ أوه . نعم أعتقد أنه بخير.

ـ هل تعتقد أنه ضائع؟

ـ كلا، لا أعتقد أنه ضاع.

ـ أخشى أن يكون قد ضاع.

ـ أعتقد أنه بخير.

ـ و لكن من سيجده إن كان ضائعا؟ من سيجد الصبي الصغير؟

ــ الخير سوف يجد الصبي الصغير. كان الخير يفعل ذلك دائما. ولسوف يستمر.

نام تلك الليلة ملاصقا لأبيه وعانقه. عندما استيقظ في الصباح كان أبوه باردا ومتيبسا. جلس في مكانه وقتا طويلا يبكي ويذرف الدمع ثم نهض وسار عبر الغابات وصولا إلى الطريق. عندما عاد جثا على ركبتيه بجانب أبيه، أمسك يده الباردة ونطق باسمه مرارا وتكرارا.

مكث في مكانه أياما ثلاثة، ثم مشى إلى أن بلغ الطريق. نظر إلى حيث ينحدر الطريق ثم استدار ونظر إلى الجهة الثانية من حيث كانا قد أتيا. شخص ما كان يتقدم منه. هم بالالتفات، كي يعود إلى الغابات إلا أنه لم يفعل. اكتفى بالوقوف والانتظار على الطريق والمسدس في يده. الرجل الذي أصبح فجأة في مرمى البصر ووقف مكانه ينظر إليه. كان يلبس سترة تزلج مقلنسة باللونين الرمادي والأصفر ويحمل على كتفه بندقية رشاشة مقلوبة رأسا على عقب وهي مزودة بحبل قصير مجدول ومصنوع من الجلد الطبيعي. كان الرجل متمنطقا بنطاق عريض مصنوع من النايلون فيه جيوب صغيرة ممتلئة بطلقات خاصة بالبندقية. محارب قديم ملتحٍ، على خده ندوب وتحته العظم مكسور جراء تعرضه لضربة ما، وفي إحدى عينيه خلل وعندما يتكلم أو يبتسم يتخذ فمه شكلا غير سوي.

ـ أين الرجل الذي كنت معه؟

ـ لقد مات.

ـ هل هو أبوك؟

ـ نعم هو أبي.

ـ أنا آسف.

ـ لا أعرف ماذا أفعل.

ـ أعتقد أنه ينبغي عليك أن تأتي معي.

ـ هل أنت واحد من الناس الطيبين؟

أزاح الرجل القلنسوة عن رأسه ووجهه. شعره طويل ومجدول. نظر إلى السماء كما لو أن فيها شيئا يرى. نظر إلى الصبي، وقال:

ـ نعم أنا واحد من الناس الطيبين. لماذا لا تبعد المسدس؟

ـ لا يفترض بي أن أمكن أحدا من أخذ المسدس مهما كلف الأمر.

ـ لا أريد مسدسك. كل ما أريده منك ألا تصوبه نحوي.

ـ حسنا.

ـ أين أمتعتك؟

ـ ليس لدينا الكثير من الأمتعة.

ـ هل لديك كيس للنوم؟

ـ كلا.

ـ ماذا لديك؟ بعض البطانيات؟

ـ أبي ملتف ومغطى بها.

ـ أرني.

لم يتحرك الصبي، بينما كان الرجل يراقبه. جثا على إحدى ركبتيه. أنزل البندقية عن كتفه ووضعها على الأرض واتكأ عليها. طلقات البندقية الموجودة في النطاق معبأة يدويا ومختومة بالشمع. تفوح منه رائحة دخان

ناتجة عن حطب مشـتعل. قال: لديك خيـاران هنا. لقد دار بعض النقاش حـول فكرة مجيئي إليك أساسـا. تسـتطيع أن تبقى هنـا إلى جانب أبيك وتمـوت أو تأتي معي. إن قـررت البقاء هنا فعليك أن تبتعد عن الطريق. لا أعـرف كيف جعلت مكان وجودك بعيدا إلى هذا الحد، لكن عليك أن تأتي معي وسوف تكون بخير.

ـ كيف لي أن أعرف أنك واحد من الناس الطيبين؟

ـ لن تعرف. عليك أن تحتفظ بطلقة.

ـ هل أنتم تحملون النار؟

ـ نحن ماذا؟

ـ تحملون النار؟

ـ أنت غريب بعض الشيء. أليس كذلك؟

ـ كلا.

ـ إلى حد ما.

ـ نعم.

ـ حسنا.

ـ إذاً. هل أنتم؟

ـ ماذا، تحملون النار؟

ـ نعم.

ـ نعم، نحن نفعل.

ـ هل عندكم أولاد؟

ـ نعم.

ـ هل عندك صبي صغير؟

ـ لدينا صبي صغير وفتاة صغيرة.

ـ كم عمره؟

ـ قريب من عمرك. ربما أكبر منك سنا ولكن الفرق بينكما قليل.

ـ ألم تأكلهما؟

ـ لا.

ـ ألا تأكلون بشرا؟

ـ لا ، لا نأكل بشرا.

ـ و هل أستطيع أن أذهب معك؟

ـ نعم تستطيع.

ـ حسنا إذاً.

ـ حسنا.

دخـلا إلى الغابات. جثا الرجل على ركبتيه ونظر إلى هيئة هذا الكائن البشري ذي اللون الرمادي المسجى تحت لوح خشبي مائل.

ـ هل هذه هي كل البطانيات التي لديك؟

ـ نعم.

ـ وهل هذه حقيبتك؟

ـ نعم.

وقف ونظر إلى الصبي، وقال:

ـ لماذا لا تعود إلى الطريق وتنتظرني هناك. سـوف أحضـر البطانيات، وكل شيء.

ـ وماذا عن أبي؟

ـ ماذا عنه؟

ـ لا نستطيع أن نتركه هكذا.

ـ بل نستطيع.

ـ لا أريد أن يراه الناس.

ـ لا يوجد أحد يراه.

ـ هل أستطيع أن أغطيه بالأغصان؟

ـ سوف تعصف الريح بها.

ـ هل نستطيع تغطيته بإحدى البطانيات؟

ـ سوف أفعل ذلك. اذهب الآن.

ـ حسنا.

انتظر على الطريق، وعندما ظهر الرجل خارجا من الغابات كان يحمل الحقيبة بيده ويضع البطانيات فوق كتفه. اختار واحدة منها وناولها للصبي وقال:

ـ خذ. تلفع بها، فأنت تعاني من البرد.

حاول الصبي أن يعطيه المسدس لكنه أبى أن يأخذه وقال:

ـ احتفظ به.

ـ حسنا

ـ هل تعرف أن تطلق النار بواسطته؟

ـ نعم.

ـ حسنا.

ـ ماذا عن أبي؟

ـ لا يمكننا أن نفعل أي شيء آخر من أجله.

ـ أعتقد أنني أود أن أقول له: وداعا.

ـ هل ستكون على ما يرام؟

ـ نعم.

ـ إذاً فلتذهب. وأنا سأكون بانتظارك.

عاد إلى الغابات. جثا على ركبتيه قرب أبيه. كان مغطى بالبطانية كما وعده الرجل ولم يكشف الصبي الغطاء عنه، بل جلس إلى جانبه. أخذ يبكي ولم يستطع أن يكف عن البكاء. بكى زمنا طويلا وهمس: سوف أتحدث إليك كل يوم ولن أنسى مهما كلف الأمر، ثم نهض. استدار وعاد إلى الطريق.

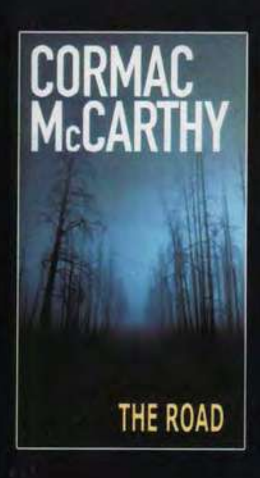
عندما رأته المرأة عانقته وضمته إلى صدرها وقالت:

ـ أوه، رؤيتك جعلتني بمنتهى السعادة. كانت تحدثه أحيانا عن الإله. حاول أن يتحدث إلى الإله، لكن أفضل شيء كان هو التحدث إلى أبيه، فواظب على الحديث معه ولم ينسَ.

كان يوجد ذات يوم في الجداول المائية المنتشرة بين الجبال طوائف من أسماك السلمون المرقطة. تستطيع رؤيتها. منتصبة وسط التيارات المائية المتدفقة ذات اللون الكهرماني؛ ذاك اللون الأصفر الضارب إلى الحمرة، حيث النهايات البيضاء لزعانفها تموج برفق وسط الماء. تفوح من يدك رائحة الطحالب. تنفتل و تتلوى لامعة و قوية. على ظهورها خطوط ملتوية دودية الشكل؛ تلكم هي خرائط العالم فيما سيؤول إليه. خرائط و متاهات لشيء لا يمكن أن يعود إلى سابق عهده، كما لا يمكن أن يصلح حاله من

جديد. في الوديان الصــغيرة العميقة والمنعزلة حيث عاشت الأسماك، كل الأشــياء أكثر تجذرا وأقدم عهدا من الإنســـان، وهي تــترنم وتهمهم حول لغز، بيد أنها لا تفصح عنه.





"أول تحفة روائية عن جيل الاحتباس الحراري. «الطريق» رواية أمريكية كلاسيكية جعلت مكارثي على الفور مرشحا لنيل جائزة نوبل للأدب".

اندرو اوهاجان، BBC Radio 4

أب وابنه يسيران عبر الأرض المحروقة في أمريكا. لا شيء يتحرك في مشهد الخراب والدمار الشامل سوى الرماد الذي تذروه الرياح. وجهتهما الشاطئ، مع أنهما لا يعرفان ما الذي يكمن في انتظارهما، إذا وجدا شيئا هناك. ليس لدى الاثنين شيء سوى مسدس يدافعان به عن وجودهما أمام عصابات قطاع الطرق، وعن الثياب التي يرتديانها، وعربة محملة بالفتات – وعن حياة كل منهما.

"يستحضر مكارثي من هذا الهروب الصعب معجزة الإنسانية التي لا تلين ولا تستكين. الرواية مؤثرة ومثيرة إلى حد لا يصدق".

كريس كليف، Sunday Times

"إحدى أكثر الروايات التي قرأتها إثارة لمشاعر الصدمة والرعب، دون أن تتخلى عن مهمتها الإنقاذية/الخلاصية. «الطريق» قصة حميمية مكثفة، إنذار يحذر من مغبة الآتي".

كريستي وارك، Observer Books of the Year

"يصعب عليك تجاهل عمل بمثل هذا الجمال المروع. «الطريق» رواية تحبس الأنفاس فعلا".

توم غاتي، The Times

"سوف تتابع القراءة وأنت في حالة من الاقتناع الكامل، والانسحار الشامل، والإثارة المطلقة. كل ما تستطيع الرواية الحديثة فعله موجود هنا".

الن وارنر، The Guardian

"تحفة روائية سرعان ما ستعد من الكلاسيكيات الأدبية العظيمة".

Herald

"يثبت مكارثي أنه واحد من أعظم الأدباء الأمريكيين الأحياء".

Times Literary Supplement

ISBN:978-9960-54-910-1

9 789960 549101

موضوع الكتاب: القصة الإنجليزية - الولايات المتحدة

موقعنا على الإنترنت:
http:/www.obeikanbookshop.com